مركز دراسات الوحدة العربية

البركان

قصة انطلاق المقاومة العراقية

وليد الزبيدي

البركان

قصة انطلاق المقاومة العراقية

مركز دراسات الوحدة العربية

البركان

قصة انطلاق المقاومة العراقية

الدكتور وليد الزبيدي

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

الزبيدي، وليد

البركان: قصة انطلاق المقاومة العراقية/ وليد الزبيدي.

١٩٢ ص.

ببليوغرافية: ص ١٨٥ ـ ١٨٦.

يشتمل على فهرس.

ISBN 978-9953-82-643-1

١. المقاومة العراقية. أ. العنوان.

956.70443

العنوان بالإنكليزية

The Volcano: The Rise of Iraqi Resistance Story

by Walid Al-Zubaidi

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٤٠٧ ٢٠٣٤ ـ لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)

email: info@caus.org.lb
Web Site: <http://www.caus.org.lb>

حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمركز

الطبعة الأولى

بيروت، كانون الثاني/ يناير ٢٠١٤

المحتويات

خلاصة الكتاب ٧

مقدمة ٢٥

مدخل ٢٩

الفصل الأول: دراسة مقارنة في تجارب المقاومة ٣٣

أولاً: سرعة الانطلاق ٣٥

ثانياً: الظرف الدولي ٥٨

ثالثاً: عامل الإعلام ٦٧

رابعاً: التضاريس ٧١

الفصل الثاني: المقاومة العراقية في الميدان ٨٣

بداية المقاومة ٩٠

الفصل الثالث: ملامح قوة عسكرية عراقية مميزة وتنامي الخوف الأمريكي .. ١١٩

أولاً: أيار/ مايو: قلق وارتباك ١٢١

ثانياً: حزيران/ يونيو: الارتباك والتحول ١٥٥

ملحق: إحصاءات قتلى القوات الأمريكية والقوات الأخرى في العراق ١٧٩

المراجع ١٨٥

فهرس ١٨٧

خلاصة الكتاب

انسحبت القوات الأمريكية من العراق، في أواخر عام ٢٠١١، بعد أن أعلن الرئيس الأمريكي باراك أوباما قرار الانسحاب في تشرين الأول/ أكتوبر من العام نفسه، في خطاب ألقاه عبر وسائل الإعلام الأمريكية والعالمية. وكان البعض قد شكك في ما أعلنه أوباما، بسبب حجم القوات الأمريكية في العراق وما أنفقته إدارة البيت الأبيض من أموال طائلة على حرب العراق؛ كما أن الأوضاع في هذا البلد لم تستقر، ولم تكن هناك ملامح حقيقية لتجربة ديمقراطية كما وعد القادة الأمريكيون قبل الغزو الأمريكي للعراق العام ٢٠٠٣ وبعده.

كتب الكثيرون عن الانسحاب الأمريكي، وذكر الكثير من الكتاب والمحللين الخسائر التي وقعت بين القوات الأمريكية وتكاليف الحرب الطائلة؛ لكن أحداً لم يتطرق إلى القوة الحقيقية التي أرغمت أكبر قوة عسكرية في العالم على مغادرة العراق، وكيف بدأت ملامح الهزيمة وما هي النتائج التي تحققت لمصلحتها على الأرض.

في الواقع، هذه القوة هي المقاومة العراقية، التي تعرضت لتشويه واسع من خلال محاولات الإساءة لها ولدورها في مقاومة الاحتلال الأمريكي وفي التعتيم الهائل على نشاطاتها المتمثلة بشنّ هجمات واسعة وكبيرة ضد القوات المحتلة. حتى بعد إقرار الإدارة الأمريكية بهزيمتها في العراق، وقول الرئيس الأمريكي أوباما إن «جيلاً كاملاً من الأمريكيين سيعاني من حرب العراق» فإن ذكر المقاومة العراقية ظل في الكثير من المحافل ووسائل الإعلام شبه محرم.

أولاً: دوافع تأليف الكتاب

١ ـ تعذر على الأغلبية العظمى من العراقيين الاطلاع على حجم المقاومة التي ظهرت في بلدهم، والتعرف إلى نشاطات المقاومين في العراق، بسبب البداية المبكرة جداً للمقاومة وعدم وجود وسائل إعلام توثق وتنشر عملياتها. ولم يكن يعرف أبناء المدينة الواحدة بهجمات تستهدف قوات الاحتلال وتلحق بهم الخسائر الجسيمة على بعد كيلومترات من وجودهم.

٢ ـ جرت محاولات واسعة لتجزئة المقاومة من طريق نزع الثوب الوطني عنها، من خلال تكريس خطاب يذهب باتجاه مناطقية هذه المقاومة أو اقتصارها على طائفة واحدة. ما ورد في هذا الكتاب ينفي ذلك التكريس ويؤكد مهاجمة قوات الاحتلال في مختلف مناطق العراق.

٣ ـ يتوقع أن يشرع دارسون وباحثون في البحث في تجربة المقاومة العراقية، وقد لا يجد هؤلاء مادة بحثية موثقة لاعتمادها في بحوثهم.

٤ ـ قد تتعرض المقاومة العراقية لهجمة أخرى فيظهر من يكتب عنها بهدف الإساءة إليها ويكون عمله مصدراً ومرجعاً للباحثين والمهتمين؛ وفي حال خلو الساحة من بحث علمي فإن البعض قد يعتمد كل ما يرى أمامه من كتب وبحوث ودراسات وينقل عنها الغث والسمين.

٥ ـ يحمل هذا الكتاب رسالة إلى المقاومين أنفسهم وعوائلهم، فهو يوثق الكثير من هجماتهم ويعرّفهم بالذين قتلوهم من قوات الاحتلال، اعتماداً على المصادر الأمريكية والبريطانية، مع تثبيت التاريخ ومكان الهجوم الذي نفذه المقاومون.

ثانياً: الدراسة المقارنة

منذ بدأ الاحتلال في نيسان/ أبريل العام ٢٠٠٣، اهتممت بموضوعة الاحتلال ومثله قضية المقاومة العراقية. ومن خلال دراستي لتجارب المقاومة في العالم ـ على الأقل في العصر الحديث ـ توجست خيفة من احتمال أن يجثم المحتلون طويلاً على صدور العراقيين لأسباب موضوعية، يقف في مقدمها تفرّد الولايات المتحدة بالقطبية وفرض هيمنتها على العالم بعد انهيار الاتحاد السوفياتي مطلع تسعينيات القرن الماضي، وهذا يعني غياب الدعم عن هذه المقاومة الذي كان متوافراً للمقاومات الأخرى، كما

غياب العوامل الأخرى المساعدة والداعمة لأي مقاومة من الدعم الإعلامي وطبيعة الأرض «التضاريس» في قضية المقاومة العراقية، ما يتسبب بتأخر ظهور المقاومة إن لم يكن استحالة ذلك. لذا شرعت في دراسة تلك العوامل مقارنة بتجربة المقاومة في العراق، وتبين أن انطلاق المقاومة العراقية حصل بعد ٢٤ ساعة فقط من الاحتلال الأمريكي؛ وقتْل أول جنديين أمريكيين في بغداد أمر لافت ويستحق الدراسة.

وفي سبيل الفصل بين الدفاع عن العراق منذ بداية الغزو في ١٩/ ٣/ ٢٠٠٣ وبداية المقاومة مع بدء الاحتلال في ١٠/ ٤/ ٢٠٠٣، فقد اهتم الكتاب بالفصل بين حقبة الدفاع عن البلد من قبل المؤسسة العسكرية والأمنية وبين مقاومة الاحتلال من قبل المقاومين. لهذا وجدت أننا، في البداية، بحاجة إلى وضع فاصل زمني بين حقبتين تاريخيتين فاصلتين، هما حقبة العراق بوصفه دولة مستقلة ذات سيادة كاملة، يمتلك جميع مقومات الدولة الحديثة من قوات مسلحة ومؤسسات أمنية وإدارية وسياسية تحملت مسؤولية الدفاع عن الوطن منذ الدقائق الأولى لبدء الغزو فجر التاسع عشر من آذار/ مارس ٢٠٠٣ وحتى يوم التاسع من نيسان من العام نفسه، حيث الجيش والشعب العراقيان قد قاتلا ما في وسعهما ضد قوات الغزو في البصرة والعمارة والسماوة والنجف وكربلاء والكوت والمحمودية وفي بغداد، عندما تقدمت من الجنوب صعوداً إلى بغداد، معتمدة أسلوب عزل المدن والقطعات العسكرية وتجاوزها إلى المناطق الأخرى. ثم حقبة ما بعد التاسع من نيسان/ أبريل حين سقطت الدولة في أيدي الاحتلال واتخذت المواجهة معه منحىً آخر هو منحى المقاومة.

علينا أن نميز إذاً بين هاتين الحقبتين، إذ لكل منهما خصوصيتها ومواصفاتها، لذا ارتأينا ولأغراض البحث العلمي، ولكي نستخدم المصطلح المناسب لكل فترة، الفصل بين المرحلة أو الحقبة الأولى، تمتد من فجر التاسع عشر من آذار/ مارس العام ٢٠٠٣ حتى الدقائق الأخيرة من يوم الأربعاء المصادف ٩/ ٤/ ٢٠٠٣ وهو اليوم الذي تمت فيه عملية إسقاط التمثال الشهيرة. وبين الحقبة الثانية، التي تبدأ من الساعة الأولى ليوم الخميس ١٠ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣.

ورغم أن الجميع يؤرخون للتاسع من نيسان/ أبريل على أنه أول أيام الاحتلال الأمريكي للعراق، إلا أننا نرى، أن هذا اليوم المصادف يوم الأربعاء هو اليوم الأخير من أيام سيادة الدولة العراقية قبل احتلالها، ولنا على ذلك مجموعة من الأدلة والأسانيد. ففي ذلك اليوم تمكنت القوات الأمريكية من دخول العاصمة العراقية (يوم التاسع من نيسان/ أبريل العام ٢٠٠٣)، وتم إسقاط التمثال الشهير للرئيس الراحل صدام حسين

عصر ذلك اليوم في ساحة الفردوس أمام فندق فلسطين ميريديان، الذي انتقلت إليه الأغلبية العظمى من الصحفيين، الذين أتوا لتغطية وقائع الحرب من بغداد، وكان إسقاط التمثال بمثابة الإعلان عن بدء حقبة أخرى. ونقول إن ذلك اليوم ما زال يُحسب على أيام السيادة العراقية، إذ بقيت بعض مظاهر السيادة حتى ذلك اليوم، المتمثلة بوجود عسكري وأمني وحزبي في الشوارع حتى ساعات الصباح ليوم التاسع من نيسان/ أبريل وإن كان قليلاً ومحدوداً في مناطق ومتلاشياً في مناطق أخرى.

كما أن أحد أهم مظاهر السيادة، التي اعتاد الرأي العام العراقي والدولي متابعته منذ بداية الغزو الأمريكي، هو الظهور اليومي المتواصل لوزير الإعلام العراقي محمد سعيد الصحاف الذي كان موجوداً صباح ٩/ ٤/ ٢٠٠٣ يمارس عمله اليومي، حيث شوهد صباح ذلك اليوم والتقى الصحفيين في فندق الميريديان، ثم غادر بعد ذلك إلى جهة مجهولة. وفي يوم التاسع من نيسان/ أبريل صدرت الصحف العراقية ومنها جريدة **الثورة** الناطقة باسم حزب البعث وجريدة **القادسية** الناطقة باسم وزارة الدفاع وجريدة **بابل**[1] وجريدة **العراق**. كما أن إذاعة العراق الرسمية قد واصلت بثها وإن اقتصر على الأناشيد الحماسية، إلا أنها تبقى أحد مظاهر وجود السلطة، وأن إسقاط التمثال عصر يوم الأربعاء يؤشر إلى وجود السلطة حتى عصر ذلك اليوم، وما إن هبط الليل، حتى تم سدل الستار على حقبة من تاريخ العراق، انطوى فيها أي معْلم من معالم السيادة، لتبدأ حقبة أخرى، تحمل بين طياتها المجهول بكل ما تعنيه هذه الكلمة.

واستناداً إلى وقائع إسقاط التمثال، واختفاء مظاهر الحكومة العراقية، وازدياد انتشار القوات الأمريكية، ومواصلة التصريحات الأمريكية، سواء من قاعدة السيلية في قطر، أو من مطار بغداد وفندق الميريديان التي تمركزت فيه القوات الأمريكية، فإن الأدبيات التي ظهرت والأوصاف التي بدأ استخدامها في وسائل الإعلام، اعتمدت لفظ: احتلال العراق من قبل الولايات المتحدة، وهو ما جرى تداوله في جميع وسائل الإعلام وفي المتابعات الاخبارية والتحليلات. ولكن قبل الساعة الثانية عشرة ليلاً من ذلك اليوم (التاسع من نيسان/ أبريل)، لم يتم تداول «احتلال» واقتصر على ذكر مفردة «غزو» من قبل المؤسسات الإعلامية الرصينة، في حين استخدمت مؤسسات أخرى مفردة «الحرب». لذلك فإن حقبة الاحتلال قد بدأت، بما يتناسب ومعنى الاحتلال العسكري فعلياً منذ ذلك اليوم، وأن مفهوم الدفاع الذي تمارسه المؤسسة العسكرية

(١) بابل (بغداد)، ٩/ ٤/ ٢٠٠٣.

العراقية والمؤسسات الأخرى قد توقف، ليبدأ تعامل آخر وأسلوب ونمط مختلف تماماً يتناسب والواقع الموجود على الأرض.

وهنا نفرّق بين مصطلحي «الدفاع» و«المقاومة» لأمر هام، هو من متطلبات البحث العلمي الذي يتناول مسألة نشوء المقاومة العراقية وانطلاقتها وفق أسس واضحة، لا تقبل اللبس والتداخل. فالذي وقف ضد قوات الغزو منذ يوم ١٩/ ٣/ ٢٠٠٣ وحتى يوم التاسع من نيسان/ أبريل، فقد كان يؤدي واجباً رسمياً وطنياً، وهو إما أن يكون أحد منتسبي القوات المسلحة والأجهزة الأمنية والحزبية أو ضمن تشكيلات رسمية أخرى؛ وهؤلاء جميعاً يؤدون واجباً رسمياً، فالذي يتخاذل أو يتردد يعرّض نفسه للمحاسبة القصوى، إذ إن البلد يتعرض لخطر الغزو الخارجي، والذي يتميز في تصديه لقوات الغزو، فإنه يؤدي واجباً وطنياً أمام الجهة المسؤولة عنه، وفي جميع الأحوال فإن قضية «الثواب والعقاب» يضعها الجميع نصب أعينهم، وهذا إطار المنظومة الرسمية المتعارف عليها في جميع الدول في حال تعرضها لعدوان خارجي.

ولكي نحدد المصطلح بدقة ومن هذا الفهم، فإننا نرى أن أي فعل عراقي حصل ضد قوات الغزو منذ اليوم الأول لبدء الغزو في ١٩/ ٣/ ٢٠٠٣ يدخل ضمن «الدفاع والمسؤولية الوطنية»، لأنه واجب رسمي على أفراد القوات المسلحة والأجهزة الأمنية والعموم من المواطنين تأديته والوقوف بوجه الغزاة المعتدين. أصبح الوضع في العراق مختلف تماماً، إذ استبدلت في ذلك الوقت مسألة «الثواب والعقاب» بمرحلة التصدي للمحتلين، الذين استباحوا حرمة البلد. وإذا كان مصطلح «الدفاع» ينطبق على كل فعل عراقي واجه قوات الغزو، حتى نهاية يوم التاسع من نيسان/ أبريل، فإن مصطلح «المقاومة» يطلق على كل فعل ينفذ ضد القوات المحتلة على أرض العراق. لذلك فإن التحليل العلمي الدقيق والمنطقي، يقول بأن أول يوم للاحتلال الأمريكي للعراق، يجب أن يؤرخ له بـ ١٠ نيسان/ أبريل عام ٢٠٠٣، وليس يوم الأربعاء التاسع منه. فقد كان هذا اليوم عبارة عن المعركة الأخيرة في الحرب الأمريكية على العراق.

من هنا نقول، بأن المقاومة قد بدأت فعلياً بعد أقل من ٢٤ ساعة، وتحديداً في الساعات الأولى لنهار يوم الخميس ١٠/ ٤/ ٢٠٠٣. وهنا لا بد من توضيح نقطة هامة، تتعلق بتصنيف أي فعل قتالي استهدف القوات المحتلة، بعد أن وقع فعل الاحتلال على البلد، وانهارت المنظومة الرسمية، ولم يعد هناك أي وجود يذكر لمسألة العقاب والثواب، إذ لم تكن في ذلك الحين على أرض العراق سوى قوة أجنبية مدججة بأقوى أنواع الأسلحة، وقد حققت أهدافها المعلنة والواضحة، وهي إسقاط الحكومة في

بغداد، وفرض السيطرة على العراق، وهذه القوة ليست سهلة؛ إنها القوات الأمريكية والبريطانية، التي تمكنت من الوصول إلى بغداد في وقت قياسي (إذ دخلت القوات الأمريكية مطار بغداد قبل التاريخ المتعارف عليه باحتلال العراق بستة أيام وذلك مساء الثالث من نيسان/ أبريل العام ٢٠٠٣ ـ حسب تقارير مراسل قناة فوكس نيوز المرافق للقوات الأمريكية إضافة إلى بيانات القيادة العسكرية الأمريكية) وبعد ذلك دخلت العاصمة من جميع الاتجاهات صباح التاسع من نيسان/ أبريل، وخلال الأيام والأسابيع اللاحقة، حاولت القوات الأمريكية، وعلى لسان كبار القادة، إطلاق تصريحات يمكن وصفها بالتمويهية أحياناً، والمرتبكة أحياناً أخرى. فقد دأبت في تلك الفترة على وصف الهجمات التي تتعرض لها قواتهم في الأيام والأسابيع الأولى للاحتلال بأنها من «بقايا الجيوب القتالية».

وفي واقع الحال، إننا نجد أن خلطاً كبيراً قد حصل بين طبيعة الفعل ونوع الاصطلاح الذي استخدم في توصيف ذلك الفعل. وهنا نحتاج إلى شرح بسيط لمفهوم «بقايا الجيوب» ومتى يتم استخدام هذا المصطلح. إن لفظة الجيوب تشمل المجاميع القتالية في جبهات الحروب، التي يتم تكليفها بواجبات قتالية محددة، في أماكن متباعده في جبهة الحرب، منها المجاميع العاملة في مجال الدفاع الجوي (مقاومة الطائرات)، التي يتم توزيعها في المرتفعات والغابات والصحارى، ومجاميع استطلاع تحركات.

لقد شهد اليوم الأول للاحتلال مقتل اثنين من الجنود الأمريكيين وجرح ١٣ آخرين ـ حسب اعتراف قادة الجيش الأمريكي ـ ووثقت ذلك صحيفة **يو أس أي توداي** الأمريكية، التي نشرت المعلومات التالية عن القتلى الأمريكيين، وحسب تواريخ قتلهم على أيدي المقاومين في العراق. وقتلت المقاومة في اليوم الثاني (١١/ ٤/ ٢٠٠٣) جندياً من المارينز عمره ٢٦ سنة؛ وفي اليوم الثالث (١٢/ ٤/ ٢٠٠٣) قتل رجال المقاومة اثنين من المارينز أيضاً. وبينما سقط قتيل أمريكي حسب اعتراف الجيش الأمريكي يوم ١٣/ ٤/ ٢٠٠٣ فإن اليوم الخامس من الاحتلال، سجل رقماً عالياً بين قتلى قوات الاحتلال الأمريكية، إذ أقر بمقتل ستة جنود[٢].

لقد شهد شهر نيسان/ أبريل (من اليوم العاشر منه إلى الثلاثين) عام ٢٠٠٣ هجمات عديدة للمقاومة العراقية، اعترف الجيش الأمريكي ببعضها، وتجاهل البعض

(٢) انظر: *Washington Post*, <http://www.washingtonpost.com>; Associated Press, <http://www.ap.org/>, and iCasualties.org (Iraq Coalition Casualty Count), <http://icasualties.org/iraq/index.aspx>.

الآخر، ولم يعترف ببعض خسائره رغم تأكيد ذلك من شهود عيان كثيرين(*). وإذا كان يوم التاسع من نيسان/ أبريل يوماً مفصلياً وهاماً في تاريخ العراق، إذ يُؤرخ به لليوم الأخير من أيام سيادة الدولة العراقية قبل الاحتلال، فإن البحث في موضوعة المقاومة، لا بد من أن يتوقف عند تاريخ آخر، وهو يوم الأول من أيار/ مايو ٢٠٠٣، عندما أعلن الرئيس جورج دبليو بوش «انتهاء العمليات العسكرية في العراق» متحدثاً عن «الانتصار الكبير» في العراق، وانطلقت موجة هادرة من التصفيق، وارتسم الفرح والزهو الكبيرين على وجوه الرئيس الأمريكي وكبار قادة البنتاغون وطواقم البيت الأبيض وفريق المحافظين الجدد، الذين عملوا كل ما في وسعهم لتنفيذ مخطط الحرب على العراق واحتلاله.

وبلا شك فإن لهذا التاريخ علاقة وثيقة الصلة بموضوع بحثنا، لأن وسائل الإعلام والرأي العام تعاملوا طوال الأسابيع الثلاثة (المحصورة بين ١٠/ ٤/ ٢٠٠٣ وإلقاء بوش خطابه الشهير في الأول من أيار/ مايو ٢٠٠٣) مع ما يجري في العراق، على أنه عبارة عن بقايا «جيوب قتالية» وهو الوهم الأول الذي توهمه الأمريكيون أو التضليل الذي لجأوا إليه، ويتضح ذلك من طبيعة اللازمة التي بدأت تستخدمها مختلف وسائل الإعلام.

ثالثاً: الظرف الدولي

تؤثر الظروف الدولية بصورة كبيرة في مسار أي مقاومة، باعتبار أن حصول الفعل المقاوم ينتج من حصول احتلالٍ لأرض محدودة المساحة، أو لدولة، أي حصول اضطراب، قد يرقى إلى مستوى القلق الشديد في المنظومة الإقليمية أو الدولية. وهذا هو الواقع الذي تنشأ وتتطور فيه جميع أنواع وأشكال المقاومة التي يتحدث عنها التاريخ. وإذ نشأت جميع المقاومات تحت وازع الرفض الفطري للاحتلال باعتباره جريمة بشعة لا ترضاها النفس البشرية، وترفضها جميع الفلسفات الإصلاحية، وتقف بمواجهتها القيم والأعراف، فإن انطلاق المقاومة يحتاج إلى عنصر هام، يتمثل بالثقة بتحقيق أهداف المقاومة، وهنا يدخل العامل الإقليمي أو الدولي أو كلاهما، ويكون العمل على ثنائية حاجة المقاومة للدعم، مقابل تحقيق أهداف الطرف أو الأطراف الإقليمية والدولية، التي تسير بالموازاة مع مسار أهداف المقاومة. من هذا المنطلق دعمت بريطانيا ديغول

(*) يشرح الكتاب ذلك بالتفصيل في البحث في يوميات ووقائع الاحتلال والمقاومة، التي توثّق لهجمات المقاومة العراقية المبكرة والعنيفة.

ضد الاحتلال الألماني لفرنسا في بداية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٠، وقدم الاتحاد السوفياتي ودول كثيرة أخرى الدعم الواسع والمطلق للمقاومة الفييتنامية ضد الاحتلال الأمريكي، ووقفت البلدان العربية (وفي طليعتها مصر) إلى جانب المقاومين الجزائريين لتحرير بلادهم من الاحتلال الفرنسي، وحصلت المقاومة الفلسطينية على دعم واسع وكبير من البلدان العربية ومن دول كثيرة أخرى، حيث ازداد الدعم الأمريكي والغربي لإسرائيل لتثبيت احتلالها للأراضي الفلسطينية.

ولسبب موضوعي، فإن المقاومة العراقية، لم تعمل وسط ظرف دولي يسهم في دعمها وتقويتها والحرص على توفير المستلزمات الضرورية لاستمرارها وتحقيق أهدافها، ولا يخفى على الجميع، أن الظرف الدولي الذي تم فيه احتلال العراق، لا يسمح بأي شكل من الأشكال دعم المقاومة العراقية، بعد أن اختتمت «الحرب الباردة» آخر جولاتها مطلع تسعينيات القرن العشرين، وتفردت الإدارة الأمريكية بالسيطرة على القرارات الدولية، بعد تمكنها من جعل العالم بأسره يعيش «القطبية الواحدة»، التي يمسك بجميع عناصر قوتها البيت الأبيض، ولم يعد بإمكان أي دولة أو قوة إقليمية الوقوف بوجهها. وهذه المسألة تفرض حضورها على جميع الباحثين والمتخصصين في تناول الشأن العراقي، وبخاصة ما يرتبط بنشوء المقاومة وتطورها. ولا يمكن إغفال هذه الحقيقة، لأنها تدخل في صلب العامل الأهم، الذي يفترض وجوده لاستمرار المقاومة أو تراجعها وانطفائها وحتى التفكير بإطلاقها، إن لم تبق تلك المقاومة حبيسة الأذهان والمشاعر والأفكار، وقد لا يُسمح بخروجها على الإطلاق.

ولا شك في أن شرط وجود تناحر دولي أو إقليمي، من أولويات حصول دعم المقاومة، وهذا الأمر لا ينطبق على الظروف التي انطلقت فيها المقاومة العراقية، إذ كان العام ٢٠٠٣ (عام الغزو الأمريكي للعراق) من غير المسموح به خروج أي دولة عن «طاعة» الولايات المتحدة، وهذا أحد السياقات المعلنة للحرب على العراق، إذ أعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش بصراحة ووضوح، أن الذي لا يقف مع الولايات المتحدة فهو ضدها، أي أن الجميع في خندق واحد، وهو الخندق الذي تقوده الإدارة الأمريكية.

إن الظرف الدولي والثنائية التي لازمت تجارب المقاومة في العالم غابت تماماً خلال الاحتلال الأمريكي للعراق، ووقف الظرف الدولي بالضد تماماً من المقاومة العراقية، ما حرمها دعماً خارجياً يسهم في دعمها بالميدان ويعجل بتحقيق أهدافها

وبلوغ التحرير الكامل؛ وخير مثال على أهمية الخصومات والصراعات الدولية في دعم تجارب المقاومة هو ما افتقدته المقاومة في العراق.

رابعاً: عامل الإعلام

حظيت المقاومة في جميع التجارب التي تناولناها في هذه الدراسة بدعم إعلامي واسع وكبير، نظراً لأهمية الإعلام ودوره وتأثيره في الرأي العام، وعندما نقارن الدعم والإسناد الإعلامي في تجارب المقاومة، ونقيس ذلك بالظرف الذي نشأت فيه المقاومة العراقية، لا نجد وجهاً للمقارنة على الإطلاق. ويجب أن لا يفوت الجميع أن غزو العراق واحتلاله قد تزامنا مع أوسع انطلاقة يشهدها العالم في وسائل الإعلام من فضائيات وإذاعات وإنترنت.

وفي الوقت الذي تستثمر الولايات المتحدة هذه الثورة الهائلة في عالم الاتصال الحديث لمصلحتها، وتوظفها للترويج لخطابها، فإن المقاومة العراقية وُضعت في الزوايا الخانقة، ولم تتوافر لها أدوات إعلامية تخاطب الرأي العام عن برامجها السياسية وعن نشاطاتها العسكرية، إضافة إلى ممارسة تعبئة للرأي العام لتحصل على المزيد من المتطوعين الراغبين في الانضمام إلى فصائل المقاومة. وفي إجابتي عن سؤال طرحه مذيع إذاعة الـ «بي بي سي» خلال ندوة كنت أحد المشاركين فيها، وسألني عن تأثير غياب إعلام المقاومة العراقية في نشاطاتها، وكيف لها الاستمرار في مثل هذا التضييق على خطابها، وعدم قدرتها على التواصل مع الآخرين، أجبت حينذاك، أن المقاومين يعرفون إنجازاتهم اليومية، وهم يعلمون أن عدوهم يعرف حجم الخسائر الذي تتكبده قواتهم يومياً على أيدي المقاومين في العراق. أضفت أن المقاومين لا ينتظرون بث هجماتهم من خلال الفضائيات ووسائل الإعلام الأخرى، لأن أغلبهم يتحركون في القرى والأرياف، ولا يتوافر لدى الأكثرية من العراقيين التيار الكهربائي، الذي يتيح لهم فرصة متابعة الإعلام المرئي.

أما في تجارب المقاومة الفرنسية والفييتنامية والجزائرية والفلسطينية، فإن عامل الإعلام أدى دوراً هاماً وفاعلاً في ديمومة المقاومة ووصول خطابها إلى جماهيرها وأعدائها في آن معاً، فنجد رئيس الوزراء ونستون تشرشل يأمر بوضع إذاعة الـ «بي بي سي» الشهيرة وواسعة الانتشار في خدمة الجنرال ديغول قائد المقاومة الفرنسية. الذي يقول: لقد تنبهتُ إلى أهمية وسيلة المذياع على اعتبار أنه أسرع وأدق الوسائل الموصلة

لندائي لتبليغ أكبر عدد ممكن من أبناء شعب فرنسا وغيرهم. وكانت الإذاعة هي الهدف، ومن المعلوم، أنه في بداية أربعينيات القرن العشرين، لم يكن البث الفضائي للتلفزيون متوافراً حينذاك، وكانت الإذاعات تتسيد الإعلام بخاصة الخارجي منه. ويشير ديغول أنه أثناء لقائه مع رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل «قد أوضحت له ما يدور في ذهني بخصوص الإذاعة وأهميتها في التواصل مع الفرنسيين في الداخل والخارج، فوافقني فوراً على ذلك، وأمر تشرشل بأن تكون إذاعة الـ «بي بي سي» تحت تصرفي».

وحظيت المقاومة الفلسطينية بدعم إعلامي واسع النطاق، فقد خصصت أغلبية الإذاعات في الوطن العربي برامج خاصة بالمقاومة الفلسطينية، تبث بيانات فصائلها وخطب القادة الفلسطينيين، وتقدم البرامج التي تحث الناس على التبرع للمقاومة ودعمها، كما أنشد الكثير من المطربين للقضية الفلسطينية، وواصلت الصحف في الوطن العربي نشر أخبار المقاومة الفلسطينية، وكتابة المقالات والدراسات التي تتحدث عن مشروعية المقاومة، وأنها العلاج الحقيقي للاحتلال الإسرائيلي. ويتشابه الدعم الإعلامي الذي حظيت به المقاومة الفلسطينية، مع ما حصلت عليه المقاومة الفييتنامية، وإن كان للفييتناميين حصة أوسع وأكبر، إذ تبنى قضية المقاومة الفييتنامية إعلام الاتحاد السوفياتي من صحف وإذاعات وتلفزيون، ومثل ذلك الإعلام الصيني ومعه عدد كبير من دول العالم الثالث.

ومثلما حصلت المقاومة الفرنسية على دعم إعلامي واسع وفي وقت مبكر جداً، فإن المقاومة الجزائرية حظيت بمثل ذلك الدعم الإعلامي؛ إذ يقول رابح بلعيد «بدأت الثورة الجزائرية بنشر بيان في جريدة **صوت الشعب الجزائري** في عددها الأول ديسمبر/ كانون الأول ١٩٥٤»، تحت عنوان، الجزائر تكافح من أجل استقلالها، وبعد أقل من شهر من انطلاق المقاومة جاء الدعم السياسي والإعلامي للمقاومة على أوسع نطاق، وأعلن عبد الخالق حسونة الأمين العام لجامعة الدول العربية في ٢٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٤ تعيين سفير فوق العادة للجامعة العربية هو الجزائري أحمد مزغنة.

أما المقاومة العراقية فقد حُرمت الدعم الإعلامي نهائياً، خلاف ما حصلت عليه المقاومات في العالم. كما أنها تعرضت لعمليات إعلامية واسعة بقصد التأثير في روحية المقاومين وتضييق البيئة الحاضنة لهم.

ومن بين أكثر من ٢٢٠ ألف هجوم شنه المقاومون العراقيون ضد قوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية وقوات الاحتلال الأخرى، من بينها ما يزيد على ١٠٠ ألف هجوم

موثق بالصوت والصورة، وتم إرسال أغلبيتها إلى وكالات الأنباء والفضائيات العربية والأجنبية، التي لم تبث من تلك الهجمات ما نسبته واحد في الألف منها.

خامساً: التضاريس

أَولى منظرو الحروب وزعماء المقاومة البارزين في العالم أهمية استثنائية لعامل التضاريس، لما له من أهمية وأثر بالغ في تحديد نتائج الكثير من المعارك الصغيرة والهجمات التي تشنها المجاميع المقاومة على العدو. ويوجه الزعيم الصيني ماو تسي تونغ مقاتليه أثناء مقاومتهم للاحتلال الياباني مطلع القرن العشرين بقوله «إن مناطق وجود المقاومين تتوزع على ثلاث مناطق رئيسية هي: المناطق الجبلية، والسهول وتلك التي تكثر فيها الأنهار والبحيرات والخلجان». ويقسم المناطق نظراً لطبيعة الأرض التي توجد في تلك المناطق، ويقول إن المناطق الجبلية هي الأفضل لشن الهجمات على العدو، إذ إن قوات المقاومة في المناطق الجبلية، يمكنها بصورة دائمة أن تحطم حملات التطويق والهجوم، وتصمد في قواعدها، أما في السهول فإن الأمر يختلف، إذ ينبغي على المقاومين في هذه المناطق التي تكون مفتوحة ومكشوفة أكثر أن يفكروا في حال تعرضوا لهجوم في ضوء الظروف القائمة واتخاذ التدابير اللازمة، وأهمها سحب أكبر عدد ممكن من المقاتلين، والإبقاء على مجاميع منفردة غير مكشوفة، وما إن ينسحب العدو حتى تعود قوات المقاومة إلى الانتشار في تلك السهول. وهنا يفترض الزعيم الصيني وجود جبال بالقرب من السهول، حيث ينتقل العدد الأكبر من المقاومين إليها. ويصنف المناطق التي تكثر فيها الأنهار والبحيرات والخلجان بأنها أفضل من السهول في تنفيذ هجمات المقاومين ضد العدو، إلا أنها أقل أهمية من تلك المتوافرة في المناطق الجبلية.

ويفرد تشي غيفارا مساحة واسعة للتضاريس وأهميتها في تنفيذ الهجمات من قبل المقاومين في كتابه **حرب العصابات** الذي صدر عام ١٩٦٠، فيضع أول عامل لنجاح المقاومين في شن هجمات ناجحة، طبيعة الأرض التي يتحرك عليها المقاومون ويقول «إن وجود الجبال والأرض الوعرة والغابات والأحراش من أهم عوامل دعم المقاومين وضمان نجاح هجماتهم دون تقديم أي خسائر، وأن الأرض المناسبة لشن الهجمات هي الجبال» ويقول أيضاً إن «الجبال تحمي المقاومين من أذى الطيران وأنها الأماكن الملائمة لتنظيم الأفراد المقاتلين، وتجهيزهم للقتال».

ولا تختلف أفكار وطروحات كبار المفكرين الاستراتيجيين حول أهمية وجود الجبال والهضاب والأحراش في نجاح المقاومة وديمومتها، وتبرز أهمية ذلك في التجارب التي نحن بصدد دراستها، وهي «الفرنسية والفييتنامية والفلسطينية والجزائرية» نظراً لكثرة الجبال والهضاب في هذه الدول. إلا أن هذا العامل، الذي أولي أهمية استثنائية، كان غائباً بصورة تامة في تجربة المقاومة العراقية، وسنوضح ذلك بالتفصيل من خلال تقديم وصف جغرافي كامل للمناطق التي تتوزع فيها القواعد والمعسكرات التابعة لقوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية وغيرها من قوات الاحتلال للدول الأخرى، سواء مئات القواعد والمعسكرات (للقوات الأمريكية لوحدها ٥٠٥ قواعد) أو القواعد الـ ١٥ الأمريكية الكبرى، وطبيعة الأرض التي توجد فيها الطرقات التي تسلكها القطعات الأمريكية والبريطانية للانتقال في مناطق العراق المختلفة، وفي التواصل بين هذه القواعد والمعسكرات.

لذلك نعتقد بأن دراسة طبيعة الأرض في تجربة المقاومة العراقية واحدة من الجوانب الهامة، إذ يكتشف الدارسون والباحثون والمفكرون والعاملون في مجال العلوم العسكرية، أن شرط وجود الجبال والهضاب والغابات والأحراش لنجاح المقاومة في كل مكان وزمان غائب في التجربة العراقية، وهو العامل الآخر الذي يقف بالضد من المقاومة العراقية. إن غياب هذا العامل بصورة نهائية، وفي عصر التطور التكنولوجي الهائل الذي تمتلكه قوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية، مقابل الإمكانات البسيطة للمقاومة العراقية، يستدعي الخوض في أعماق وخصوصية التجربة العراقية في المقاومة، مع استحضار جميع العوامل، ومن بينها مسألة الأرض المنبسطة والمفتوحة، التي تنفذ فيها المقاومة العراقية هجماتها الكثيرة والواسعة.

إن الأراضي التي بدأت فيها أولى عمليات المقاومة العراقية وتواصلت بعد ذلك، هي أرض منبسطة جداً، إذ لا توجد جبال ولا تلال وليس هناك غابات واسعة تمتد لمسافات كبيرة. وهنا لا بد من الإشارة إلى مسألة مهمة، إذ إن التصور الجمعي عند العراقيين قبل الغزو الأمريكي قد تكرّس باتجاه خطورة التقنيات الأمريكية، بما وصلت إليه من التفوق والتطور، لدرجة أن أجهزة الرصد الجوي والاستطلاع (الأقمار الاصطناعية) تغطي سماء العراق.

من هنا يمكن الجزم، بأن التضاريس قد وقفت ضد المقاومة العراقية بصورة لا مثيل لها في تجارب المقاومة في العالم. فإزاء القدرات الهائلة للقوات الأمريكية، ونحن هنا نتحدث عن التطور التقني الكبير والسريع الذي حصل خلال السنوات الاخيرة

في الألفية الثالثة، ولا نتحدث عن ظروف حربي الجزائر وفييتنام (خمسينيات وستينيات القرن العشرين) ومثل ذلك المقاومة الفلسطينية، أو المقاومة الفرنسية (النصف الأول من أربعينيات القرن العشرين)، بدون أدنى شك، فإن ذلك من عوامل القوة المضافة للجيش الأمريكي، ويقف بالضد من العمل المقاوم في العراق.

سادساً: المقاومة العراقية في الميدان

يعرف أغلب الأمريكيين والكثيرون في العالم اسمَي أول جنديين أمريكيين قُتلا في العراق، في أول يوم من أيام الاحتلال الأمريكي للعراق، في حين لا يعرف العراقيون وغيرهم حتى الآن، وبعد مضي أحد عشر عاماً على هذا التاريخ، أسماء الأشخاص (المقاومين) الذين صوبوا نيران أسلحتهم وقتلوا كلاً من تيري هيمنغواي من قوات الجيش الأمريكي المارينز، وهو القتيل الأول الذي اصطادته المقاومة العراقية في اليوم الأول للاحتلال، والقتيل الثاني جيفري بوه، ويجب أن يؤرخ ـ من وجهة نظرنا ـ لليوم التالي (١٠ نيسان/ أبريل) باليوم الأول للاحتلال الأمريكي للعراق.

بناء على ذلك، فإن أي فعل عراقي مضاد للقوات المحتلة وقع بعد الساعة الثانية عشرة من ليل التاسع من نيسان/ أبريل على يوم العاشر منه، هو فعل مقاوم، وأن منفذي الهجمات هم مقاومون، وهذا الاصطلاح يختلف من حيث التسمية والمعنى، عن التسمية التي تطلق على العراقيين الذين قتلوا أو جرحوا جنوداً من القوات الأمريكية والبريطانية، منذ صبيحة التاسع عشر من آذار/ مارس ٢٠٠٣ وحتى نهاية يوم التاسع من نيسان/ أبريل من العام نفسه. فقد قتل العراقيون أولئك الغزاة وهم يدافعون عن بلدهم، وهم منتظمون ضمن مؤسسات إما عسكرية أو أمنية وتنظيمات أخرى تابعة للدولة العراقية، ما يحتم عليهم واجبهم الرسمي والوطني والوظيفي التصدي للغزاة المعتدين، ويطلق عليهم مدافعون عن بلدهم ضد الغزاة(*)، أي بعد ٤٨ ساعة من بدء الغزو الأمريكي البريطاني في ١٩/ ٣/ ٢٠٠٣، وذات الوصف يطلق على الذين قتلوا جنوداً وأفراداً وضباطاً من قوات الغزو، طيلة أيام الغزو التي استمرت لثلاثة أسابيع.

أما يوم التاسع من نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، فلم يعترف الجيش الأمريكي بوقوع قتلى بين قواته، وهو اليوم الذي يؤرخ بأنه آخر يوم للسلطة الرسمية وسيادة العراق قبل بدء

(*) وهو المصطلح الذي يُطلق على الذين قَتَلوا أوّل جنديين أمريكيين في بداية الغزو الأمريكي ـ البريطاني للعراق، وهما (تيري شيلدرز، وجوس غوتيريز، وكلاهما من قوات المارينز، وقُتِلا بتاريخ ٢١/ ٣/ ٢٠٠٣).

الاحتلال الأمريكي للعراق، وفيه دخلت القوات الأمريكية قلب بغداد وأسقطت التمثال في ساحة الفردوس، وأوردنا أسماء الجنود الأمريكيين وتواريخ قتلهم على الأراضي العراقية، بهدف التمييز بين الاصطلاح العلمي والمنطقي، الذي يُطلق على العراقيين الذين قتلوا الجنود الأمريكيين والبريطانيين منذ بداية الغزو، تحت عنوان «الدفاع عن العراق» والتصدي للغزاة، في حين يجب توصيف الذين قتلوا الجنود الأمريكيين والبريطانيين وسواهم من قوات الاحتلال، ابتداء من القتيل الأمريكي الأول (تيري هيمنغواي بتاريخ ١٠/ ٤/ ٢٠٠٣) بأنهم «مقاومون».

إن أي فعل حصل بعد يوم ٩/ ٤/ ٢٠٠٣، هو مقاومة الاحتلال، وهو ما يسعى هذا الكتاب لتوثيقه، وتحليل مضامين هذه الأعمال بالقدر الذي نستطيع في هذه المساحة، بسبب غياب التوثيق والأرشفة، وعدم وجود بيانات كاملة ودقيقة، تتضمن الإعلان عن جميع عمليات المقاومة العراقية ضد قوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية، في انطلاقة المقاومة الأولى، وإن وجدت فإنها نادرة وقليلة جداً ومبعثرة هنا وهناك. أما في انطلاقتها الأولى، أي الأسابيع الأولى، فلن نعثر على بيان بهذا الخصوص، في حين اعترف البنتاغون بهجمات شنتها المقاومة العراقية ضد قواتهم، واعترفت القيادة الأمريكية الوسطى بسقوط ٢٢ قتيلاً بين قواتها، خلال الفترة الممتدة من العاشر من نيسان/ أبريل (أي اليوم الأول للاحتلال) حتى الأول من أيار/ مايو (وهو اليوم الذي أعلن فيه الرئيس بوش الانتصار في العراق). هكذا يكون المقاومون في العراق قد قتلوا أمريكياً في كل يوم خلال عشرين يوماً (من ١٠ إلى ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٣).

وقد يستغرب الكثيرون، أننا خلال البحث والتدقيق في ظروف نشأة وانطلاق المقاومة العراقية، وجدنا أن البيانات الأمريكية قد وثقت لبداية الفعل المقاوم في العراق لكن ضمن بياناتها العسكرية، فقد اعترفت القوات الأمريكية بأنها تعرضت لهجمات عنيفة، استهدفت أرتالها ومعسكراتها، كذلك معسكرات وأرتال القوات البريطانية في البصرة، في حين لم تكن هناك بيانات أو منشورات، تتحدث عن تلك الهجمات، وهو ما يشير إلى أن الفعل المقاوم بدأ عسكرياً صرفاً.

سابعاً: بداية المقاومة

هناك ثلاثة تواريخ هامة، يجب الإشارة إليها عند الحديث عن الغزو والاحتلال والمقاومة، **أحد** هذه التواريخ هو **الأول** من أيار/ مايو عام ٢٠٠٣، وهو اليوم، الذي

توصلت فيه جميع القيادات الأمريكية إلى قناعة تامة تقول بأن «المهمة قد أنجزت»، وأن يد أمريكا في العراق هي الطولى والأولى والأخيرة، وأنه لا وجود لقوة أخرى تنافسها أو تتحداها، لذلك أعلن في هذا اليوم (١/ ٥/ ٢٠٠٣) الرئيس الأمريكي والقائد العام للقوات المسلحة الأمريكية جورج دبليو بوش من على حاملة الطائرات الأمريكية (أبراهام لنكولن) «انتهاء العمليات العسكرية الكبرى في العراق».

أما التاريخ **الثاني** الذي لم يتحدث عنه أحد فهو العاشر من نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، أي قبل عشرين يوماً من إعلانه انتصار الولايات المتحدة، وهو اليوم، الذي تأكد للجميع، أنه يوم انبثاق المقاومة العراقية.

أما التاريخ **الثالث**، فهو ٩/ ٤/ ٢٠٠٣، الذي دخل صفحات التاريخ باعتباره يوم دخول القوات الأمريكية مدينة بغداد، وخلال العشرين يوماً المحصورة بين ٩/ ٤/ ٢٠٠٣ و١/ ٥/ ٢٠٠٣، إذ حصلت أحداث على أرض العراق، لم يكن يتوقعها القادة العسكريون الأمريكيون، ونقصد بها الهجمات التي أصابت قواتهم. فقد تصور قادة البنتاغون والبيت الأبيض، أن بمجرد إسقاط تمثال الرئيس العراقي سيرفع العراقيون جميعاً الرايات البيض، ويرسمون الابتسامة على وجوههم، ويتبارون لنثر الورود والزهور، التي تتفتح وتتكاثر في شهر نيسان/ أبريل، حيث يحل في تلك الأيام فصل الربيع، وينشغل جنود المارينز والمجندات الشقراوات، الذين أتعبتهم رحلة الأسابيع الثلاثة من الأراضي الكويتية إلى بغداد، بتلقف باقات الورد التي تتساقط عليهم مثل نداوة رذاذ المطر، وبرسم ابتسامة التعالي والتباهي، ولا يمانعون من وقوف العراقيين في طوابير لتقبيل أياديهم!

ثامناً: عمليات أيار/ مايو

بعد ساعة واحدة من تلقي عائلة جيسي جيفنز، خبر مقتله في العراق يوم الخميس الأول من أيار/ مايو ٢٠٠٣، أعلن الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش بيان «الانتصار» وانتهاء العمليات العسكرية، وأجهش أفراد العائلة بالبكاء بعد أن تناقلوا الخبر فيما بينهم، واعتقدوا أنه آخر جندي يسقط في العراق، واحتضنت زوجته طفلته الوحيدة البالغة ٥ سنوات، وأعلن بيان صادر من الجيش الأمريكي أن جيسي قد قُتل في منطقة الحبانية (غرب العراق)، بعد أن سقطت دبابته (نوع أبرامز) في النهر؛ في ذلك الوقت، كانت عوائل الجنود والضباط الأمريكيين الموجودين في العراق، يحتفلون بـ «انتصار جيشهم»

وفي الوقت نفسه، يفسرون بيان بوش، الذي أعلن فيه انتهاء العمليات العسكرية، بأنه بمنزلة «شهادة ولادة» لجميع أفراد الجيش الأمريكي، بعد أن تمكنت قواتهم من القضاء نهائياً على «بقايا الجيوب القتالية» في مناطق العراق، وأن الأيام والأسابيع القادمة، ستشهد استقبال الجيش الأمريكي بباقات الورد فقط. وكانت وسائل الإعلام الأمريكية، قد زفت البشرى للأمريكيين ولجنودهم في العراق، وقالت إن الأول من أيار/ مايو ٢٠٠٣ سيكون يوماً مفصلياً في قصة الحرب على العراق، فقد جهز الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش خطاباً هاماً موجهاً إلى القوات المسلحة والشعب الأمريكي، يعلن فيه «الانتصار في العراق»، وكان الجنرال تومي فرانكس قد زار العراق والتقى كبار القادة العسكريين في العراق، وقدموا له التقارير النهائية عن الأوضاع في مختلف مناطق البلاد. وفرانكس الذي يدخن السيجار وهو يتجول في بغداد ومناطق أخرى، قد انتهى إلى قناعة لا تقبل الشك، تذهب باتجاه انصياع العراقيين جميعاً، ووقوعهم تحت خيمة الأمريكيين، وأن مرحلة أخرى، قد بدأت في هذا البلد، تتوزع فيها السلطات ومكامن القوة بيد الأمريكيين وحدهم، فهم «سادة العراق الجديد»، ومن أرضه سينطلقون في مشروعهم «الكوني» ليصبحوا «سادة العالم» بلا منازع.

لم يتصور الكثيرون أن مسلسل سقوط قتلى وجرحى من القوات الأمريكية والبريطانية، سيتواصل بعد إعلان بوش انتهاء العمليات العسكرية، وإذا كان تيري هيمنغواي الذي سقط قتيلاً في اليوم الأول من الاحتلال، قد تصدر قائمة القتلى، ولم يتفاجأ البعض بـ «مقتله»، فإن القتيل الأول، الذي تلقت عائلته الخبر قبل ساعة واحدة من الإعلان، قد شكل صدمة كبيرة في الأوساط الأمريكية، لأنهم تصوروا، أن نص بيان الانتصار قد تم صوغه منذ عدة أيام، وأن زيارة تومي فرانكس قبل عشرة أيام من ذلك التاريخ، ووجود وزير الدفاع دونالد رامسفيلد في العراق، ما هو إلا الدليل القاطع على أن القناعة لدى القيادة الأمريكية نهائية وحتمية، وأن طلقة نارية «معادية» واحدة لن يسمعها الجنود الأمريكيون في العراق قبل عدة أيام من بيان «الانتصار»، ثم يتلاشى ذلك نهائياً اعتباراً من الأول من أيار/ مايو ٢٠٠٣.

تاسعاً: حزيران/ يونيو الارتباك والتحول

فوجئ الأمريكيون، وبالأخص عوائل الجنود والضباط الذين يخدمون في العراق ضمن قوات المارينز، بتصريح كونواي الذي مثّل تحولاً كبيراً في الموقف العسكري، وأصيبوا بالخيبة، عندما استفاقوا ليجدوا الصحف الأمريكية وقد نشرت على استحياء

تصريحاً لقائد عسكري في الجيش الأمريكي في العراق، يقول فيه «لا قوات تغادر العراق قبل وصول تعزيزات جديدة».

هذا التصريح يخالف تماماً حجم الأمل الذي بثه الرئيس بوش قبل شهر واحد فقط، عندما أعلن في الأول من أيار/ مايو عام ٢٠٠٣ انتهاء العمليات العسكرية الكبرى.

تحدث الجنرال الأمريكي جيمس كونواي عبر دائرة تلفزيونية مغلقة من مدينة الحلة (جنوب بغداد)، وقال إن هناك بعض الأفراد الذين يعلمون جيداً، أن تلك الهجمات الصغيرة التي يتعرض لها جنودنا هنا في العراق، يمكن أن تتصدر أخبار وسائل الإعلام، وعلى خلفية هذه الهجمات يعكف القادة العسكريون الأمريكيون الكبار حالياً، على دراسة ما ستكون عليه متطلبات بنية القوات الأمريكية في الأسابيع وربما الأشهر المقبلة[٣].

كانت البيانات الصادرة عن القيادة العسكرية الأمريكية الوسطى قد اعترفت بسقوط عشرين قتيلاً بين قواتها خلال شهر أيار/ مايو، أي بعد إعلان الرئيس الأمريكي بوش بيان «الانتصار الكبير».

ووصل عديد القوات الأمريكية في مختلف مناطق العراق إلى ١٤٧ ألف عنصر، في حين بلغ عديد القوات البريطانية ١٥ ألف عنصر.

(٣) نُشَرِت تصريحات كونواي في الأول من حزيران/ يونيو ٢٠٠٣ في الصحف الأمريكية والعالمية ووزعته كبرى وكالات الأنباء.

مقدمة

بقدر ما شعرت بسعادة وأنا أبحث في تاريخ المقاومة في العراق، فقد وجدت أن السعادة ستكون غامرة أكثر لو توافر الوقت للاستمرار في هذا البحث والتوثيق والتحليل، ويبقى الفضاء واسعاً ومفتوحاً أمام الباحثين والمختصين للخوض في غمار هذه التجربة الثرية والهامة. غير أني ارتأيت التوقف في هذه الدراسة عند أول ٨٠ يوماً من عمر المقاومة العراقية ضد الاحتلال الأمريكي ـ البريطاني الكوني، وهي الفترة الممتدة من العاشر من نيسان/ أبريل العام ٢٠٠٣، وهو اليوم الأول للمقاومة العراقية حتى نهاية شهر حزيران/ يونيو من العام نفسه. وبالقياس الزمني فإن هذه المدة قصيرة جداً بالنسبة إلى عمر المقاومة في العراق وتاريخها الذي وصل إلى ٣١٧٥ يوماً، عندما أرغم المقاومون في العراق القوات المحتلة على إعلان انسحابها في الحادي والعشرين من شهر كانون الأول/ ديسمبر عام ٢٠١١.

إنها لمفارقة حقيقية أن تأتي إلى أرض الرافدين أكبر وأقوى جيوش العالم، وتواجهها أسلحة المقاومين العراقيين منذ اليوم الأول للاحتلال، وترغم هجماتهم الإدارة الأمريكية المتبخترة زهواً بهيمنتها على العالم، لتغيير خططها وقناعاتها وأساليبها خلال الأسابيع الأولى على وقع ضربات المقاومين في العراق.

إن واحدة من أهم منجزات المقاومة العراقية، أنها أعطت درساً بليغاً للولايات المتحدة التي اعتقد قادتها وشعبها أنهم سيفرضون سيطرة غير مسبوقة على كل شعوب الأرض بعد غزو العراق؛ وإذا بالمعادلة تنقلب، وتفرض المقاومة على قيادات أمريكا وشعبها، الخوف والذعر من مجرد التفكير بإرسال جنود وقوات لبلد آخر؛ وقد عبرت

هيلاري كلنتون، وهي تشغل منصب وزير خارجية أمريكا، عن ذلك بوضوح وصراحة أثناء تدارس شنّ هجمات في مدن أفغانية، حين ردت بالقول «لن نكرر ما حصل لنا في الفلوجة»، في اعتراف واضح بما كبّدته المقاومة للقوات الأمريكية التي هاجمت هذه المدينة بوحشية وقتلت الناس وهدّمت البيوت وأحرقتها في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ٢٠٠٤.

ورفضت الإدارة الأمريكية المشاركة مع قوات الناتو في العمليات العسكرية ضد ليبيا عام ٢٠١١؛ وبرزت هزيمة أمريكا وبريطانيا على أوسع نطاق في الدوائر السياسية والعسكرية والإعلامية عندما تم طرح توجيه ضربات إلى سورية أواخر آب/ أغسطس عام ٢٠١٣. وعبّر الأمريكيون والبريطانيون عن مخاوفهم الهائلة من تجربة العراق.

لو كانت الصورة معكوسة تماماً، وحققت أمريكا كامل أهدافها في العراق، ولم تردعها المقاومة العراقية وتُلحق بها هذه الهزيمة، لتمكنت الولايات المتحدة من احتلال دول وفرض الهيمنة على الشعوب لمجرد إعلان الحرب عليها في وسائل الإعلام؛ لكن درْس العراق ودور المقاومة في هزيمة وإفشال المشروع الكوني الأمريكي أنهى «حرب المكانة» كما يسميها العالِم والباحث الأمريكي ريتشارد نيد ليبو في كتابه الجديد **لماذا تتحارب الأمم**[1] وهي حرب أمريكا على العراق، حيث يرى أنها أول وآخر تجربة في هذا النوع من الحروب، بعد أن حشدت إليها الولايات المتحدة كل ما تملك من قوة، لكن المقاومة العراقية أفشلت هذه الحرب وقبرتها في أرض الرافدين، التي بدأت فيها الكتابة والتدوين والمعرفة قبل آلاف السنين.

في سنوات الاحتلال الأولى، تحدثتُ في العديد من الندوات في عواصم عربية، وقلت إن هدف المقاومة العراقية لا يقتصر على إخراج القوات الأمريكية من العراق، وإنما يتجاوز ذلك إلى تلقين العقول الأمريكية الشريرة درساً بليغاً، يمنعهم من التفكير ولو مرة واحدة بغزو أي دولة في العالم؛ فخسائر أمريكا تتجاوز تصور الكثيرين. وقد وضع البعض الكثير من علامات الاستفهام على ما كنت أقوله في تلك الندوات التي تناقش الأوضاع في العراق، ولم يتصور أحد أن المقاومة في العراق تقاتل الأمريكيين وتعطيهم دروساً قاسية في وقت واحد. هذا الأمر طرحته للمرة الأولى في مركز

(١) تناول موضوع «حرب المكانة» العالم والباحث الأمريكي ريتشارد نيد ليبو، انظر: ريتشارد نيد ليبو، **لماذا تتحارب الأمم؟ دوافع الحرب في الماضي والمستقبل**، ترجمة إيهاب عبد الرحيم علي، عالم المعرفة؛ ٤٠٣ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفون والآداب، ٢٠١٣).

دراسات الوحدة العربية في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٦، في ندوة شارك فيها عدد من المفكرين والسياسيين، من بينهم خير الدين حسيب وعمرو حمزاوي وصلاح عمر العلي وروميض عمر نظمي، كما طرحت التفاصيل ذاتها في ندوة أخرى أواخر شهر كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٦ في الدوحة وشارك فيها فهمي هويدي ووضاح خنفر وآخرون.

وفي كل يوم، يتأكد نجاح الفلسفة التي اعتمدتها المقاومة العراقية الرامية إلى تكبيد الولايات المتحدة أكبر الخسائر البشرية والاقتصادية ومنعها من ارتكاب جرائم بحق الأمم والشعوب.

لهذا نقول إن المقاومين في العراق لم يحرروا بلدهم فقط من المحتلين الأمريكيين، وإنما تجاوزوا ذلك إلى حماية أمم وشعوب من مشاريع أمريكا الكونية في القرن الحادي والعشرين.

من المتوقع أن يطرح البعض مجموعة أسئلة عند قراءة هذا الكتاب؛ في مقدمها، لماذا اقتصرت الدراسة على هذه المدة التي سلّط فيها المؤلف على هذه الحقبة دون غيرها؟ ونقول في الإجابة عن ذلك، إن المهمة الأساسية لهذا الكتاب تسعى للتأسيس لنشأة المقاومة العراقية وانطلاقتها، وإن دراسة الفعل الميداني بكل تفاصيله قد يحتاج إلى مئات البحوث والمؤلفات، وبالتأكيد سيحصل ذلك كما حصل في دراسات واسعة حظيت بها تجارب المقاومة في العالم، كما سيجد القارئ والباحث في فصول هذا الكتاب ما يسهم في تسهيل مهمة الباحثين والكتّاب الراغبين الخوض في هذا المضمار.

وقد ينتقد البعض الكتاب لاعتماده في أغلبية مصادره على بيانات الجيش الأمريكي[٢]، ونجيب بدورنا، أن تلك البيانات التي صدرت في وقت مبكر ولم يتم توثيقها في سياق بروز المقاومة العراقية، هي بمنزلة بيانات المقاومة ذاتها، لأنها تعترف صراحة بمقتل جنودهم وحصول هجمات وسقوط جرحى وإحراق وإعطاب دبابات وهمرات وإسقاط طائرات وأسْر جنود، وهو اعتراف صريح بفعل المقاومة في العراق.

(٢) بيانات الجيش الأمريكي الصادرة من وزارة الدفاع (البنتاغون) ومن القيادة الأمريكية الوسطى، يُضاف إلى ذلك تصريحات قادة الجيش الأمريكي في العراق، وجميع البيانات والتصريحات تبنّها وكالات الأنباء العالمية وتنشرها الصحف العالمية وبعض الصحف العربية، ضمن تغطياتها للأحداث في العراق بعد الغزو الأمريكي عام ٢٠٠٣. وقد أجرينا متابعات للبيانات الأمريكية التي تحدّثت عن حصول هجمات ضدّ قواتها في المدن العراقية، وبالعودة إلى المصادر التي وثّقت قتلى الجيش الأمريكي، تمّ توثيق القتلى حسب المناطق بفعل الهجمات التي شنّها المقاومون في العراق. انظر الملحق في نهاية هذا الكتاب.

وقد يتساءل البعض عن غياب مصادر لبيانات المقاومة العراقية خلال الفترة التي يغطيها هذا الكتاب[٣]؛ ونجيب كذلك بأن المقاومين في العراق قد وضعوا الأولوية للقتال والبندقية قبل الإعلام، ولم تظهر بيانات ومواقع على الإنترنت وأسماء لفصائل وجيوش وكتائب إلّا في فترة لاحقة. ولكن بإمكان هذه الفصائل والمقاومين «الأفراد» والمجاميع المناطقية من غير المنتظمين في فصائل وجيوش المقاومة، الإفادة من التوثيق الموجود في صفحات هذا الكتاب، وبالعودة إلى الوقائع وما تم توثيقه في حينه والهجمات في المناطق المذكورة، أن تعلن وقوفها وراء مقتل الجنود الأمريكيين والبريطانيين وسواهم، الذين وثقنا لمقتلهم من قبل المقاومين العراقيين خلال الحقبة التي تناولناها في البحث، وقد يجد البعض في هذه المعلومات ما يفيد في توثيق وكتابة نشاطات هذا الفصيل أو المجموعة في بداياتها عندما لم يكن هناك اهتمام بموضوع التوثيق.

استغرق هذا الكتاب وقتاً طويلاً وبذلنا جهداً كبيراً، لكن النقص في بعض زواياه أو الكثير منها أمر وارد، وما نتمناه من المختصين والعارفين تصويب الثغرات إن وجدت وإغناء الموضوع بمزيد من البحث والتأليف، وليعذرنا البعض إن كانت هناك ثغرات في دراسة هذه القضية التاريخية.

إن فصول الكتاب، تدْحض ما يقال عن اقتصار المقاومة على مناطق جغرافية عراقية معينة، وتثبت عكس ذلك بالوقائع والأدلة الدامغة. وقد شنّ المقاومون العراقيون هجمات كثيرة ضد قوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية والتشيكية والكندية خلال المدة التي يغطيها هذا الكتاب، وسقط قتلى من تلك القوات في مدن بغداد، الموصل، البصرة، النجف، ديالى، الحلّة، الديوانية، كركوك، صلاح الدين، الأنبار، الكوت، السماوة والموصل.

وليد الزبيدي
الأردن ـ عمان
١ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٣

(٣) عدم وجود بيانات موثّقة لفصائل المقاومة العراقية في الأسابيع الأولى للاحتلال الأمريكي، فقد سبق العمل المسلّح المباشر ضدّ قوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية وقوات الدول الأخرى العمل الإعلامي، لهذا السبب فقد تمّ توثيق أغلبية الخسائر الأمريكية من بيانات القوات الأمريكية واعترافها بتلك الخسائر.

مدخل

عبّر الزعيمُ الصيني ماوتسي تونغ عن رؤيته لواحد من أهم شروط استمرار المقاومة حتى بلوغ أهدافها، في جملته الشهيرة «يجب على المقاومة أن تتحرك وسط الناس، كما تسبح السمكة في الماء» وبهذا الكلام خاطب الزعامات والقيادات السياسية، التي تتحكم بحركة ونشاطات المقاومين، وقبل هؤلاء منظّري حركات المقاومة ومفكريها، مازجاً بذلك الاشتراط الأمني والاستخباري بالأهداف المرسومة للمقاومة ودقتها.

وإذا كان هذا الأمر ينطبق على جميع المقاومات التي انطلقت في التاريخ، فإن المقاومة العراقية ليست استثناءً ولا تخرج عن هذا الإطار رغم تفردها بخصوصية واضحة في نشأتها وانطلاقها ميّزتها عن تجارب المقاومة الأخرى التي سبقتها، الأمر الذي يتطلب دراسة مستفيضة للظروف التي نشأت فيها المقاومة العراقية؛ هذه الظروف التي تتوزع على عدة جوانب رئيسية، لكل جانب منها أهميته وخطورته، وتأثير تلك الجوانب جميعاً في بلورة اتجاه العمل المقاوم، واتضاح منهجيته؛ وفي المقدمة منها مسألة الدعم الدولي أو الإقليمي الذي يُعد من أهم العوامل المحفزة للتفكير ببزوغ وانطلاق أي مقاومة.

انتفى هذا العامل تماماً في تجربة المقاومة العراقية، والسبب ـ بكل بساطة ـ يعود إلى تفرّد الولايات المتحدة الأمريكية (دولة الغزو والاحتلال) بالهيمنة على العالم من خلال القطبية الواحدة، التي اتسمت بها المنظومة الدولية منذ انهيار الاتحاد السوفياتي بداية تسعينيات القرن العشرين، واعتبار الألفية الثالثة أمريكية بامتياز بلا منافس أو منازع على الإطلاق.

ينسحب هذا التفرد بالسيطرة الكونية الأمريكية على العوامل الأخرى المؤثرة في أي عمل مقاوم، والتي يفترض توافرها لنشوء المقاومة وتحريكها والإعداد لكوادرها على طريق انطلاقتها العسكرية، وتتمثل بالجوانب الإعلامية، ووجود أرض تجري عليها معسكرات تدريب المقاتلين، والدعم المالي، والقدرة على تحرك قيادات المقاومة في المحيطين الإقليمي والدولي، بغرض التعريف بقضيتهم وشرح أبعادها وتوضيح طبيعة برنامجها السياسي.

هذه الهمينة الأمريكية المطلقة على المنطقة والعالم، تستدعي مستلزمات ضرورية لنشوء المقاومة في العراق، لم تتوافر على الإطلاق؛ من هنا فإن الدراسة النظرية الأولية التي تبحث في إمكان نشوء المقاومة العراقية، يمكن أن تذهب بصاحبها إلى اليأس، لعدم توافر الظروف الموضوعية والعوامل المساعدة على خروج مقاومة عراقية. تصوّر الكثيرون، في ضوء ذلك، أن مقاومة في العراق قد تظهر، لكن بعد حين قد يطول أمده لسنوات أو عقود؛ وإن بدأت فإنها ستخبو بسرعة، وأن المشروع الكوني الأمريكي، سيأخذ طريقه إلى دول العالم الأخرى انطلاقاً من العراق.

في واقع الحال، ومن خلال دراستنا التي نحن بصددها الآن، حاولنا التعرّف إلى ظروف نشوء وتطور عدة تجارب مقاومة في التاريخ الحديث، بهدف المقارنة مع ظروف نشأة المقاومة العراقية. إن من أولى النقاط التي تفردت بها المقاومة العراقية هي سرعة انبثاقها، وتطورها الكبير خلال أسابيع وأشهر قليلة من بداية الاحتلال ـ سنتحدث عن ذلك بالتفصيل في يوميات المقاومة العراقية[1] ـ برغم كل ما تمتلكه القوات الأمريكية، من أسلحة على درجة عالية من التطور، وإمكانات هائلة في مختلف المجالات، ما يجعل التفكير بمواجهتها من قبل أفراد أو مجاميع أمراً شبه مستحيل، وخصوصاً بعد الانهيار السريع في المنظومتين العسكرية والإدارية للدولة العراقية بعيد الغزو (الذي ابتدأ في ١٩/ ٣/ ٢٠٠٣ وتمكنت القوات الأمريكية من احتلال العاصمة العراقية في يوم الأربعاء ٩/ ٤/ ٢٠٠٣ أي خلال ثلاثة أسابيع فقط).

إضافة إلى ذلك، هناك عوامل إحباط أخرى، لا تقل أهمية عن عامل القوة العسكرية المتمثل بالسيطرة المطلقة جواً. علينا أن لا ننسى واحداً من العوامل الهامة في

(١) تتضمّن يوميات المقاومة العراقية معلومات عن قتلى قوات الاحتلال وأسماء القتلى وأعمارهم وتواريخ ومناطق قتلهم، إضافة إلى رتبهم العسكرية والوحدات التي يعملون بها، وجميع المعلومات موثّقة من مصادر أمريكية من صحف كبرى وبيانات الجيشين الأمريكي والبريطاني.

حروب العصابات وهو عامل التضاريس، التي يفتقدها العراق تماماً، وبخاصة المناطق التي انتشرت فيها القوات الأمريكية والبريطانية، ابتداء من مناطق البصرة والعمارة في الجنوب إلى الموصل شمالاً والأنبار غرباً وكركوك شمال شرق وديالى شرقاً، مروراً ببغداد ومحيطها وصلاح الدين. فالأرض منبسطة تماماً، وتخلو من الهضاب والجبال والغابات والأحراش، التي تعد ضرورية جداً في ميداني تنفيذ الهجمات ضد العدو وتأمين الانسحاب للمقاتلين.

ولإعطاء صورة دقيقة عن الظروف التي نشأت وانطلقت فيها المقاومة العراقية، ارتأينا أن تتضمن الدراسة تجارب المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال الألماني إبان الحرب العالمية الثانية، والمقاومة الفييتنامية ضد الاحتلال الأمريكي، وتجربة المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلي، إضافة إلى تجربة المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي.

الفصل الأول

دراسة مقارنة في تجارب المقاومة

أولاً: سرعة الانطلاق

أرى ـ بدايةً ـ أننا بحاجة إلى وضع فاصل زمني بين حقبتين تاريخيتين فاصلتين؛ **الأولى** حقبة العراق وهو دولة مستقلة ذات سيادة كاملة، يمتلك جميع مقوّمات الدولة الحديثة، من قوات مسلحة ومؤسسات أمنية وإدارية وسياسية، تحمّلت مسؤولية الدفاع عن البلاد، منذ الدقائق الأولى لبدء الغزو فجر التاسع عشر من آذار/ مارس ٢٠٠٣ وحتى الدقائق الأخيرة من يوم الأربعاء المصادف يوم التاسع من نيسان/ أبريل من العام نفسه، وهو اليوم الذي تم فيه إسقاط التمثال (القصة الإعلامية الدولية الشهيرة) في ساحة الفردوس أمام فندق فلسطين ميريديان. وقد تبين للجميع في هذه الحقبة أن الاستخبارات الأمريكية وأجهزتها الأخرى وجميع الدول والأطراف المتعاونة معها والعاملة لحسابها لم تتمكن من اختراق القوات المسلحة العراقية، ولا قوات الحرس الجمهوري أو مؤسسات الدولة الأخرى[1]. كما أن الجيش والشعب العراقيين قد قاتلا ما بوسعهما ضد قوات الغزو، وكان للعشائر العراقية دور مشرّف، إذْ تصدّت للقوات الأمريكية والبريطانية في البصرة والعمارة والسماوة والنجف وكربلاء والكوت والمحمودية وفي بغداد، عندما تقدمت القوات الغازية من الجنوب صعوداً إلى بغداد، معتمدة أسلوب عزل المدن والقطعات العسكرية وتجاوزها إلى المناطق الأخرى. أما **الحقبة الثانية**، فتبدأ من الساعة الأولى ليوم الخميس ١٠ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣.

رغم أن الجميع يؤرخون للتاسع من نيسان/ أبريل بأنه أول أيام الاحتلال الأمريكي للعراق، إلا أننا نرى، أن هذا اليوم المصادف يوم أربعاء هو اليوم الأخير من أيام سيادة الدولة العراقية قبل احتلالها، ولنا على ذلك مجموعة من الأدلة والأسانيد. ففي ذلك

(١) لقد أورَدنا تفاصيل دقيقة عمّا أُشيع عن الخيانة بين قيادات الجيش العراقي والحرس الجمهوري في كتاب **جدار بغداد**، وقد أفرَدنا فصلاً لنفي ما تمّ تداوله من شائعات تتحدّث عن خيانة في قيادات الجيش والحرس الجمهوري قبيل وأثناء الغزو الأمريكي عام ٢٠٠٣. انظر: وليد الزبيدي، **جدار بغداد: يوميات شاهد على غزو العراق** (القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٦).

اليوم، تمكنت القوات الأمريكية من دخول العاصمة العراقية، الذي انتقلت إليه الأغلبية العظمى من الصحافيين، الذين أتوا لتغطية وقائع الحرب من بغداد، وكان إسقاط التمثال بمنزلة الإعلان عن بدء حقبة أخرى. ونقول إن ذلك اليوم يُحسب على أيام السيادة العراقية، إذ بقيت بعض مظاهرها حتى ذلك اليوم، متمثلة بوجود عسكري وأمني وحزبي في الشوارع حتى ساعات صباح يوم التاسع من نيسان/ أبريل، وإن كان قليلاً ومحدوداً في مناطق ومتلاشياً في أخرى.

كما أن أحد أهم مظاهر السيادة، التي اعتاد الرأي العام العراقي والدولي متابعته منذ بداية الغزو، هو الظهور اليومي المتواصل لوزير الإعلام العراقي محمد سعيد الصحّاف الذي شوهد ذلك الصباح يمارس عمله اليومي، والتقى الصحافيين في فندق الميريديان، ثم غادر بعد ذلك إلى جهة مجهولة. وفي يوم التاسع من نيسان صدرت أيضاً الصحف العراقية، ومنها جريدة **الثورة** الناطقة باسم حزب البعث وجريدة **القادسية** الناطقة باسم وزارة الدفاع وجريدة **بابل** وصدر عددها ليوم الأربعاء التاسع من نيسان/ أبريل بالرقم ٣٦٠٤، وجريدة **العراق**. كما أن إذاعة العراق الرسمية واصلت بثها، وإن اقتصر على الأناشيد الحماسية، إلا أنها تبقى أحد مظاهر وجود السلطة؛ كما أن إسقاط التمثال عصر يوم الأربعاء يؤشر إلى وجود السلطة حتى عصر ذلك اليوم الذي ما إن هبط الليل، حتى سُدل الستار على حقبة من تاريخ العراق، انطوى فيها أي معْلم من معالم السيادة، لتبدأ حقبة أخرى تحمل بين طياتها المجهول بكل ما تعني هذه الكلمة.

واستناداً إلى وقائع إسقاط التمثال، واختفاء مظاهر الحكومة، وازدياد انتشار القوات الغازية، ومواصلة التصريحات الأمريكية سواء من قاعدة السيلية في قطر، أو من مطار بغداد وفندق الميريديان التي تمركزت فيه القوات الأمريكية، فإن الأدبيات التي ظهرت والأوصاف التي استخدمت في وسائل الإعلام، اعتمدت لفظ «احتلال» العراق من قبل الولايات المتحدة، وهو ما جرى تداوله في جميع وسائل الإعلام وفي المتابعات الإخبارية والتحليلات. ولكن قبل الساعة الثانية عشرة من ليل التاسع من نيسان/ أبريل، لم يتم تداول كلمة «احتلال»، بل اقتصر على ذكر مفردة «غزو» من قبل المؤسسات الإعلامية الرصينة، في حين استخدمت مؤسسات أخرى مفردة «الحرب». لذلك فإن حقبة الاحتلال قد بدأت، بما يتناسب ومعنى الاحتلال العسكري فعلياً منذ ذلك اليوم، وأن مفهوم الدفاع الذي تمارسه المؤسسة العسكرية العراقية والمؤسسات الأخرى قد توقف، ليبدأ تعامل آخر وأسلوب ونمط مختلف تماماً يتناسب والواقع الموجود على الأرض.

وهنا يجب أن نفرق بين مصطلحي «الدفاع» و«المقاومة»؛ وتوضيح ذلك أمر هام، وهو من متطلبات البحث العلمي الذي يتناول مسألة نشوء المقاومة العراقية وانطلاقتها وفق أسس واضحة، لا تقبل اللبس والتداخل. فالذي وقف ضد قوات الغزو منذ يوم ١٩/ ٣/ ٢٠٠٣ وحتى يوم التاسع من نيسان/ أبريل، كان يؤدي واجباً رسمياً وطنياً؛ فهو إما أن يكون أحد منتسبي القوات المسلحة والأجهزة الأمنية والحزبية أو ضمن تشكيلات رسمية أخرى؛ وهؤلاء جميعاً يؤدون واجباً رسمياً. فالذي يتخاذل أو يتردد يعرّض نفسه للمحاسبة القصوى، إذ إن الوطن يتعرض لخطر الغزو الخارجي، والذي يتميز في تصدّيه لقوات الغزو، فإنه يؤدي واجباً وطنياً أمام الجهة المسؤولة عنه. وفي جميع الأحوال فإن قضية الثواب والعقاب يضعها الجميع نصب أعينهم، وهذا إطار المنظومة الرسمية المتعارف عليها في جميع الدول في حال تعرضها لعدوان خارجي.

ولكي نحدد المصطلح بكل دقة ومن هذا الفهم، فإننا نرى، أن أي فعل عراقي حصل ضد قوات الغزو منذ اليوم الأول لبدء الغزو في ١٩/ ٣/ ٢٠٠٣ يدخل ضمن الدفاع والمسؤولية الوطنية، فهناك واجبات رسمية على أفراد القوات المسلحة والأجهزة الأمنية والعموم من المواطنين يجب تأديتها والوقوف بوجه الغزاة المعتدين، ويمتزج ذلك الواجب بالشعور الوطني.

ويجب أن لا يغيب عن الأذهان وفي جميع الحالات مبدأ الثواب والعقاب الذي يبقى ملازماً للعسكري والموظف والمسؤول في مختلف مفاصل الحكومة، ما دام هناك وجود للسلطة، وأن القوانين تحاسب المتردد والمقصّر أو المتخاذل، كما أن الجهات العليا في السلطة قد تكافئ وتثمّن جهود المتميزين بالأداء في تصديهم للغزاة؛ وللعراقيين تجارب طويلة في هذا الميدان، ابتداء من الحرب العراقية ـ الإيرانية (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨) وحرب الخليج الثانية (١٩٩١) وثعلب الصحراء في زمن الرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلنتون العام ١٩٩٨. وفي جميع الأحوال، فإن تأدية واجب الدفاع عن البلد مسؤولية رسمية وشعبية.

لا ينكر أي باحث ودارس موضوعي، أن العراقيين قد دافعوا عن بلدهم أمام الغزو الأمريكي على المستويين الشعبي والرسمي، رغم الفرق الهائل في ميزان القوة العسكرية بين العراق والولايات المتحدة، الذي سرعان ما يبث اليأس في قلوب العراقيين سواء الذين يعملون تحت المنظومة الرسمية أو الشعبية، ونؤكد أن أي فعل حصل ضد قوات الغزو، طيلة الفترة المحصورة منذ الساعة الأولى لبداية الغزو الأمريكي ـ البريطاني (في ١٩/ ٣/ ٢٠٠٣ حتى الساعة الثانية عشرة ليلاً من يوم ٩/ ٤/ ٢٠٠٣) فإنه يقع ضمن

مفهوم الدفاع عن البلد (الحقبة التي تدخل ضمن مرحلة السيادة العراقية)، ونحن نعتقد أنها قد انتهت تماماً مع اختفاء وتلاشي أي مظهر من مظاهر تلك السيادة نهاية يوم التاسع من نيسان/ أبريل من العام نفسه، وحل بذلك وصف «الوجود العسكري الأجنبي» مكان «السيادة الوطنية العراقية». وفي الساعات الأولى لفجر العاشر من نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، أصبح الوضع في العراق مختلفاً تماماً، إذ استبدلت في ذلك الوقت مسألة الثواب والعقاب بمرحلة التصدي للمحتلين، الذين استباحوا حرمة البلد.

إذا كان مصطلح «الدفاع» ينطبق على كل فعل عراقي واجه قوات الغزو، حتى نهاية يوم التاسع من نيسان/ أبريل، فإن مصطلح «المقاومة» ينطبق على كل فعل ينفذ ضد القوات المحتلة. لذلك فإن التحليل العلمي الدقيق والمنطقي، يقول إن أول يوم للاحتلال الأمريكي للعراق، يجب أن يؤرخ له بـ ١٠ نيسان/ أبريل عام ٢٠٠٣ وليس يوم ٩ منه؛ فقد كان هذا يوم المعركة الأخيرة في الحرب على العراق، واشتمل على مظاهر أقرب إلى مشاهد احتفالية أمريكية من أبرزها إسقاط التمثال في ساحة الفردوس واستعراض حركة الدبابات أمام شاشات الفضائيات في شوارع بغداد دون تعرضها لإطلاق نار.

هذه المظاهر الاستعراضية كانت بمنزلة الفصل الأخير في معركة السيطرة على بغداد، التي تعني بجميع تفاصيلها ومعانيها السيطرة على العراق. وهناك تشابه كبير بين التجربة العراقية والتجربة الفرنسية بعد الاحتلال الألماني لفرنسا عام ١٩٤٠، فعندما كانت تدور المعارك بين القوات الفرنسية والألمانية، فإن أي ذكر للمقاومة لم تأتِ عليه البيانات والتصريحات الفرنسية في زمن رئيس الوزراء الفرنسي (رينيه)، فيما البيانات كانت تتحدث عن معارك ودفاع عن فرنسا بوجه الغزو الألماني بقيادة الفوهرر أدولف هتلر، وانصبت التصريحات الفرنسية في مجملها في التشديد على القتال، الذي تخوضه القوات الفرنسية في جبهات الحرب. وقد تواصل ذلك النوع من الخطاب حتى استسلام فرنسا، لتتشكل بعد ذلك حكومة فيشي (بقيادة الجنرال الفرنسي بيتان)، التي نصبها الاحتلال الألماني لتعمل لخدمته بصورة مطلقة. أما لفظ «المقاومة» فقد بدأه الجنرال ديغول باستخدامه أثناء الاحتلال الألماني في ١٨ حزيران/ يونيو العام ١٩٤٠، بعد انتقاله إلى لندن، حيث أعلن المقاومة الفرنسية من هناك[٢].

(٢) «الوثائق الخاصة بالمقاومة الفرنسية ضدّ الاحتلال الألماني» في البيانات التي ألقاها الزعيم الفرنسي شارل ديغول من إذاعة الـ «بي بي سي» البريطانية وأوّلها كان بتاريخ ١٩ حزيران/ يونيو ١٩٤٠.

وبسبب الظروف الصعبة التي عاشها العراق منذ بداية الغزو الأمريكي، وبعد ذلك التداعيات الكبيرة التي تواصلت في سلسلة متشابكة، فقد أهملت قضية هامة تتعلق بتحديد التاريخ الفاصل بين حقبتين زمنيتين في تاريخ العراق الحديث، نقصد بهما حقبة ما قبل الاحتلال وحقبة ما بعده، ووضع حد فاصل بين الحقبتين. وقد يتساءل الكثيرون عن دوافع هذا التاريخ الذي نسعى إلى تحديده بالدقيقة والساعة واليوم. إننا نرى أن أهمية ذلك تتأتى من أهمية المرحلة أو الحقبة التي أعقبت آخر معركة رئيسية في الحملة الأمريكية ـ البريطانية لاحتلال العراق، وهو موضوع دراستنا الحالية.

أما في تجارب الاحتلال الأخرى، التي تناولناها في هذه الدراسة، فهناك اختلاف كبير، إذ لم يظهر خطاب للمقاومة في وسائل الإعلام المتاحة بالسرعة التي ظهرت فيها خطابات المقاومة الفرنسية ضد القوات الألمانية في حزيران/ يونيو عام ١٩٤٠، رغم عدم وجود فعل مقاوم فرنسي ميداني سريع وفوري، كما أظهرته هجمات المقاومة العراقية، التي سجلت أسرع بروز للمقاومة في التاريخ الحديث، ووثقته كتابات ودراسات المؤرخين والكتّاب وما تؤكده الوقائع والأحداث. فمثلاً، لم تسجل هجمات سريعه ضد الاحتلال الأمريكي لفييتنام قبل التأسيس السياسي الفييتنامي بقيادة الزعيم الفييتنامي هو شي منه، ومثل ذلك حصل في التجربة الفلسطينية، حيث تأسست الأجنحة العسكرية للمقاومة بعد الإعلان عن تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية في ٢٤/ ٥/ ١٩٦٤. من هنا فإننا نقول، بأنه يجب تثبيت تاريخ بداية المقاومة العراقية، بسقوط أول قتيل لقوات الاحتلال الأمريكية بعد يوم التاسع من نيسان عام ٢٠٠٣ لكي نضع جميع الأمور في نصابها الصحيح.

ولأن سياق انطلاق المقاومة العراقية يختلف ـ كما قلنا عن تجارب المقاومة الأخرى ـ فإننا نشدد على نقطة في غاية الأهمية، تتعلق بالتوثيق الميداني لهجمات المقاومة ضد قوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية، إذ لم تكن هناك هيئة أو مجموعة توثق الهجمات التي شنتها المقاومة العراقية، كما حصل في جميع التجارب الأخرى. فالتجربة العراقية بدأت عسكرية صرفة، في حين بدأت جميع التجارب في العالم مقاومة سياسية، ثم شرعت بتنظيم الجانب الإعلامي وتهيئة الكوادر المتخصصة بالتوثيق، ومن ثم إعداد المقاتلين، وهذا الإعداد غالباً ما يأخذ سنوات، إلا أن ما حصل في العراق مختلف تماماً، فقد سبق الفعل المقاوم الاستحضارات والتجهيزات ذات الطابع الإعلامي. وقد يستغرب الكثيرون عندما يعرفون، أن مصدرنا الرئيسي في هذا البحث، هو البيانات الأمريكية، وما نشرته وسائل إعلامهم في الولايات المتحدة وسواها. ولأن

الاحتلال الأمريكي قد أكمل جميع مظاهره العسكرية والإعلامية يوم التاسع من نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، فإن المقاومة قد بدأت في اليوم الأول للاحتلال الأمريكي للعراق، وهو يوم الخميس ١٠/ ٤/ ٢٠٠٣. وأنا هنا أستند إلى بيانات الجيش الأمريكي (القيادة العسكرية الأمريكية الوسطى) ومشاهدات لمراسلين كانوا موجودين في العراق، سبق وصولهم إلى بغداد قبل أيام أو أسابيع من بداية الغزو الأمريكي للعراق، وبقي عدد كبير من هؤلاء لتغطية آخر وقائع الأحداث في العراق قبل اكتمال سلطة الاحتلال، التي توقعوا أنها لن تستغرق سوى عدة أيام، تستتب بعدها الأوضاع بصورتها النهائية لمصلحة القوات الأمريكية، التي لم تخفِ قياداتها ذلك، وتوقعوا عودة الكثير من الجنود إلى عوائلهم خلال فترة ليست بالبعيدة، تعبيراً عن قناعة تامة بإمساك الأمريكيين بكل أوجه السلطات في العراق، وفي المقدمة منها الجانب الأمني.

من مصادر هذا البحث أيضاً مشاهدات ميدانية ووقائع يرويها عراقيون وموقع شهير أسسه الأمريكي مايكل وايت بداية الاحتلال الأمريكي عام ٢٠٠٣ وأصبح مرجعاً للأمريكيين والباحثين ووسائل الإعلام المختلفة(٣).

من هنا نقول، إن المقاومة العراقية، قد بدأت فعلياً بعد أقل من ٢٤ ساعة، وتحديداً في الساعات الأولى لنهار يوم (الخميس) ١٠/ ٤/ ٢٠٠٣. وهنا لا بد من توضيح نقطة هامة، تتعلق بتصنيف أي فعل قتالي استهدف القوات المحتلة، بعد أن وقع فعل الاحتلال على البلد، وانهارت المنظومة الرسمية، ولم يعد هناك أي وجود يذكر لمسألة العقاب والثواب، إذ لم تكن في ذلك الحين على أرض العراق سوى قوة أجنبية مدججة بأقوى أنواع الأسلحة، وحققت أهدافها المعلنة والواضحة بإسقاط الحكومة، وفرض السيطرة على العراق. هذه القوة ليست سهلة، إنها القوات الأمريكية والبريطانية، التي تمكنت من الوصول إلى بغداد في وقت قياسي (إذ دخلت القوات الأمريكية مطار بغداد قبل التاريخ المتعارف عليه باحتلال العراق بستة أيام وذلك مساء الثالث من نيسان/ أبريل العام ٢٠٠٣ ـ بحسب تقارير مراسل قناة «فوكس نيوز» المرافق للقوات الأمريكية)(٤)، إضافة إلى بيانات القيادة العسكرية الأمريكية، بعد ذلك دخلت بغداد من جميع الاتجاهات

---

(٣) انظر موقع القتلى الأمريكيين في العراق الذي أسّسه مايكل وايت (Michael White)، ويتضمّن تفاصيل يومية للقتلى مع صورهم ومعلومات تفصيلية أخرى، وقد حقّق الموقع مشاهدات كبيرة جداً على شبكة الإنترنت. انظر: iCasualties.org (Iriaq Coalition Casuality Count), <http://icasualties.org/iraq/index.aspx>.

(٤) مراسل قناة فوكس نيوز (Fox News) الأمريكية المرافق للقوات الأمريكية التي سلكت الطريق الدولي السريع عصر الثالث من شهر نيسان/ أبريل عام ٢٠٠٣ في طريقها إلى مطار بغداد، وكان يبثّ صوراً حيّة لتقدُّم تلك القوات.

صباح التاسع من نيسان/ أبريل، وخلال الأيام والأسابيع اللاحقة، حاولت القوات الأمريكية، وعلى لسان كبار القادة، إطلاق تصريحات يمكن وصفها بالتمويهية أحياناً، والمرتبكة أحياناً أخرى. فقد دأبت في تلك الفترة على وصف الهجمات، التي تتعرض لها قواتها في الأيام والأسابيع الأولى للاحتلال بأنها من «بقايا الجيوب القتالية». وفي واقع الحال، إننا نجد أن خلطاً كبيراً قد حصل بين طبيعة الفعل ونوع الاصطلاح الذي استخدم في توصيف ذلك الفعل، وهنا نحتاج إلى شرح بسيط لمفهوم «بقايا الجيوب» ومتى يتم استخدامه.

إن إطلاق لفظة الجيوب يشمل المجاميع القتالية في جبهات الحروب، التي يتم تكليفها بواجبات قتالية محددة، في أماكن متباعده في جبهة الحرب، منها المجاميع العاملة في مجال الدفاع الجوي (مقاومة الطائرات)، التي يتم توزيعها في المرتفعات والغابات والصحارى، ومجاميع استطلاع تحركات العدو، وكمائن لأغراض مشابهة، أو القطعات الصغيرة، التي تتوزع في مواقع مختلفة في جبهات الحرب، ويطلق على هؤلاء مصطلح جيوب قتالية. ويحصل أن تنقطع جميع أنواع الاتصالات مع هؤلاء، وغالباً ما تكون لدى هذه المجاميع القتالية أوامر بتنفيذ مهامها المكلفة بها لحين تسلمها أوامر جديدة، وفي حال انقطاع الاتصالات مع مراكز القيادة، فإنهم لن يتوقفوا عن تنفيذ واجباتهم؛ وعلى سبيل المثال، يواصل طواقم الدفاع الجوي إطلاق قذائفهم باتجاه طائرات العدو، وتقاتل المجاميع الأخرى أي قوة تتقدم صوبها من العدو، وتحاول الاشتباك معها، ولا يعلم هؤلاء بتوقف العمليات العسكرية، ولا يعرفون شيئاً عمّا يجري في مقار قياداتهم العسكرية والسياسية، بسبب انقطاع وسائل الاتصال معهم. في هذه الحالة يُطلق على هؤلاء «جيوب قتالية»، وهو وصف غالباً ما يُستخدم في الحالات التي ذكرناها.

ولا يحتاج المرء إلى الكثير من العناء لفصل صفة الجيوب القتالية أو بقايا الجيوب عن المقاومين في التجربة العراقية في ساعاتها وأيامها الأولى، عندما شن المقاومون الهجمات على قوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية، إذ لم يكن هناك عراقي واحد لا يعلم بتطور الأحداث السريعة والمتلاحقة، والتي سمَّيناها المظاهر الأولى للاحتلال، المتمثلة بإسقاط التمثال الشهير للرئيس صدام حسين في ساحة الفردوس وسط بغداد، والانتشار العسكري الأمريكي وغياب جميع مظاهر السلطة العراقية، فقد كان العراقيون يتابعون وقائع الحرب وتداعياتها أوّلاً بأوّل. وكانت أبرز وسيلتين إعلاميتين متوفرتين هما إذاعة الـ«بي بي سي» البريطانية، التي كان يستمع إليها العراقيون على أوسع نطاق

منذ أيام حرب الخليج الثانية العام ١٩٩١ وحتى قبل ذلك التاريخ، وبخاصة عندما انقطع البث التلفزيوني أول مرة عن العراقيين بعد تدمير محطات الكهرباء بواسطة الصواريخ والطائرات الأمريكية في حرب العام ١٩٩١، ما اضطرهم إلى اللجوء إلى الإذاعات الأجنبية وفي صدارتها الـ «بي بي سي» و«مونتي كارلو» الفرنسية وإذاعة «صوت أمريكا» (قبل تحويلها إلى راديو سوا).

وأستطيع الجزم أن الأغلبية العظمى من العراقيين كانوا يتابعون تفاصيل الحرب ساعة بساعة، أما يوم التاسع من نيسان/ أبريل فإن العالم أجمع، ومن بينهم العراقيون، جلسوا أمام التلفاز يتابعون تطورات الأحداث، ولا سيما بعد انتشار الدبابات الأمريكية صباح الأربعاء بجانب الرصافة من بغداد. كذلك تابع العراقيون تلك الوقائع المصورة من خلال قناة «العالم» الإيرانية، وهي وسيلة الإعلام الثانية، التي تابعوا تطورات الأحداث وتداعياتها من خلالها، وكانت قد بدأت بثها قبل الحرب بأيام، وميزة بث هذه القناة أنها تبث على المحطة الأرضية[٥]، أي أن التلفزيونات العراقية تتلقى بثها دونما حاجة إلى الأطباق اللاقطة؛ ومعروف أن العراقيين يستخدمون المولدات الكهربائية، ما أتاح لهم متابعة مشاهد إسقاط التمثال عصر يوم الأربعاء بتاريخ ٩/ ٤/ ٢٠٠٣، الذي كان بمنزلة الإعلان الكامل عن بداية حقبة جديدة في تاريخ العراق.

ما أريد قوله إن جميع العراقيين، عرفوا أن القوات الأمريكية قد وصلت إلى أهدافها، هذا يعني أنه ليس هناك وجود لما يطلق عليه بالجيوب القتالية، التي لا تعرف ما يجري على أرض الواقع، وتحديداً في ساحة الفردوس بجانب الرصافة، وكان العراقيون يتابعون منذ اليوم السابق الثلاثاء بتاريخ ٨/ ٤/ ٢٠٠٣ واحداً من أهم المشاهد التي تم تهيئتها ليوم الاحتلال، وهو منظر الدبابتين الأمريكيتين اللتين وقفتا منذ الساعة الخامسة صباح الأربعاء عند بداية جسر الجمهورية، أمام وزارة التخطيط من جانب الكرخ على بعد عشرات الأمتار من بوابة القصر الرئاسي، ولم تتعرضا لأي مواجهة على الإطلاق. لقد كان ذلك إيذاناً بقرب اكتمال احتلال بغداد. وفي صباح ذلك اليوم تم قصف مقر قناة «الجزيرة» الفضائية، الذي يقع على ضفة نهر دجلة، وقُتل مراسلها طارق أيوب، وتمت محاصرة فريق قناة «أبو ظبي»، الذي لا يبعد سوى أمتار عن مقر «الجزيرة». لذلك فإن

(٥) قناة «العالم» الإيرانية: بدأت البثّ على اللاقط الأرضي قبيل الغزو الأمريكي للعراق بأيام، كذلك بدأ بث قناة «العربية» السعودية، لكن لم يكن باستطاعة العراقيين مشاهدة البثّ الفضائي، وبما أن بث قناة «العالم» يغطي أغلبية المدن العراقية على اللاقط الأرضي، فقد كانت مصدراً رئيسياً للمعلومات والأخبار الخاصة بالحرب قبل أن يدخل اللاقط الفضائي للعراق بعد الاحتلال الأمريكي عام ٢٠٠٣.

إعلان مظاهر الاحتلال بكل قوته وجبروته، لم تكن خافية على أحد من العراقيين، ليقول الأمريكيون بأن ما تتعرض له قواتهم من هجمات، يصدر من قبل جيوب قتالية، أي لا يعلم هؤلاء شيئاً عمّا يجري في قلب بغداد.

ما أريد تأكيده، أن الفعل الذي حصل بعد التاسع من نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، يجب إدراجه تحت عنوان المقاومة، التي تهدف إلى إخراج الغزاة والحاق الهزيمة بهم، وتحرير البلاد منهم، أما لجوء القادة العسكريين الأمريكيين في العراق إلى استخدام أكثر من تسمية على الرجال الذين يهاجمون قواتهم، يدلل على الصدمة التي وقعوا تحت تأثيرها لأنهم لم يتوقعوا حصول مقاومة في العراق.

سجل العراقيون سابقة في التاريخ الحديث، عندما انطلقت مقاومتهم ضد الاحتلال بكل جبروته بسرعة البرق، وخلال أقل من أربع وعشرين ساعة من بداية الاحتلال. ولم ينقطع زخم المقاومة، كما سنجد في الفصول اللاحقة، بل ازداد بعد أسابيع، ثم ظهرت البيانات والتصريحات، وصولاً إلى الهجمات الموثقة بالتصوير الفديوي.

وتأكيداً لما ذهبنا إليه، فإن اليوم الأول للاحتلال قد شهد مقتل اثنين من الجنود الأمريكيين وجرح ١٣ آخرين ـ حسب اعتراف قادة الجيش الأمريكي، ووثقت ذلك صحيفة **يو أس أي تودای** الأمريكية[٦]، التي نشرت المعلومات التالية عن القتلى الأمريكيين، وحسب تواريخ قتلهم على أيدي المقاومين في العراق، وهما تيري همينغواي (Terry W. Hemingway) من ولاية نيو جيرسي (Willingbore NJ)، عمره ٣٩ سنة وقُتل ببغداد يوم ١٠/ ٤/ ٢٠٠٣ وهو من قوات النخبة (المارينز)، والجندي الثاني هو جيفري إدوارد (Jeffery E. Edward) من مدينة (Osssian) وعمره ٣٩ سنة أيضاً وهو من المارينز، وقتلت المقاومة العراقية في اليوم الثاني من أيام الاحتلال (١١/ ٤/ ٢٠٠٣) الجندي ريان تيجيدا (Riayan A. Tejeda) من المارينز من مدينة نيويورك وعمره ٢٦ سنة، وفي اليوم الثالث من الاحتلال أي ١٢/ ٤/ ٢٠٠٣ قتل رجال المقاومة العراقية اثنين من المارينز هما خيسوس غونزاليس (Jasus A. Gonzalez)، وديفيد إدوارد أوينز (David Edward Owens) عمره ٢٠ سنة من المارينز، وبينما سقط قتيل باعتراف الجيش الأمريكي يوم ١٣/ ٤/ ٢٠٠٣ فإن اليوم الخامس من الاحتلال،

---

(٦) كانت صحيفة **يو أس أي تودای** (*USA Today*) الأمريكية قد خصّصت صفحات للقتلى الأمريكيين في العراق وأفغانستان، تنشر فيه أسماءهم وأعمارهم والمناطق التي قُتِلوا فيها، وتنقل بيانات القوات الأمريكية ولم تنشر أي معلومات خارج مصادر البنتاغون.

سجل رقماً عالياً بين قتلى قوات الاحتلال الأمريكية، إذ اعترف الجيش الأمريكي بمقتل ستة جنود؛ إثنان من المارينز وأربعة من الجيش وهم جايسون ديفيد (Jasson David) عمره ٢٠ سنة من المارينز وأرموند غونزاليس (Armond Gonzales) عمره ٢٥ سنة من المارينز، وتوماس فولي (Thomas A. Foly) وجون براون (John E. Brown) وجوزيف مايك (Joseph P. Mayek) وجايسون ديفيد (Jasson David)[٧].

لقد شهد شهر نيسان/ أبريل «من الأول إلى الثلاثين منه» عام ٢٠٠٣ هجمات عديدة للمقاومة العراقية، اعترف الجيش الأمريكي ببعضها، وتجاهل البعض الآخر، ولم يعترف ببعض خسائره رغم تأكيد ذلك من شهود عيان كثيرين، وسنشرح ذلك بالتفصيل في بحثنا في «يوميات ووقائع الاحتلال والمقاومة»، التي توثق لهجمات المقاومة المبكرة والعنيفة. وإذا كان يوم التاسع من نيسان/ أبريل يوماً مفصلياً وهاماً في تاريخ العراق، إذ يُؤرخ به لليوم الأخير من أيام سيادة الدولة العراقية قبل الاحتلال، فإن البحث في موضوعة المقاومة العراقية، لا بد أن يتوقف عند تاريخ آخر، وهو يوم الأول من أيار/ مايو ٢٠٠٣، عندما أعلن الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش «انتهاء العمليات العسكرية في العراق» من فوق سطح الفرقاطة الأمريكية «إبراهام لنكولن»[٨]؛ عندها تحدث عن «الانتصار الكبير» في العراق، وانطلقت موجة هادرة من التصفيق، وارتسم الفرح والزهو الكبيرين على وجه الرئيس الأمريكي، ومعه كبار قادة البنتاغون وطواقم البيت الأبيض وفريق المحافظين الجدد، الذين عملوا كل ما وسعهم لتنفيذ مخطط الحرب على العراق واحتلاله.

لا شك في أن لهذا التاريخ علاقة وثيقة الصلة بموضوع بحثنا، لأن الإعلام والرأي العام، بقيا طيلة الأسابيع الثلاثة المحصورة بين ١٠/ ٤/ ٢٠٠٣ وإلقاء بوش خطابه المذكور يتعامل مع ما يجري في العراق، على أنه عباره عن بقايا «جيوب قتالية»، وهو الوهم الأول الذي توهمه الأمريكيون أو التضليل الذي لجأوا إليه، ويتضح ذلك

---

(٧) نشرت صحيفة **واشنطن بوست** الأمريكية (*Washington Post*)، معلومات عن قتلى القوات الأمريكية في العراق، ووضعت بيانات وتفاصيل عن الجنود الذين قتلتهم المقاومة العراقية والتزمت بما تصدره القوات الأمريكية من بيانات، كذلك فعلت كلٌّ من وكالة أسوشيتد برس (Associated Press)، وموقع القتلى الأمريكيين في العراق (iCasualties.org).

(٨) في مقابلة متلفزة مع الصحافي الأمريكي مايكل وايت، صاحب الموقع الخاص بقتلى القوات الأمريكية في العراق، بثّتها قناة «الجزيرة» الفضائية عام ٢٠٠٦، قال: «إن الأمريكيين اعتقدوا أن خسائرهم البشرية ستتوقّف تماماً بعد إلقاء الرئيس جورج دبليو بوش خطابه في الأول من أيار/ مايو ٢٠٠٣، في حين رأيتُ أن أعداد القتلى ستزداد، لهذا حرصتُ على إنشاء موقع لقتلى القوات الأمريكية، لأن الحرب سيطول أمدها».

من طبيعة اللازمة التي بدأت تستخدمها مختلف وسائل الإعلام بعد إعلان بوش بيان الانتصار الكبير، التي تقول «لقد قُتل من الأمريكيين كذا، منذ إعلان الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش انتهاء العمليات العسكرية في العراق»، وهذا تأكيد أن حسابات الإدارة الأمريكية لم تكن دقيقة.

وفي ما يتعلق بالجانب الآخر لموضوع «الجيوب القتالية» التي تحدثوا عنها بعد التاسع من نيسان/ أبريل وابتداءً من اليوم التالي، فإنها لو كانت كذلك، لتوقفت بعد حين، وفي أفضل أحوالها فإنها لا تستمر لأسبوع أو أقل من ذلك؛ إلا أن ما حصل على الأرض في العراق يختلف تماماً، ما أثبت أن الضربات القليلة المتفرقة التي نفذها مقاومون في مناطق مختلفة على قلة أعدادها في الأسابيع والأشهر الأولى لانطلاق المقاومة العراقية، ساهمت في حفز الكثيرين وتشجيع الآخرين على تنفيذ هجمات منفردة ومن ثم البحث عن مجاميع لتشكل في ما بينها قوة قتالية. ولأن الهجمات ضد القوات الأمريكية لم تكن مخفية مناطقياً، وأن أصوات الانفجارات تُسمع من مسافات بعيدة وأخذ العراقيون يتناقلون أخبار الهجمات التي يشنها المقاومون هنا وهناك، فقد سارع الكثيرون إلى تشكيل مجاميع مقاومة، وفي العديد من المناطق، لتصبح النواة للفصائل المسلحة التي ظهرت لاحقاً بعناوين ومسميات كثيرة. كما أن هناك من نفذ الهجمات ضد القواعد الأمريكية، بالأخص بالهاونات، ولم يكن هؤلاء مرتبطون بأي جهة أو مجموعة مقاومة.

وروى لي أحد المعتقلين لدى القوات الأمريكية في الأشهر الأولى من الاحتلال، أن رجلاً في الخمسينيات من عمره واثنين من أولاده اعتقلتهم القوات الأمريكية، بعد أن رصدت خروج هاونات تنطلق من البستان العائد لهم، وتستهدف تجمع القوات الأمريكية (قاعدة جيش القدس) قرب بلد بمحافظة صلاح الدين، وتعرضوا للتعذيب أثناء التحقيق، وأصروا بأقوالهم أنهم لا ينتمون إلى أي جهة، لكنهم شعروا بواجبهم لضرب قوات الاحتلال، وأن أحد الأبناء جلب معه أثناء انسحاب الجيش العراقي من مواقعه في الأيام الأخيرة للحرب، مجموعة من قنابل الهاون إضافة إلى عُدة الإطلاق، واتفق مع والده وأخيه على شن تلك الهجمات، وبعد أقل من أسبوعين فاجأتهم القوات الأمريكية بحملة دهم وتفتيش واسعة للبيت والبستان ووجدوا قذائف الهاون، واعترف الأب وأولاده بأنهم نفذوا الهجمات. وبعد أن تأكد الأمريكيون أنهم غير مرتبطين بأي جهة أو تنظيم، وجهوا إليهم سؤالاً محدداً: هل ستعودون إلى ضرب قواتنا في حال إطلاق سراحكم؟ فأجابوهم بكل صراحة: إذا حصلنا على السلاح لن نتردد بضربكم

على الإطلاق؛ وتكرر الاستجواب وكرر المحققون الأمريكيون السؤال نفسه وسمعوا الجواب نفسه، وكان كل واحد منهم في محجر منفصل لكن إجاباتهم تطابقت أمام المحققين.

وفي واقع الحال، هناك الكثير من المقاومين بدأوا مشوار المقاومة بهذه القناعة وبالأسلوب ذاته، وكانت تلك النواة لانطلاق المقاومة ضد قوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية، وهذا يعرفه الكثير من العراقيين، ويؤكده الرعيل الأول من الذين أسسوا للمقاومة العراقية. وأستطيع القول، إن أهم عامل ساهم في سرعة التحاق المقاومين الآخرين بالنواة الأولى التي بدأت هنا وهناك، كانت نجاحات الهجمات الأولى، التي اعتقد الكثير من المقاومين في البداية أنها تدخل في باب المجازفة الكبرى، نظراً للصورة النمطية التي تركزت في أذهان العراقيين جميعاً، والتي ترسم أسطورة مخيفة للقوات الأمريكية. وزاد من تكريس هذه الصورة التراكمية، السرعة الفائقة التي وصلت فيها القوات الأمريكية إلى بغداد خلال حملة الغزو، إلا أن أخبار الضربات المتناثرة، التي بدأها المقاومون ساهمت بقوة في تشجيع الآخرين على الانخراط بالفعل المقاوم، فعمل البعض على تشكيل مجاميع، والتحق البعض بمعارف أو أقارب وأصدقاء ونفذوا بنجاح هجمات ضد القوات الأمريكية. والأهم من ذلك أن انسحاب المقاومين كان يجري بأمان.

وفي الواقع، فإن انقلاباً سريعاً قد حصل في مسألة «الصدمة والترويع» التي استخدمها الأمريكيون على أوسع نطاق في الحرب على العراق، وأهم مرتكزاتها هو القوة الهائلة التي لا تُبارى للقوات الأمريكية، والتي يجب ـ حسب ما أشيع في «الصدمة والترويع» ـ أن لا تفكر الدول الكبرى مجرد تفكير بالوقوف أمام هذه القوات العملاقة والمتفوقة في كل شيء، فكيف بالأفراد والمجاميع أن يفكروا بالتعرض لهذا العملاق الشرس المدمر. إن هذه المقاربة ساعدت على خلق نوع من المقارنة العقلية عند المقاومين، لدرجة أن كل هجوم ناجح كان يزيد معنوياتهم، ويكشف أمامهم أكبر كذبة تم تسويقها إلى العراقيين والعالم، هي كذبة القوة الأمريكية العسكرية التي لا يمكن الوقوف بوجهها ومجابهتها.

لا بد من التأكيد أنه خلال الأيام التي كان يستعد فيها الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش، لتجهيز خطابه الخاص بـ «الانتصار الكبير في العراق»، راسماً هالة كبيرة من التباهي والتفاخر، بما حققته القوات الأمريكية من انتصار سريع وخاطف، فقد كانت المجاميع الأولى من المقاومة العراقية تباشر أولى نشاطاتها، على صعد ثلاثة:

١ ـ البدء بمهاجمة القوات الأمريكية حيثما توافرت الفرصة والإمكانية، وقد تم الاعتراف بالهجمات التي استهدفت القوات الأمريكية منذ اليوم الأول لانطلاق المقاومة، وتواصلت الهجمات ضد قوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية، وسقط خلال المدة المحصورة (من ١٠/ ٤/ ٢٠٠٣ الى ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٣) إثنان وعشرون قتيلاً من القوات الأمريكية، أي بمعدل أكثر من قتيل في اليوم الواحد[٩].

٢ ـ في الوقت نفسه، شرعت مجاميع كبيرة من الرجال بحملة جمع الأسلحة، وهناك من تمكن من الحصول على كميات من الأسلحة المختلفة من مخازن الجيش العراقي والحرس الجمهوري، التي تنتشر في مناطق العراق، فيما توجه آخرون لشراء الأسلحة من العراقيين، الذين استولوا على الأسلحة، بعد أن تم فتح مخازن الأسلحة وبالأخص الموجودة في المعسكرات الرئيسية، وكانت أسعاراً رخيصة الثمن، إذ لم يفكر من حصل عليها (من خارج مجاميع المقاومين) في تخزينها لأي غرض كان، وبخاصة أن العراق يخلو من عصابات الاتجار بالأسلحة، كما أن كميات السلاح كانت كبيرة جداً، وامتلأت بها الأسواق والبيوت. وشهدت تلك الأيام، استناداً إلى مقابلات منشورة لاحقاً، مع بعض قياديي فصائل المقاومة العراقية، عمليات جمع وشراء للأسلحة على أوسع نطاق، وتواصلت عمليات جمع الأسلحة لعدة أشهر بعد يوم الاحتلال المؤرخ في ١٠/ ٤/ ٢٠٠٣. ومن المعروف أن أسلحة الجيش العراقي كانت تتوزع على مئات المخازن الكبيرة، وأن الحكومة العراقية في ذلك الوقت، قد كدست أسلحة هائلة استعداداً لمعارك طويلة محتملة مع القوات الأمريكية والبريطانية، وتحدث الفريق أول الركن سيف الدين الراوي قائد قوات الحرس الجمهوري (السابق) عن كميات هذه الأسلحة، وقال «إن سلاح الجيش العراقي السابق، يكفي فصائل المقاومة العراقية لمدة خمسين عاماً، استناداً إلى كميات السلاح والأعتدة الموجودة في مخازن الجيش والحرس الجمهوري»[١٠].

معلومٌ أن الراوي من كبار قادة الجيش العراقي، وهو من بين كبار المسؤولين المطلوبين للقوات الأمريكية، ويحتل تسلسلاً متقدماً بين المسؤولين الخمسة

---

(٩) انظر المواقع الإلكترونية للصحف الأمريكية التي اهتمت بنشر أسماء القتلى من الجيش الأمريكي، وفي مقدمتها **واشنطن بوست** (*Washington Post*) <http://www.washingtonpost.com>، وصحيفة **يو أس أي توداي** (*USA Today*) <http://www.usatoday.com/>.

(١٠) مقابلة تلفزيونية بثّتها قناة «الجزيرة» الفضائية على حلقتين يومي ٨ و٩ نيسان/ أبريل ٢٠٠٤، في الذكرى الأولى للاحتلال الأمريكي للعراق أجراها الصحفي العراقي عبد العظيم محمد مع الفريق أول الركن سيف الدين الراوي، قائد الحرس الجمهوري قبل الاحتلال الأمريكي عام ٢٠٠٣، وظهر الراوي مغطّى الوجه.

والخمسين في القائمة الأمريكية الشهيرة، إذ جاء تسلسله السابع، إلا أنه ظل متوارياً عن الأنظار، ولم تتمكن القوات الأمريكية من الوصول إليه، رغم تنفيذها عشرات العمليات العسكرية بحثاً عنه سواء في مدينته راوة غرب العراق أو في بغداد[١١]. وحاولت القوات الأمريكية استدراجه بالطريقة ذاتها التي تم فيها استدراج الفريق أول الركن سلطان هاشم أحمد وزير الدفاع خلال الغزو من خلال الوعود الكاذبة والمخادعة، إلا أنهم (الأمريكيون) فشلوا في الوصول إليه واعتقاله. ويُعتقد أن له دوراً في التخطيط لعمليات بعض الفصائل المقاومة، لما يمتلكه من خبرة عسكرية واسعة وطويلة. وجاء تصريح الراوي، ليؤكد قدرة المقاومة العراقية على المطاولة، والاستمرار في شن هجماتها ضد قوات الاحتلال الأمريكي. وتزامن تصريحه مع بدء خطة ديفيد بتريوس قائد القوات الأمريكية في العراق عام ٢٠٠٧ التي زاد فيها عديد القوات الأمريكية بـ ٣٦ ألف عنصر للتصدي لهجمات المقاومة المتزايدة.

ومن دون أدنى شك، إن كلام الضابط العراقي الكبير والبارز قد أعطى رسالتين هامتين، **الأولى** موجهة إلى قوات الاحتلال التي حرصت في وقت مبكر على التفتيش عن مخازن سلاح المقاومة، وبهذا الكلام فإن حالة من اليأس والقنوط ستسيطر بالتأكيد على قيادات تلك القوات، عندما يأتي الكلام من قائد عسكري واستراتيجي كبير مثل قائد الحرس الجمهوري العراقي، أما الرسالة **الثانية**، فقد كانت موجهة إلى المقاومين أنفسهم، وجمهور المقاومة من الداعمين والمحبين والمشجعين، إذ يعرف الجميع، أن لا مجال لدعم للمقاومة بالسلاح من أي جهة أو طرف إقليمي أو دولي، وإذا توافر السلاح فالرجال كثيرون، أما التصميم على مواصلة المقاومة فلا حدود له.

٣ـ نظراً إلى قناعة المقاومين العراقيين، الذين باشروا مشروع مقاومة الغزاة المحتلين بشراسة المعركة واحتمال استمرارها لسنوات وربما لعقود، وبما يمتلكه أغلبية هؤلاء من خبرة عسكرية وقتالية وفنية واسعة جراء الخدمة في الجيش العراقي، وبالأخص الصنوف العسكرية ذات الطابع الفني والهندسي، فقد تم تكليف المختصين في هذا المجال، بالبدء في عملية إعادة تخزين الأسلحة التي تم جمعها والحصول

(١١) مصدر مقرب جداً من الراوي أبلغ المؤلّف أن الجنرال الأمريكي ديفيد بتريوس بعث برسالة إلى الفريق أول الركن سيف الراوي لاستدراجه واعتقاله، وقال المصدر إن الرسالة كانت بالصيغة عينها وأسلوب الرسالة ذاته التي أرسلها بتريوس للفريق أول الركن سلطان هاشم وزير الدفاع العراقي السابق، والتي أفضَت إلى اعتقاله والحكم عليه بالإعدام، لكن الراوي توارى عن الأنظار ولم تتمكن القوات الأمريكية من اعتقاله، رغم أنه يحتلّ المرتبة السابعة ضمن قائمة الـ ٥٥ مطلوباً للقوات الأمريكية.

عليها، وذلك باستخدام الوسائل العلمية، التي تضمن المحافظة على صلاحية السلاح وعدم تأثره بظروف خزنه السرية، التي تختلف تماماً عن طرق الخزن التقليدية. فقد انتقلت عملية الخزن من البنايات الكبيرة (المخازن) المخصصة لأغراض خزن السلاح بمختلف أنواعه وفق مواصفات علمية دقيقة، إلى الخزن داخل الأرض، وهو ما يتطلبه الظرف الجديد، حيث يتوقع حصول عمليات دهم وتفتيش عن الأسلحة، وتتطلب عملية الخزن خبرة في عمليات التغليف والطمر تحت الأرض، لضمان عدم تأثر السلاح بعوامل الرطوبة وغيرها من العوامل، التي قد تتسبب بتلف الأسلحة والعتاد (الذخيرة) الخاص بها.

يقدّر خبراء في شؤون المقاومة عدد مخازن السلاح الصغيرة والمتوسطة والكبيرة، التي تم طمرها تحت الأرض، وبعضها تم خزنها في أماكن مختلفة أخرى، بأكثر من خمسين ألف مخزن سلاح «صغير جداً ومتوسط وكبير»، تحتوي الملايين من قطع السلاح، التي تتوزع على أسلحة أر بي جي ٧، وكلاشنيكوف، وبي كي سي وقاذفات ومسدسات وصواريخ مختلفة وأعتدة، ومواد شديدة الانفجار، ويمكن الاستدلال على العدد الهائل من مخازن السلاح المخبأة من خلال زاويتين واضحتين هما:

أ ـ مواصلة جميع فصائل المقاومة استخدام مختلف أنواع الأسلحة، دون انقطاع، حتى انسحاب الجنود الأمريكيين أواخر كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١١.

ب ـ صدور بيانات شبه يومية منذ بداية الاحتلال الأمريكي، تتحدث عن العثور على مخازن كبيرة ومتوسطة تضم مختلف أنواع الأسلحة، وهذا ما دأبت على إعلانه القوات الأمريكية والبريطانية والقوات الأمنية الحكومية؛ ما يدلل على أن مخازن الأسلحة التي باشرت فصائل المقاومة بخزنها والاحتفاظ بها كثيرة جداً، وأن استمرار العثور على الأسلحة، بعد سنوات عديدة من بداية الاحتلال وحتى بعد خروج القوات الأمريكية، وهي صالحة للاستعمال وفي أفضل أحوالها، دليل على دقة عمليات الخزن تحت الأرض، وخبرتهم التي تزداد صقلاً وحنكة مع التقدم الزمني. كما تجري أعمال صيانة للكثير من تلك الأسلحة بين فترة وأخرى، من خلال إعادة التخزين والنقل كلما استوجبت الظروف، وبخاصة إذا ما توصلت قيادات المقاومة في مناطق معينة إلى قناعات بضرورة نقل الأسلحة لدواعٍ أمنية، ولتجنب وقوعها بأيدي القوات الأمريكية، وفي مرحلة لاحقة الخشية من أطراف وجهات عراقية، تتعاون وتتعامل مع قوات الاحتلال الأمريكية.

هذا دليل آخر على أن المقاومة العراقية قد انبثقت بسرعة استثنائية ضد الاحتلال الأمريكي ـ البريطاني، وتواصلت منذ يومها الأول بدون توقف، وهو ما لم يحصل في تجارب المقاومة الأخرى في العالم؛ التي نورد بعض الأمثلة عنها:

١ ـ المقاومة الجزائرية

تم احتلال الجزائر من قبل القوات الفرنسية في الخامس من تموز/ يوليو عام ١٨٣٠، لكن انطلاق المقاومة بصورتها الفعلية المستمرة والفاعلة تأخر حتى الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٥٤، وقرأ بيانها الأول أحمد بن بيلّا وشهد ذلك اليوم ثلاثين هجوماً للمقاومين الجزائريين في خمس مناطق بالجزائر هي: المنطقة الأولى الأوراس بقيادة مصطفى بن بو العيد، والمنطقة الثانية الشمال القسطنطيني بقيادة دودوش مراد، والثالثة بقيادة كارين بلقاسم، والرابعة بقيادة رابح بيطاط، والخامسة في الغرب الوهراني بقيادة العربي بن مهيدي[١٢].

ويصف المؤرخ الفرنسي بنجامين ستورا يوم انطلاق المقاومة الجزائرية، بأنه تاريخ مهم جداً، وكان الهدف من عمليات ذلك اليوم هو إعطاء انطباع بوجود ثورة منظمة في كل البلاد، وكانت تظهر عمليات مقاومة كل خمس عشرة سنة في الجزائر، إلا أنها تتلاشى ثم تعود مرة أخرى. ويذكر المؤرخون أن المقاومة الجزائرية تأخرت ١٢٤عاماً، والمعيار في ذلك هو انطلاق المقاومة واستمرارها، ومواصلة هجماتها ضد القوات الفرنسية التي احتلت الجزائر في العام ١٨٣٠، على خلفية مشادة كلامية بين والي الجزائر حينذاك شيخ حسين والقنصل الفرنسي، عندما طالب الحاكم الجزائري الفرنسيين بتسديد الديون المترتبة بذمتهم للجزائر، عن صادرات الحبوب الجزائرية، التي بلغت حينذاك سبعة ملايين فرنك، وهو مبلغ طائل في ذلك الوقت، وقررت فرنسا غزو الجزائر والسيطرة على أراضيها، لأن القمح الجزائري كان يتم تصديره إلى جنوب فرنسا ومناطق كثيرة من إسبانيا، ومضت عشرات السنين قبل انطلاق المقاومة الجزائرية، التي تم الإعلان عنها بتاريخ ١/ ١١/ ١٩٥٤ حيث صدر البيان الأول لها، وتم تنفيذ الهجمات القتالية ضد القوات الفرنسية، وبذلك تكون المقاومة الجزائرية قد تأخرت ١٢٤ سنة، قبل أن تنطلق بالقوة والزخم الكبيرين، الذي تمخض عنه طرد الاحتلال الفرنسي واستقلال الجزائر في الخامس من تموز/ يوليو عام ١٩٦٢، وهو اليوم نفسه

(١٢) برنامج «تاريخنا وأرشيفهم» الذي بُثَّت الحلقة الأولى، منه بين ثلاث، حلقات على قناة «الجزيرة» الفضائية، بتاريخ ٣ حزيران/ يونيو ٢٠١٠.

لاحتلال فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠. وكانت المقاومة الجزائرية قد أرغمت شارل ديغول على القبول بالتفاوض مع قادة المقاومة في مفاوضات «إيفان» وجرى الاتفاق في ١٩/ ٣/ ١٩٦٢ على وقف إطلاق النار، وتم تحديد تاريخ ١/ ٧/ ١٩٦٢ لإجراء استفتاء على مصير الجزائر، وصوّت الجزائريون مع استقلال الجزائر بنسبة ٩٩ في المئة، لتجني المقاومة الجزائرية ثمار عملها وقتالها. ونال بلدهم الاستقلال في اليوم نفسه لذكرى الاحتلال وذلك في الخامس من تموز/ يوليو ١٩٦٢.

لا شك في أن لكل مقاومة ظرفها الخاص الذي نشأت فيه، وتبقى العبرة ليس بتأخر ظهور المقاومة هنا أو هناك، لكن المهم في كل ذلك أن تنهض الشعوب لمقاومة المحتل؛ وأن ينهض الشعب متأخراً أفضل من أن لا ينهض، والعبرة بقوة الفعل وما يتمخض عنه من نتائج تصب في النهاية بالهدف الأسمى المتمثل بتحرير البلاد من المحتل وإفشال مخططاته وهزيمة مشروعه. ومثلما سعت المقاومة الجزائرية للتحرير وحققته، فإن المقاومة العراقية التي حققت سبقاً تاريخياً بسرعة انطلاقها، قد عملت لتحقيق ذات الهدف، المتمثل بتحرير العراق وإفشال مخطط المحتل، وإذا تأخرت انطلاقة التحرير الجزائرية ١٢٤ عاماً ومن ثم حققت أهدافها، فإن انطلاقة المقاومة العراقية الأولى، التي دوّت في سماء بغداد قد جاءت بعد ساعات من الاحتلال، ولم يكن ذلك مجرد صوت يدوي في الفضاء، وإنما طلقة موت حصدت أول رؤوس الغزاة (واسمه تيري هيمنغواي كما أشرنا سابقاً) من المحتلين الأمريكان، على طريق الوصول إلى الهدف النهائي والحاسم.

إذا كان بيان المقاومة الجزائرية الأول قد حدد ثلاثة أهداف واضحة هي: الحصول على السلاح أداة المعركة الرئيسي، ومن ثم تدويل القضية الجزائرية وصولاً إلى الهدف الثالث المتمثل بإرغام العدو على التفاوض، فإن سرعة انطلاق المقاومة العراقية، وفي الظروف الصعبة التي بدأت فيها ومن ثم تطورها المعروف، فقد كانت سمتها الأساسية بسرعة الانطلاق والقدرة على تطوير الأداء والاستمرار بزخم كبير وبفعل ميداني، فيه الكثير من الحنكة العسكرية، والقدرة على المناورة، وهو ما أقر به كبار القادة العسكريين الأمريكيين.

٢ ـ المقاومة الفرنسية

قد تكون تجربة المقاومة الفرنسية، التي قادها ديغول ضد الاحتلال الألماني عام ١٩٤٠، الأقرب إلى التجربة العراقية في بعض جوانبها؛ لذلك ارتأينا دراستها ضمن سياق

البحث في تجربة انطلاق المقاومة العراقية، فقد كانت فرنسا دولة مستقلة كاملة السيادة وقرر أدولف هتلر احتلالها في بداية الحرب العالمية الثانية. وما تختلف به فرنسا عن العراق، أن القوات المسلحة الألمانية ليست أفضل من مثيلاتها الفرنسية. ويقول شارل ديغول بهذا الصدد «إن العدو ـ المقصود ألمانيا ـ لم يكن أكثر منا عتاداً أو عدداً، حيث كنا نمتلك ما يقارب ثلاثة آلاف دبابة فرنسية الصنع، وثمانمئة مدفع رشاش محمول على ظهور السيارات»[١٣]، كما أن الفرنسيين يمتلكون أسطولاً بحرياً كبيراً جداً، وقوة جوية قتالية واسعة، وهذا ما افتقده العراق في حربه أمام القوات الأمريكية ـ البريطانية، كما أن عدوة فرنسا في الحرب (ألمانيا) كانت منشغلة بأكثر من جبهة من جبهات القتال، في حين تفردت أمريكا وبريطانيا بالعراق في غزو لم يتمكن المجتمع الدولي من منعه، بل إن أغلبية دول العالم أعلنت تأييدها بطريقة أو بأخرى لهذا الغزو، ورغم ذلك لم تتمكن فرنسا من الصمود أمام الغزو الألماني، الذي تمكن من احتلال فرنسا في حرب خاطفة؛ وما إن أصبح الاحتلال الألماني واقع حال لا جدال فيه، جاء إعلان ديغول بتأسيس «فرنسا الحرة» التي تقود المقاومة ضد الاحتلال الألماني والعمل ضد حكومة فيشي التي شكلها المحتلون الألمان، وقال في بيانه الأول: «أنا الجنرال ديغول أتحدث إليكم من لندن، وأدعو جميع جنود وضباط الجيش الفرنسي، والذين يأتون مجهزين بأسلحتهم أو بدونها أن يتصلوا بي، ومهما يكن الأمر فشعلة المقاومة لن تنطفئ إلى الأبد».

ووجه ديغول باسم فرنسا الحرة نداءه الشهير يوم ١٩/ ٦/ ١٩٤٠، وبثته إذاعة الـ «بي بي سي» البريطانية مخاطباً الشعب الفرنسي بقوله «على كل مواطن فرنسي ما زال يمسك بيده السلاح حتى الآن، أن يواصل الحرب، وليعلم الجميع أن كل من يتخلى عن شبر واحد من أرض فرنسية، يكون بذلك قد ارتكب جريمة لا تغتفر بحق بلاده»[١٤].

إن المقاومة الفرنسية التي أعلنت عن نفسها بسرعة قياسية، وتمتلك جميع مقومات الانطلاق العسكري، لم تتمكن من شن هجوم واحد ضد القوات الألمانية المحتلة طيلة أكثر من عام بعد إعلان تأسيس المقاومة، التي جاءت على شكل بيان رسمي ألقاه الجنرال ديغول، وحالت قوات الاحتلال الألماني الموجودة على الأراضي الفرنسية،

---

(١٣) شارل ديغول، **مذكرات الجنرال ديغول: نداء الشرف، ١٩٤٠ ـ ١٩٤٢**، ترجمة وتعليق خيري حماد (بيروت؛ بغداد: مكتبة المتنبي، ١٩٦٤)، ص ١٩.

(١٤) نداء ديغول الشهير يوم ١٩/ ٦/ ١٩٤٠، الذي كانت قد بثّته إذاعة الـ «بي بي سي» البريطانية، انظر: المصدر نفسه.

دون تنفيذ هجمات من قبل المقاومين؛ ويعترف بذلك ديغول بقوله «أما في المنطقة الفرنسية الواقعة تحت الاحتلال الألماني، فإن العمل فيها كان يتعرض لمخاطر كثيرة، نظراً إلى وجود جيش العدو بكثافة فيها»، ولم تُنفذ أي عملية ضد القوات الألمانية ما عدا حادثتين سُجلتا حيث تم قطع أسلاك الهاتف، وتأخرت هجمات المقاومة الفرنسية لمدة خمسة عشر شهراً تقريباً، قبل أن تشن هجماتها ضد الاحتلال الألماني، إذ تم الإعلان في أيلول/ سبتمبر عام ١٩٤١ عن هجمات أثمرت مقتل عدد من الضباط الألمان (من بينهم ضابط برتبة رائد وقائد المعسكر الألماني في تانت ومقتل ضابط في بوردو وجنديين في شارع شانبونيه بباريس).

وفي أواخر تشرين الأول/ أكتوبر من العام ١٩٤١، اعترف ديغول بأنهم (المقاومون الفرنسيون) لم يكونوا جاهزين لشن هجمات ضد القوات الألمانية، وخاطب الفرنسيين من إذاعة لندن بقوله «على العدو أن يدرك إذا كان الشعب الفرنسي غير قادر اليوم على توجيه الضربة القاضية، لأن الترتيبات اللازمة لذلك لم نفرغ منها بعد، فإن هذا اليوم ليس بالبعيد، وأن الترتيبات اللازمة قد أوشكت بالفعل على الانتهاء». وكان خطاب ديغول رداً على عمليات الإعدام والاعتقالات الواسعة، التي نفذتها القوات الألمانية ضد الفرنسيين في بوردو ونانت حيث قتل الألمان خمسين أسيراً فرنسياً بتاريخ ٢٥/ ١٠/ ١٩٤١. ووجه ديغول دعوة للاحتجاج الصامت في الساعة الرابعة عصر يوم الحادي والثلاثين من تشرين الأول/ أكتوبر تعبيراً عن الرفض والاحتجاج على قتل الألمان للفرنسيين.

وعلينا أن نتذكر أن ما يقرب من سنة ونصف السنة قد مر على الاحتلال الألماني للأراضي الفرنسية، وأن الترتيبات لبدء المقاومة كما أعلن الجنرال ديغول ما زالت لم تبلغ درجة النضج التام بما يكفل شن هجمات قوية ومتواصلة من قبل المقاومين الفرنسيين. وكما قلنا فإن فرنسا التي انهزمت أمام الجيش الألماني تمتلك قوة عسكرية كبيرة ولها مستعمرات واسعة تُقدم الدعم لديغول في الجزائر وجنوب شرق آسيا، حيث كانت فرنسا تحتل في ذلك الوقت فييتنام والجزائر إضافة إلى مستعمراتها الأخرى.

هكذا نجد أن المقاومة الفرنسية قد تأخرت طويلاً، قياساً بما كانت تحظى به من دعم دولي وإمكانات هائلة، فبعد أن زحفت القوات الألمانية صوب فرنسا العام ١٩٤٠، أجرت القيادة الفرنسية عدة اجتماعات برئاسة رئيس الحكومة بول رينو، ولم تتمكن من التصدي للقوات الألمانية الزاحفة، وانهارت الحكومة الفرنسية، وقسم الألمان فرنسا إلى منطقتين، الأولى تمركزت عليها القوات الألمانية، في حين تم تنصيب حكومة

فرنسية من قبل الألمان في القسم الثاني، والتي عرفت بحكومة فيشي التي ترأسها الجنرال بيتان، وحصل ذلك بتاريخ ١٩/ ٦/ ١٩٤٠.

٣ ـ المقاومة الفلسطينية

أما ديغول فقد انتقل إلى بريطانيا، ليقود المقاومة من هناك، إلا أنه رغم انتقاله من سلطة فرنسية متكاملة عسكرية وأمنية وشعبية، لم يتمكن من الشروع بعمليات مقاومة على شكل هجمات سريعة ومتواصلة ضد قوات الاحتلال الألماني، وبالمقارنة مع بدء المقاومة العراقية، فإن الانطلاقة على أرض العراق كانت سريعة وفاعلة، حيث بدأت بعد أقل من أربع وعشرين ساعة من احتلال العراق من قبل القوات الأمريكية والبريطانية.

من التجارب التي ارتأينا الخوض في دراستها، وإجراء مقارنة حول سرعة نشأة وانطلاق المقاومة العراقية، هي تجربة المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلي؛ فرغم وضوح المشروع الإسرائيلي في فلسطين، ومروره بمراحل واضحة الأهداف، امتدت لعشرات السنين، قبل الإعلان الرسمي عن احتلال فلسطين عام ١٩٤٨، إلا أن المقاومة الفلسطينية تأخر انطلاقها أكثر من ستة عشر عاماً، ونعني بالانطلاقة، الفعل المقاوم الذي تتواصل فيه عمليات عسكرية منظمة، تحدث فزعاً وإرباكاً وخوفاً لدى العدو، وترسم آفاقاً سياسية تتساوق والفعل العسكري الحاصل على الأرض، فقد تم احتلال فلسطين وإعلان دولة إسرائيل في ١٥/ ٥/ ١٩٤٨، ولم تتشكل منظمة التحرير الفلسطينية إلا بتاريخ ٢٤/ ٥/ ١٩٦٤ حيث عُقد المؤتمر الشهير في مدينة القدس، وهنا نحن أمام أكثر من عقد ونصف العقد من الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية، وهناك أكثر من تسويغ لتأخر ظهور المقاومة على أرض فلسطين، لعل أهمها أن أبناء فلسطين وضعوا ثقل قضيتهم على كاهل الأقطار العربية، وانتظروا فجراً لم يروه ليخلّصهم من المحتلين الإسرائيليين.

ربما نكتشف بهذه المناسبة أن اليأس من فعل عربي لتحرير الأراضي العربية المحتلة في فلسطين، كان أحد عوامل انطلاق المقاومة العراقية في وقت مبكر جداً، وذلك بالاعتماد على القدرات الذاتية، كما أن قناعة المقاومين أفراداً ومجاميع في بداية مرحلة التشكيل والنشأة لإدامة زخم هذه المقاومة على أرض بلاد الرافدين كانت عاملاً مهماً، إذ لم يضعوا في حساباتهم دعماً وإسناداً عربياً، وتم الشروع بالمقاومة من خلال التعامل مع المتوافر من الأسلحة على أساس أنها الرافد الوحيد الذي يمكن استخدامه، فجاء الإسراع بجمع الأسلحة والاهتمام بعمليات التخزين التي تضمن سلامة السلاح

والعتاد لسنوات طويلة، ولم يدرْ بخلد المقاومين ولو للحظة واحدة، أن تنتفض الحكومات العربية أو الشارع العربي للوقوف ضد الاحتلال الأمريكي، الذي أصبح واقعاً مفروضاً على أرض وشعب العراق.

أما التفكير بالعمل المسلح من قبل القوى والشخصيات الفلسطينية فلم ينقطع، ويقول بهذا الصدد القيادي في منظمة التحرير الفلسطينية شفيق الحوت «في نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات، بدأت تتشكل بعض الفصائل الفلسطينية مثل حركة القوميين العرب، حركة فتح، جبهة التحرير الوطني الفلسطيني، وتنظيمات أخرى وصلت إلى حوالى ١٧ تنظيماً تقريباً»[١٥].

من زاوية أخرى قد يتصور البعض أن الفلسطينيين أعلنوا استسلامهم خلال تلك الفترة، وهذا غير صحيح، فهناك أكثر من ٨٠٠ ألف فلسطيني وجدوا أنفسهم خارج بلدهم، وحصلت صدامات بين الفلسطينيين واليهود، إلا أن أغلبيتها انحصرت في الصدامات الفردية أو المجاميع الصغيرة، خلال محاولات البعض دخول فلسطين وجلب حاجات وأغراض خاصة بهم، وتقول الإحصاءات أنه خلال الفترة من آذار/ مارس ١٩٤٩ حيث تم توقيع وقف إطلاق النار حتى حرب اجتياح غزة وسيناء في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٦ قُتل ١١٧٦ إسرائيلياً، وعند التدقيق بتفاصيل الكثير منها يجد المرء أنها تدخل ضمن أعمال المقاومة، إلا أنها في الحصيلة النهائية عبارة عن هجمات تستهدف المحتل بكل عناوينه.

ويذكر الباحث الفلسطيني علي بدوان في كتابه الموسوم **من تاريخ الكفاح الفلسطيني: أفول وصعود المقاومة**[١٦] أنه تم تنفيذ أولى العمليات الفدائية الاستطلاعية شمال فلسطين المحتلة يوم ٢١/ ١٠/ ١٩٦٦ وأن أولى عمليات التحرير الفلسطينية بزعامة أحمد جبريل، قد بدأت في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٥، ومع تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية في ٢٤ أيار/ مايو ١٩٦٤ تم رسمياً الاحتفال بتشكيل القوة العسكرية التابعة لها، تحت اسم جيش التحرير الفلسطيني وأعلن ذلك في ١/ ٩/ ١٩٦٤ بقوام ثلاثة ألوية عسكرية ـ مشاة/ صاعقة في كل من: مصر وقطاع غزة (قوات عين جالوت)

---

(١٥) حوار مع القيادي في منظمة التحرير الفلسطينية شفيق الحوت، بثّته قناة «الجزيرة» الفضائية بتاريخ ١٩/ ١/ ٢٠٠٣.

(١٦) يتطرّق إلى هذا الموضوع بالتفصيل الباحث الفلسطيني علي بدوان. انظر: علي بدوان، **صفحات من تاريخ الكفاح الفلسطيني: التكوينات السياسية والفدائية المعاصرة: النشأة والمصائر** (دمشق: دار صفحات للدراسات والنشر، ٢٠٠٨)، المقدمة: «أفول وصعود المقاومة: يقظة الحقيقة الفلسطينية».

وسوريا (قوات حطين) والعراق (قوات القادسية)، وبقي المقر العام للجيش في القاهرة إلى العام ١٩٧١؛ بعد ذلك بسنتين أعلن جورج حبش عن قيام الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في ٧/ ١٢/ ١٩٦٧ عبر بيانها التأسيسي الموجه للشعب الفلسطيني والأمة العربية، والداعي إلى «إعلان الكفاح المسلح والاستمرار فيه، بالرغم من كل الصعاب وإلى اعتماد لغة العنف الثوري ضد الاحتلال»؛ ولا بد من الإشارة هنا إلى أن أول شهيد هو خالد أبو عيشه الذي سقط من الجبهة الشعبية قبل إعلان تأسيسها، وكان ذلك بتاريخ ٢/ ١١/ ١٩٦٤[١٧].

لا شك في أن تأخر انطلاق المقاومة الفلسطينية قد أضر بها كثيراً، فالإسرائيليون يـزدادون قـوة، لـما يحصلون عليه من دعـم أمريكي ودولـي كبير، وأعـداد السكان الإسرائيليين يـزدادون، بسبب استمرار عمليات تهجير اليهود من الـدول العربية والأوروبية، إضافة إلى عمليات الجذب والإغراء، وعلى الطرف الآخر تزداد عمليات تهجير الفلسطينيين وإبعادهم عن أرضهم، والعمل بكل الوسائل لفك ارتباطهم بأرضهم، ما يؤثر سلباً في اهتمامهم بقضية فلسطين، وأصبحت الصورة بوجهيها المتناقضين، **الأول** تزايد قوة وأعداد الإسرائيليين، و**الثاني** تزايد بعثرة الفلسطينيين وتشتيت أعدادهم وتفتيت قواهم. أما في الداخل فقد عمل الاحتلال الإسرائيلي باتجاه الاستفادة من الفلسطينيين قدر الإمكان، وزج من يشتبه بحمله الفكر المقاوم والنزعة الوطنية في السجون والمعتقلات، ولا شك في أن الإسرائيليين قد استفادوا كثيراً من تأخر انطلاق المقاومة طيلة هذه السنوات، التي زادت على ١٦ سنة، وهو زمن طويل من عمر الاحتلال، وبخاصة الإسرائيلي الذي يعمل بعقيدة تسمية الأرض باسمه وربطها بأبناء دينه أينما وُجدوا وإنكار حق أبناء الأرض في العيش على هذه الأرض. وهنا نشدد على هذه النقطة، لأنه لو تأخرت المقاومة العراقية في انطلاقها لعدة أشهر أو سنة واحدة لواجهت صعوبات جمة، ولو انتظرت سنوات كما حصل في فلسطين فربما ما انطلقت، وإن بدأت فستكون ضعيفة؛ لهذا فإنه يُحسب للمقاومين الفلسطينيين، أن تأخر انطلاقتهم لم يؤثر كثيراً في «مشروعهم المقاوم» وواصلوا مقاومتهم للاحتلال الإسرائيلي.

٤ ـ المقاومة الفييتنامية

في سياق الحديث عن سرعة انطلاق المقاومة العراقية، التي بدأت في اليوم الأول من احتلال العراق، وجدنا أن تجربة المقاومة الفييتنامية جديرة بالاهتمام والدراسة؛

(١٧) المصدر نفسه.

إلا أن هناك خصوصية واضحة في التجربة الفييتنامية، نظراً إلى تداخل الاحتلالات في تاريخ هذا البلد، التي تمتد إلى الاحتلال الفرنسي، الذي يعود تاريخه لعدة عقود.

تذكر **موسوعة الحرب الفييتنامية**[١٨] أن الفرنسيين سيطروا على فييتنام، منذ أواخر القرن التاسع عشر؛ وتعرضت فييتنام لغزوات كثيرة تمتد إلى ما قبل الميلاد، حيث سيطر الصينيون على منطقة فييتنام عام ١٠٠ قبل الميلاد وحتى القرن العاشر الميلادي، وفي ذلك الوقت تمكن الفييتناميون من تأسيس أول دولة فييتنامية لها استقلالها.

وتكالبت الدول على فييتنام طمعاً بثرواتها من الأرز الذي تتميز بزراعته، وثروتها السمكية، حتى أطلقوا وصفاً على الفييتناميين يقول «إنهم يصطادون السمك بشباك من الذهب» ويلخص هذا القول الكثير في موضوعة البحث عن استهداف فييتنام وتتابع الاحتلالات وغزوها المتواصل، من الدول المجاورة لها مثل اليابان والصين أو البعيدة مثل فرنسا، وبعد ذلك الولايات المتحدة.

وأعتقد أن كثرة الاحتلالات قد أعطت نمطاً سلوكياً متوارثاً جعل النفس البشرية الفييتنامية تتنافر مع الاحتلال، باعتباره جسماً غريباً لا يمكن قبوله أو التعايش معه بأي شكل من الأشكال. ونجد أن الفييتناميين لم يقبلوا في نهاية الأمر المشروع الذي تم بموجبه تقسيم بلدهم، بعد انتصارهم على الاحتلال الفرنسي في معركة ديان بيان فو الشهيرة عام ١٩٥٤، وهذا المشروع قسم فييتنام إلى دولتين جنوبية وشمالية حسب اتفاق جنيف عام ١٩٥٤، الذي لم يلقَ قبولاً من القوى الفييتنامية الوطنية، ووجدت فيه إبقاء متعمداً على مشروع الاحتلال واستمراره، وقد تواصل الاحتلال الفرنسي لفييتنام حتى الحرب العالمية الثانية عندما احتلتها اليابان.

وبعد خسارة اليابان في الحرب الثانية عام ١٩٤٥، عادت فرنسا إلى احتلال فييتنام، واستمر ذلك حتى تم الحسم العسكري عام ١٩٥٤ في معركة ديان بيان فو التي انهزم فيها الفرنسيون، وقرر الفييتناميون إفشال التقسيم، حيث قاد الـ «فييت منه» تمرداً في الجنوب عام ١٩٥٧ ضد الحكومة، بهدف توحيد البلاد، ومعروف أن هذا الهدف لا يمكن أن يتحقق من دون المقاومة المسلحة. وكان الزعيم الفييتنامي الشهير «هو شي منه» قد أسس عام ١٩٤١ حركة الـ «فييت منه» لمقاومة الاستعمارين الفرنسي والياباني،

---

(١٨) انظر: «سقوط فييتنام في أيدي الفرنسيين،» في: **موسوعة الحرب الفييتنامية**، منشورة على موقع «مقاتل من الصحراء» الإلكتروني: <http://www.moqatel.com/openshare/Behoth/Siasia2/fetnam-enc/index.htm>. وتتضمن الموسوعة جميع تفاصيل الحرب في فييتنام حتى تحريرها عام ١٩٧٥.

إلا أن تأسيس هيكل قيادة موحدة لم يتم إلا في حزيران/ يونيو عام ١٩٥٨. وتم الإعلان عن تأسيس جبهة التحرير الوطنية عام ١٩٦٠، ومنذ أن تولت هذه الجبهة رسمياً قيادة الكفاح الوطني لفييتنام الجنوبية بدأ الفعل المقاوم في فييتنام، وتأخر الشروع بهذا العمل ما يقرب الست سنوات، وبدأت أولى الهجمات على معسكرات جيش فييتنام الجنوبية في محافظتي فوك تانة ودارلاك، ما اضطر الأمريكيين إلى وضع خطط مضادة لحرب العصابات، وأطلقوا عليها «استراتيجية الحرب الخاصة» التي وضع أسسها الفريق الأول ماكسويل تايلور (Maxwell D. Taylor) رئيس أركان الجيش الأمريكي، بعد أن وصل إلى سايغون منتصف عام ١٩٦١.

إن الخبرات الكثيرة التي اكتسبها الشعب الفييتنامي عبر عشرات السنين في ممارسة المقاومة، وتداخل الأجيال التي عملت في صفوف مقاومة الاحتلال الفرنسي، الذي انتهى في معركة ديان بيان فو الشهيرة عام ١٩٥٤، لم تنتج مقاومة مباشرة كما حصل في تجربة المقاومة العراقية موضوع بحثنا. وتمكنت المقاومة الفييتنامية من تحقيق كامل أهدافها بهزيمتها القوات الأمريكية في نيسان/ أبريل العام ١٩٧٥. وما زال العالم يتذكر مشاهد هزيمة آخر الجنود الأمريكيين من على سطح السفارة الأمريكية في سايغون، التي تؤرخ لنهاية القوة الأمريكية وهزيمتها أمام المقاومين الفييتناميين؛ ولم يتمكن قائد المقاومة الفييتنامية هو شي منه[١٩] من إعلان بيان الانتصار، إذ توفي عام ١٩٦٩، وواصل أتباعه المقاومة ضد الأمريكيين.

ثانياً: الظرف الدولي

تؤثر الظروف الدولية بصورة كبيرة في مسار أي مقاومة، باعتبار أن حصول الفعل المقاوم ينتج من حصول احتلال لأرض محدودة المساحة، أو لدولة، ما يعني حصول اضطراب قد يرقى إلى مستوى القلق الشديد في المنظومة الإقليمية أو الدولية. هذا الواقع الذي تنشأ وتتطور فيه جميع أنواع وأشكال المقاومة يتحدث عنه التاريخ.

وإذ نشأت جميع المقاومات تحت وازع الرفض الفطري للاحتلال باعتباره جريمة بشعة لا ترضاها النفس البشرية، وترفضها جميع الفلسفات الإصلاحية، وتقف بمواجهتها القيم والأعراف، فإن انطلاق المقاومة يحتاج إلى عنصر هام، يتمثل بالثقة

(١٩) هو شي منه (Hồ Chí Minh) الزعيم الفييتنامي الذي قاد مقاتلي الفيتكونغ ضدّ القوات الأمريكية لتحرير فييتنام.

بتحقيق أهدافها، وهنا يدخل العامل الإقليمي أو الدولي أو كلاهما، ويكون العمل على ثنائية حاجة المقاومة إلى الدعم، مقابل تحقيق أهداف الطرف أو الأطراف الإقليمية والدولية، التي تسير في مسار أهداف المقاومة نفسه. من هذا المنطلق دعمت بريطانيا ديغول ضد الاحتلال الألماني لفرنسا في بداية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٠، وقدم الاتحاد السوفياتي ودول كثيرة أخرى الدعم الواسع والمطلق للمقاومة الفييتنامية ضد الاحتلال الأمريكي، ووقفت البلدان العربية وفي طليعتها مصر إلى جانب المقاومين الجزائريين لتحرير بلادهم من الاحتلال الفرنسي، وحصلت المقاومة الفلسطينية على دعم واسع وكبير من البلدان العربية ومن بلدان كثيرة أخرى، حيث ازداد الدعم الأمريكي والغربي لإسرائيل لتثبيت احتلالها للأراضي الفلسطينية.

ولسبب موضوعي، فإن المقاومة العراقية، لم تعمل وسط ظرف دولي يسهم في دعمها وتقويتها والحرص على توفير المستلزمات الضرورية لاستمرارها وتحقيق أهدافها؛ ولا يخفى على الجميع، أن الظرف الدولي الذي تم فيه احتلال العراق، لا يسمح بأي شكل من الأشكال لدعم المقاومة العراقية، بعد أن اختتمت الحرب الباردة آخر جولاتها مطلع تسعينيات القرن العشرين، وتفردت الإدارة الأمريكية بالسيطرة على القرارات الدولية، بعد أن تمكنت من جعل العالم بأسره يعيش القطبية الواحدة، التي يمسك بجميع عناصر قوتها البيت الأبيض، ولم يعد بإمكان أي دولة أو قوة إقليمية الوقوف بوجهها، وهذه المسألة تفرض حضورها على جميع الباحثين والمتخصصين في تناول الشأن العراقي، وبخاصة ما يرتبط بنشوء المقاومة وتطورها.

ولا يمكن إغفال هذه الحقيقة، لأنها تدخل في صلب العامل الأهم، الذي يفترض وجوده لاستمرار المقاومة أو تراجعها وانطفائها وحتى التفكير بإطلاقها، إن لم تبق تلك المقاومة حبيسة الأذهان والمشاعر والأفكار، وقد لا يُسمح بخروجها على الإطلاق. ولا شك في أن شرط وجود تناحر دولي أو إقليمي، من أولويات حصول دعم المقاومة، وهذا الأمر لا ينطبق على الظروف التي انطلقت فيها المقاومة العراقية، إذ كان العام ٢٠٠٣ (عام الغزو الأمريكي للعراق) من غير المسموح به خروج أي دولة عن «طاعة الولايات المتحدة». وهذا أحد السياقات المعلنة للحرب على العراق، إذ أعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش بصراحة ووضوح، أن الذي لا يقف مع الولايات المتحدة فهو ضدها، أي أن الجميع في خندق واحد، وهو الخندق الذي تقوده الإدارة الأمريكية.

ونظراً إلى الأهمية القصوى لـ «الظرف الدولي» في دعم المقاومة واستمرارها، سنأتي على أهم ملامح الدعم الذي حظيت به المقاومة في كل من فرنسا، فييتنام،

فلسطين والجزائر. وهو ما يوضح أهمية هذا العنصر وضرورة توافره، إن لم يكن غيابه يعني شبه استحالة نشوء مقاومة، وإن ظهرت فإن مصيرها الذبول والخواء إن لم يكن التلاشي، وإن حاولت تطوير أدواتها فلا طريق للتواصل والاستمرار أمامها. ولو كانت المقاومة الفييتنامية بلا دعم كبير وواسع بالمال والسلاح من قبل الاتحاد السوفياتي (وهو القطب الثاني) في الصراع الدولي؛ والصين (وهي من الدول الكبرى)؛ ومنظومة عدم الانحياز التي تضم الكثير من الدول، لما تمكنت من المطاولة حتى تحقيق أهدافها. تنبه الفييتناميون في وقت مبكر إلى عنصر الدعم الخارجي باعتباره الأساس للانطلاق والعصب الرئيسي للتطور والاستمرار، وبهذا الصدد أعلن الزعيم الفييتنامي هو شي منه قبول المعونة الخارجية غير المشروطة من أي جهة كانت[٢٠]، وكان هذا الإعلان بمنزلة منهاج عمل واضح المعالم، يتضمن برقية لأعدائه، يؤكد فيها وجود قوى وأطراف مستعدة للدعم، كما أن ثمة رسالة للمقاومين أنفسهم، تقول لهم إن قضيتكم عادلة وإن هناك في العالم من يقف معكم ويقدم لكم الدعم، ويتضمن ذلك من بين ما يتضمن دعماً معنوياً كبيراً للمقاومين وللحاضنة الشعبية لهم، على طريق زيادة إيمانهم بالإصرار والتصميم حتى بلوغ أهدافهم المعلنة.

عندما بدأت المقاومة الفييتنامية، كانت المنظومة الدولية منقسمة إلى شرقية اشتراكية بزعامة الاتحاد السوفياتي، وغربية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية. ولإعطاء تصور دقيق عن أهمية الدعم الذي حصلت عليه المقاومة الفييتنامية، نعود إلى تصريح الرئيس الأمريكي الأسبق، ريتشارد نيكسون، الذي وضع دعم السوفيات في مقدمة عوامل انتصار المقاومة الفييتنامية، بسبب إمدادات السلاح والتجهيزات، التي أرسلوها إلى هانوي، وترددهم في إرغام الفييتناميين على احترام اتفاقية باريس، كما قال نيكسون (الإشارة هنا إلى اتفاقية عام ١٩٥٤، التي تم خلالها تقسيم فييتنام إلى جنوبية وشمالية بعد معركة بيان ديان فو التي انتصرت فيها المقاومة الفييتنامية على الاحتلال الفرنسي). وأكد نيكسون، أن المساعدات السوفياتية، وفرت للقوات الفييتنامية التفوق في مجالي الدبابات والمدفعية، حتى إن الفييتناميين حشدوا العام ١٩٧٤، أكثر من ٥٠٠ دبابة و٢٤ كتيبة مضادات، لمساندة ١٨٥ ألف جندي.

عند الخوض في تفاصيل أنواع الدعم العسكري والمالي، الذي حصل عليه المقاومون الفييتناميون، منذ بداية ستينيات القرن العشرين، حتى انتصارهم في نيسان/

(٢٠) انظر: موسوعة الحرب الفييتنامية.

أبريل ١٩٧٥، وهروب القوات الأمريكية، نجد أن المقاومين قد امتلكوا إمكانات دولة قوية، ولا شك في أن طبيعة الصراع الدولي حينئذ بين المعسكرين الاشتراكي (الاتحاد السوفياتي) الذي سعى إلى نشر الشيوعية في العالم، ووقوف المنظومة الغربية (الولايات المتحدة وحلفاؤها) بوجه هذا المشروع، ساهم بقوة في إتاحة الفرصة للمقاومة الفييتنامية للحصول على مختلف أنواع الدعم. وفي ما يتعلق بالتجربة الفييتنامية، فقد كان في واقع الحال صراع قوتين كبيرتين على أرض فييتنام، وبقدر ما تحتاج هذه القوى إلى من يعمل في الميدان لمصلحتها، فإن المقاومين الفييتناميين، وجدوا الفرصة السانحة للاستفادة من التنازع في المنظومة الدولية لتحقيق أهداف المقاومة، ووفر ذلك الصراع فرصة ذهبية للمقاومة للقتال بإمكانات دول كبرى، تمتلك أحدث أنواع الأسلحة. ولولا الدعم الدولي من الاتحاد السوفياتي والصين وغيرها للمقاومة الفييتنامية لتصورنا، ما هو المصير الذي ستؤول إليه تلك المقاومة، وما حجم الصعاب والمشاكل الكبيرة التي تواجهه على الأرض الفييتنامية.

أما في التجربة الجزائرية، فتتجلى قضية الدعم بصورة كبيرة، حيث باشرت الحكومة المصرية بزعامة جمال عبد الناصر تبنّي المقاومة الجزائرية، وبدأت عمليات تهريب الأسلحة وإرسال الأموال عبر الصحراء على أوسع نطاق؛ ولم يقتصر الأمر على مصر وحدها، بل حصلت المقاومة الجزائرية على دعم واسع، إذ يقول الزعيم الجزائري أحمد بن بيلّا بهذا الخصوص «جميع الدول العربية أمدّتنا منذ البداية بمساعدات عظيمة»[٢١].

ويكشف الزعيم الجزائري في مذكراته العديد من أوجه الدعم التي حصل عليها المقاومون الجزائريون، ويقول «عندما التقيت الرئيس جمال عبد الناصر للمرة الأولى سألني: ما حاجتكم، فقلت له حاجتنا الماسة للسلاح، فقال لي: والمال، قلت له أنا لا أريد مالاً». ويقول بن بيلا إنه كان يعيش وقتها في فندق بسيط (بانسيون)، وحصلت المقاومة الجزائرية على السلاح، وبدأت عملية نقل الأسلحة قبل الإعلان عن الثورة في الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٥٤. ففي شباط/ فبراير من ذلك العام، تم نقل شحنة سلاح في مركب (فخر البحار) ووصلت الأسلحة من مصر إلى ليبيا عبر البحر ومن الأراضي الليبية تم تهريبها إلى الجزائر عبر الصحراء، ويذكر قادة الثورة الجزائرية أن ترتيبات الحصول على الأسلحة ونقلها قد بدأت قبل عام ١٩٥٤، حيث تم وضع

(٢١) انظر مذكرات الزعيم الجزائري أحمد بن بيلّا، في: أحمد منصور، **الرئيس أحمد بن بيلا.. يكشف عن أسرار ثورة الجزائر**، كتاب الجزيرة ـ شاهد على العصر (بيروت: الدار العربية للعلوم ـ ناشرون، ٢٠٠٧)، ص ٩٨.

الخطط الكفيلة بالحصول على السلاح ومن ثم كيفية وصوله إلى المقاومين في مناطق الجزائر. ويقول بن بيلّا «بينما كانت الثورة تنمو، كنت مع أصدقائي في الخارج، أنظم دعم العمليات بالسلاح، فكانت مهمتي الحصول على أسلحة أكثر جدية من الأقطار العربية وإدخالها إلى الجزائر»[٢٢]. ومن القصص المعروفة التي تحدثت عن نقل الأسلحة من مصر إلى الجزائر، قصة اليخت الملكي (دينا)، الذي استخدم في نقل شحنة ضخمة من السلاح في شباط/ فبراير عام ١٩٥٥، ويقول بن بيلّا: «بعد عملية اليخت (دينا) تمت عمليتان أكثر أهمية بكثير، إحداهما نفذتها سفينة حربية مصرية، إذ لم يعد الأمر يتعلق ببنادق «موسكو تون» بل بالبنادق الرشاشة والرشاشات ومدافع الهاون، والبازوكا وقذائف اليد الدفاعية، وكميات كبيرة من الذخيرة الحربية، وأسلحة من صنع ألماني وإنكليزي، وأن هذه الأسلحة كانت معظمها جديدة وعصرية ومتقنة»[٢٣].

وتأكدت السلطات الفرنسية من تدفق السلاح إلى المقاومين الجزائريين، واتخذت إجراءات عديدة بهدف منع وصول السلاح أو الحد من تهريبه إلى داخل الجزائر؛ من بين تلك الإجراءات تسيير الدوريات على الحدود ووضع الأسلاك الشائكة والعمل على زيادة «عيون» الاحتلال الفرنسي بين الفلاحين وفي المدن، وكانت مثل هذه الأمور يتم إسنادها إلى «الحركيين» وهو الاسم الذي يُطلق على الجزائريين الذين عملوا مع قوات الاحتلال الفرنسي، وكان بينهم كبار الضباط والمسؤولين محليين، وصفهم الفرنسيون بـ «العملاء والجواسيس» وهرب أغلبيتهم بعد تحرير الجزائر واستقلالها، وما زال أحفادهم يعيشون داخل أحياء في فرنسا، ويطلق على هؤلاء أحفاد «الخونة والجواسيس»، ويقدر عددهم في ذلك الوقت بأكثر من ٢٠٠ ألف شخص، وفي يوم استقلال الجزائر، قال بحق هؤلاء الجزائريين الذين خانوا وطنهم وقضية شعبهم، وقدموا خدماتهم للمحتل الغازي، الرئيس الفرنسي شارل ديغول كلمة بليغة ما زال الجزائريون الأحرار يرددونها، إذ وصف الحركيين بـ «لعبة التاريخ، إنهم مجرد لعبة» هذا ما قاله ديغول يوم استقلال الجزائر في الخامس من تموز/ يوليو عام ١٩٦٢، وكان دور هؤلاء سيئ وخطير ضد رجال المقاومة الجزائريين، إلا أن ذلك لم يوقف استمرار نقل السلاح إلى مدن الجزائر، حيث تواصلت المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي.

لا شك في أن الظرف الدولي في ذلك الوقت، ووجود أكثر من قطب في منظومة السياسة الدولية مطلع خمسينيات القرن العشرين، وارتفاع وتيرة الصراع

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٩٨.
(٢٣) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

العربي ـ الإسرائيلي، إضافة إلى المد القومي ـ العروبي وتزعم جمال عبد الناصر له، كل ذلك ساهم في فتح نوافذ الدعم الواسعة للمقاومة الجزائرية؛ كما أنه، لم تمضِ إلا عدة سنوات على انتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥)، وفي منتصف خمسينيات القرن العشرين بدأت تتشكل ملامح القطبين الشرقي والغربي، وواحد من أهم مراكز الصراع هو المنطقة العربية، حيث الدعم الأمريكي والغربي لإسرائيل، والحرص السوفياتي على توغل الفكر الشيوعي في المنطقة، وبالطبع لن يتم ذلك إلا بدعم سوفياتي للقضايا العربية، وكانت قضية الجزائر محط الأنظار، حيث الاحتلال الفرنسي تواصل لعشرات السنين على أرض وشعب الجزائر، وساهم ذلك في ترسيخ القناعات بضرورة تدفق السلاح والأموال إلى المقاومين في ميدان الحرب ضد الفرنسيين، وتقديم الدعم إلى عوائل المقاومين الجزائريين، الذين يسقطون قتلى أو جرحى، أو الذين يتم أسرهم من قبل القوات الفرنسية، ونعتقد بأن مشروع دعم «عوائل المقاومة» في كل مكان وزمان، يعد من أهم عوامل توسيع قاعدة المشاركة في المقاومة، من قبل الرجال وانخراطهم في صفوفها، بعد أن يطمئن هؤلاء على أحوال عوائلهم، وأوضاعهم في حال تعرضوا للقتل أو الإصابة وربما الأسر. ولا تغيب هذه العناوين عن أذهان المقاومين، لأنهم في حرب شرسة وواسعة ومفتوحة على جميع الاحتمالات، وهنا لا بد من القول، إن هذا ما كانت تفتقر إليه المقاومة العراقية، لعدم وجود الدعم المالي العربي أو الدولي، على الأقل ـ لتأمين الجوانب الضرورية لعوائل القتلى والمعاقين والمعتقلين من رجال المقاومة.

حصلت المقاومة الفلسطينية على دعم واسع، قبل وبعد تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية في ٢٤ أيار/ مايو ١٩٦٤، فأغلبية المواطنين في البلدان العربية هبّوا للتبرع بالأموال للمقاومة الفلسطينية، وقبل ذلك قدمت الحكومات العربية الكثير من الدعم وفي مختلف الميادين. وعلى الصعيد العسكري، فإن دمشق وبغداد والقاهرة والأردن، فتحت الدورات التدريبية لتأهيل المقاومين الفلسطينيين، وإعدادهم عسكرياً لشن هجمات قتالية متقنة ضد الإسرائيليين، ونشأت المقاومة الفلسطينية في ظرف إقليمي ودولي يسهم في توفير الدعم الواسع للمقاومة الفلسطينية.

وبما أن هناك دعماً هائلاً وواسعاً لإسرائيل من قبل الدول الغربية والولايات المتحدة، فإن ذلك يحفز القطاعين الشعبي والرسمي في البلدان العربية لتقديم الدعم إلى المقاومة الفلسطينية، حتى أصبحت قضية فلسطين الأولى في جميع البرامج السياسية العربية. كما استفادت المقاومة الفلسطينية من الحرب الباردة والصراع

الأمريكي ـ السوفياتي، ومحاولات كل من الطرفين الاستحواذ على منطقة الشرق الأوسط وهزيمة خصمه في صراع واسع وقوي. وكانت الثنائية الدولية وطبيعة الصراع العربي ـ الإسرائيلي من أهم العوامل الإيجابية لمصلحة مشروع المقاومة الفلسطينية، الذي تحول إلى برنامج دعم واسع وكبير.

أعتقد أننا لسنا بحاجة إلى ذكر الكثير من التفاصيل على هذا الصعيد، فالمقاومة الفلسطينية قد أفادت كثيراً من الظرف الدولي القائم حينئذ، بعد أن أعلنت الولايات المتحدة والغرب الدعم الكامل والمطلق لإسرائيل، التي احتلت الأراضي الفلسطينية وأعلنت قيام دولتها في ١٥/ ٥/ ١٩٤٨، وأن هذا الدعم شمل جميع المناحي. ورغم أن انطلاق المقاومة الفلسطينية قد تأخر كثيراً، إلا أنه لم يعد بإمكان الحكومات العربية التزام الصمت إزاء احتلال فلسطين وتدفق الدعم الغربي الذي تحصل عليه إسرائيل.

ولم يأتِ الدعم الذي حظيت به المقاومة الفرنسية من فراغ، بل كان أولاً وأخيراً نتيجة للظرف الدولي، الذي كان مهيمناً حينذاك؛ فبقدر حاجة ديغول للدعم البريطاني ورئيس الوزراء تشرشل، فقد كانت بريطانيا بحاجة ماسة إلى دعم المقاومة الفرنسية، بسبب الحرب الدائرة بين المحور والحلفاء، فكانت القوة الفرنسية المقاومة إحدى أدوات إعاقة تقدم الجيش الألماني وزحفه للسيطرة على مناطق شاسعة في أوروبا، وذلك يؤثر سلباً في بريطانيا، فلم يتردد البريطانيون في رفد المقاومة الفرنسية بمختلف أنواع الدعم والإسناد. واستثمر الفرنسيون بقيادة الجنرال ديغول الصراع الدائر خلال اشتداد المعارك في الحرب العالمية الثانية، وشكلوا المقاومة الفرنسية، التي اتخذت قياداتها من الأراضي البريطانية مقراً لها، في إدارة المقاومة، والتخطيط للهجمات وتنسيق العمل بين جميع المنظمات المنضوية تحت لواء المقاومة بقيادة ديغول.

إن أي مقارنة بسيطة بين الدعم الذي حصلت عليه المقاومة الفرنسية، قياساً على أوضاع المقاومة العراقية، يجد المرء بكل سهولة، أنه لا مجال للمقارنة على الإطلاق، فمنذ أن غادر الزعيم الفرنسي شارل ديغول إلى لندن، مستفيداً من الظرف الدولي الذي كان قائماً آنذاك، ومن الصراع العنيف والشرس بين دول المحور، التي تزعمتها ألمانيا بقيادة أدولف هتلر ودول الحلفاء (بريطانيا والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة)، بدأ الدعم البريطاني على أوسع ما يكون للمقاومة الفرنسية، وأن هذا الدعم ناجم عن حاجة بريطانيا إلى قوة موجودة على الأرض في فرنسا، تعمل على وقف الزحف الألماني، ومن ثم إفشال مشروع هتلر الذي لم يستثنِ بريطانيا، وبهذا فإن المقاومة الفرنسية انطلقت في ظرف دولي برزت فيه الثنائية القطبية.

ورغم التنافر المعروف بين فرنسا وبريطانيا، إلا أن الأخيرة سارعت إلى احتضان زعامات المقاومة الفرنسية خلال الحرب العالمية الثانية متمثلة بالجنرال شارل ديغول، ووضع الطرفان الخلافات الثقافية القائمة بينهما جانباً، ووجدا مصلحة مشتركة في توحيد الجهود للوقوف بوجه المشروع الألماني، ولم يهتم البريطانيون بما تتضمنه بعض صفحات التاريخ، في ذلك الظرف الصعب، وتناسوا تماماً وقوف فرنسا في يوم ما ضدهم إلى جانب الأمريكيين، رغم أن ذلك الموقف لا يمكن تجاهله من قبل البريطانيين، ويرتبط بمشاريع الإمبراطورية المعروفة في العالم الجديد، أي القارة الأمريكية في بداية اكتشافها والصراعات والحروب التي وقعت على أراضيها. وقد ساعد الفرنسيون الأمريكيين ضد البريطانيين إبان الحرب، التي كانت دائرة في القرن الثامن عشر، إذ عقد الكونغرس الأمريكي اتفاقاً مع فرنسا، تم بموجبه دعم الثورة الأمريكية بكل الوسائل المتاحة، من المعدات والسلاح الفرنسي، حتى إن الشباب الفرنسي بدأ يتطوع بأعداد كبيرة، مقدماً خدماته للأمريكيين، وانتصر الأمريكيون على البريطانيين في بلدة سراتوغا الأمريكية، وأفضى هذا الانتصار إلى عقد معاهدة جديدة بين الأمريكيين وفرنسا وذلك بتاريخ ٦/ ٢/ ١٧٧٨، وبدأت الأساطيل الفرنسية مهاجمة الجيش الإنكليزي ملحقة به الكثير من الخسائر.

نظراً إلى الحاجة الآنية وطبيعة الصراع الحاصل في ذلك الوقت، ولوجود مصالح مشتركة، طبق البريطانيون مقولة تشرشل الشهيرة، أنه ليس هناك صداقات دائمة، بل هناك مصالح مشتركة، وأن الظرف الدولي الذي صاحب الحرب العالمية الثانية فرض على البريطانيين الاستفادة من أي قوة للوقوف بوجه الزحف الألماني. ونظراً إلى الأهمية الكبيرة لفرنسا من حيث الإمكانات والموقع الجغرافي، فقد كان توجه لندن لدعم المقاومة الفرنسية، من الأولويات التي فرضتها الظروف حينئذ والحاجة الماسة إليها، ومن المعروف أن أي ظرف دولي أو إقليمي مشابه لذلك الظرف، لم يكن له أي وجود خلال الاستعداد الأمريكي ـ البريطاني لغزو العراق ربيع عام ٢٠٠٣.

إن دراسة الظرف الدولي تُعد من النقاط الجوهرية، المتعلقة بنشوء أي مقاومة، ومن ثم تطورها وانطلاقها، وإذا اعتمدنا أي معيار موضوعي، وطبقناه على الدور الذي لعبه الظرف الدولي في التأثير في المقاومة العراقية ونشوئها، تبرز أمامنا تجربة نادرة في تجارب المقاومة في العالم، إذ لم تسمح الظروف الدولية والإقليمية بأي دعم للمقاومة العراقية، ولم يكن هناك أي وجود لقوة عظمى أو حتى قوة متوسطة قادرة على الوقوف في وجه العصا الأمريكية الغليظة، وانعكس ذلك بوضوح على قضية الدعم

الذي حصلت عليه جميع المقاومات التي تناولناها في هذه الدراسة أو غيرها، مستفيدة من التناحر والاختلاف ووجود أكثر من مشروع وقوى تتصادم في ما بينها، فقد تفردت الولايات المتحدة بالقرار الدولي والإقليمي منذ سنوات طويلة سبقت غزو العراق، ولم يكن بإمكان أي دولة أن تقدم دعماً للمقاومة العراقية، كما أن الرغبة الحقيقية، لم تتوافر لدعم المقاومين العراقيين، من أي دولة كانت، في ضوء تداخل الأوراق والمصالح والمشاريع، واختلاط الرؤى واستمرار الهيمنة الأمريكية.

يجدر هنا، تقديم توضيح مقتضب، حول موضوع الدعم الذي حُرمت منه المقاومة العراقية بصورة تامة، فبعد أن ازدادت ضربات المقاومين في العراق ضد القوات الأمريكية والبريطانية وقوات الاحتلال الأخرى، أخذت وسائل إعلام مختلفة، تردد حصول دعم بالأسلحة للمقاومة العراقية من بعض البلدان المجاورة، ولم يكن نفي ذلك بالمطلق صعباً، لأن السلاح الوحيد، الذي تفتقر إليه المقاومة العراقية، أو لنقل إنه كان محدوداً جداً هو سلاح مقاومة الطائرات المروحية وهي صواريخ ستريلا المحمولة على الكتف، ومعروف أن المروحيات من أقوى أسلحة القوات الأمريكية في العراق، لأنها توفر الحماية الجوية المتواصلة لأرتالها، وإذا ما حصل هجوم من قبل المقاومين في العراق، فإن التوزيع الجغرافي لأماكن المروحيات في العراق، يؤمن وصولها خلال دقائق قليلة لا يزيد أطولها على أربع دقائق، ما يقف حائلاً أمام تنفيذ هجمات كبرى، بما فيها الهجمات التي يسعى المقاومون من خلالها لأسر أفراد من القوات الأمريكية، بسبب التضاريس المنبسطة في العراق، وصعوبة الاختباء خلال دقائق.

وقد طالب محللون وباحثون مهتمون بشؤون المقاومة العراقية الدول التي قيل إنها تقدم الأسلحة للمقاومين في العراق، بإرسال ٥٠ قذيفة ستريلا، وهو السلاح الذي يحمل على الكتف ومتخصص بإسقاط المروحيات، وقال المتخصصون في شؤون المقاومة العراقية عبر الفضائيات وفي وسائل الإعلام المختلفة، إن وجود هذا العدد من السلاح كفيل بالسيطرة على قواعد أمريكية بالكامل، وبخاصة مع الانهيار النفسي الذي عاشه الجيش الأمريكي عامي ٢٠٠٥ و٢٠٠٦ وما بعدها؛ إذ لمجرد أن يطمئن المقاومون لعدم وجود سلاح المروحيات، فإن اقتحام قاعدة أمريكية أو أكثر، لا يحتاج إلا للمئات من المقاتلين من حملة سلاح مقاومة الطائرات وعشرات الصواريخ وقذائف الهاون التي تستهدف القاعدة الأمريكية، وتحديداً بين ١٥٠ إلى – ٢٠٠ مقاوم، ولن يستغرق ذلك سوى دقائق معدودة لفرض السيطرة الكاملة على أي قاعدة عسكرية أمريكية خارج العاصمة، ويتم بعد ذلك احتجاز أعداد كبيرة من الجنود والضباط الأمريكيين، مع إمكان

توفير تغطية إعلامية لمثل هذه الهجمات. إلا أن حكومة واحدة ـ للأسف ـ لم تتحرك لتقديم صواريخ الستريلا للمقاومين، ورغم ذلك فقد تمكن المقاومون العراقيون من تطوير أنواع من الصواريخ المحمولة على الكتف، وأسقطوا عدداً من السمتيات. غير أن توفير الأعداد المطلوبة لتنفيذ هجمات كبيرة ومتكاملة لم يكن بالأمر الهيّن كما يبدو، وإلا لتم تنفيذ هجمات من العيار الثقيل جداً ضد القواعد العسكرية الأمريكية والبريطانية على وجه التحديد.

من هنا، نقف أمام عامل رئيسي في دفع أي مقاومة للانطلاق والاستمرار، وهو ما حصل في مختلف تجارب المقاومة في العالم، ويتجلى ذلك بوضوح في تاريخ المقاومات (الجزائرية، الفرنسية، الفييتنامية والفلسطينية).

إن الظرف الدولي والثنائية التي لازمت تجارب المقاومة في العالم غابت تماماً خلال الاحتلال الأمريكي للعراق، ووقف الظرف الدولي بالضد تماماً من المقاومة العراقية، ما حرمها دعماً خارجياً يسهم في دعمها بالميدان ويعجّل بتحقيق أهدافها وبلوغ التحرير الكامل، وخير مثال على أهمية الخصومات والصراعات الدولية في دعم تجارب المقاومة هو ما افتقدته المقاومة في العراق.

ثالثاً: عامل الإعلام

حظيت المقاومة في جميع التجارب التي تناولناها في هذه الدراسة بدعم إعلامي واسع وكبير، نظراً إلى أهمية الإعلام ودوره وتأثيره في الرأي العام، وعندما نقارن الدعم والإسناد الإعلامي في تجارب المقاومة، ونقيس ذلك بالظرف الذي نشأت فيه المقاومة العراقية، لا نجد وجهاً للمقارنة على الإطلاق، ويجب أن لا يفوت الجميع الانتباه إلى أن غزو العراق واحتلاله قد تزامن مع أوسع انطلاقة يشهدها العالم في وسائل الإعلام من فضائيات وإذاعات وإنترنت، وفي الوقت الذي تستثمر الولايات المتحدة هذه الثورة الهائلة في عالم الاتصال الحديث لمصلحتها، وتوظفها للترويج لخطابها، فإن المقاومة العراقية وُضعت في الزوايا الخانقة، ولم تتوافر لها أدوات إعلامية تخاطب الرأي العام عن برامجها السياسية وعن نشاطاتها العسكرية، إضافة إلى ممارسة تعبئة للرأي العام لتحصل على المزيد من المتطوعين الراغبين في الانضمام إلى فصائل المقاومة.

وفي إجابتي عن سؤال طرحه مذيع إذاعة الـ«بي بي سي» خلال ندوة كنت أحد المشاركين فيها، وسألني عن تأثير غياب إعلام المقاومة العراقية في نشاطاتها، وكيف لها

الاستمرار في مثل هذا التضييق على خطابها، وعدم قدرتها على التواصل مع الآخرين، أجبت حينذاك، أن المقاومين يعرفون إنجازاتهم اليومية، وهم يعلمون أن عدوهم يعرف حجم الخسائر الذي تتكبده قواتهم يومياً على أيدي المقاومين في العراق. أضفت أن المقاومين لا ينتظرون بث هجماتهم من خلال الفضائيات ووسائل الإعلام الأخرى، لأن أغلبيتهم يتحركون في القرى والأرياف، ولا يتوافر لدى الأكثرية من العراقيين التيار الكهربائي، الذي يتيح لهم فرصة متابعة الإعلام المرئي.

لكن من دون شك، إن نقل الفعل المقاوم المتمثل بآلاف الهجمات التي شنها المقاومون العراقيون ضد القوات الأمريكية والبريطانية والقوات المشاركة معها في الاحتلال، له تأثيره البالغ في الرأي العام العراقي والعربي والدولي، كما أنه يؤثر بقوة بالرأي العام الأمريكي والبريطاني، حيث جرى تعتيم شديد ومتعمد على نشاط المقاومة العراقية.

أما في تجارب المقاومة الفرنسية والفييتنامية والجزائرية والفلسطينية، فإن عامل الإعلام أدى دوراً هاماً وفاعلاً في ديمومة المقاومة ووصول خطابها إلى جماهيرها وأعدائها في آن معاً، فنجد رئيس الوزراء ونستون تشرشل يأمر بوضع إذاعة الـ «بي بي سي» الشهيرة في خدمة الجنرال ديغول قائد المقاومة الفرنسية، الذي يقول «لقد تنبهتُ إلى أهمية وسيلة المذياع على اعتبار أنه أسرع وأدق الوسائل الموصلة لندائي لتبليغ أكبر عدد ممكن من أبناء شعب فرنسا وغيرهم، وكانت الإذاعة هي الهدف»، ومن المعلوم، أنه في بداية أربعينيات القرن العشرين، لم يكن البث الفضائي للتلفزيون متوافراً حينذاك، وكانت الإذاعات تتسيّد الإعلام، وبخاصة الخارجي منه. ويشير ديغول إلى أنه أثناء لقائه برئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل قد أوضح له ما يدور في ذهنه بخصوص الإذاعة وأهميتها في التواصل مع الفرنسيين في الداخل والخارج، فوافق فوراً على ذلك، وأمر تشرشل بأن تكون إذاعة (بي بي سي) تحت تصرفي[٢٤].

وعندما قبلت فرنسا بشروط الهدنة مع الألمان توجه شارل ديغول إلى دار الإذاعة الـ «بي بي سي» يوم ١٩/ ٦/ ١٩٤٠، وألقى من هناك بيان الثورة الأول، الذي تمكن من سماعه الكثير من الفرنسيين، وكان بمنزلة الشرارة الأولى في الإعلان عن رفض الهدنة

(٢٤) أمَرَ رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل بوضع إذاعة الـ «بي بي سي» في خدمة خُطب وبيانات وتصريحات قائد فرنسا الحرّة شارل ديغول. انظر: ديغول، **مذكرات الجنرال ديغول: نداء الشرف، ١٩٤٠ ـ ١٩٤٢**، ص ٥٨.

بين الألمان والفرنسيين. ويقول ديغول، إنه كان لدى فرنسا الحرة إذاعة خاصة بها، ومكتب للمعلومات، ومركز للصحافة، وإن هذه المؤسسات تعمل بشكل يتسم بالدقة والنظام، وكانت بيانات المقاومة الفرنسية وخطابات ديغول تذاع عبر إذاعات برازفيل ولندن وبيروت إضافة إلى نشرها في الصحف السرية، التي يتم توزيعها في العديد من المناطق الفرنسية.

ومن دون شك، فإن نقل وسائل الإعلام لمواقف ودعم الدول للمقاومة الفرنسية، قد أثر بقوة في انخراط الكثير من الشباب الفرنسي في صفوفها. على سبيل المثال، تنقل إذاعة الـ «بي بي سي» ووسائل الإعلام الأخرى الصيغة التي يخاطب فيها ونستون تشرشل قائد فرنسا الحرة ديغول بقوله «حضرة القائد الأول لأحرار فرنسا». ومن تلك المخاطبات رسالة تشرشل إلى ديغول التي أذاعتها الـ «بي بي سي» بتاريخ ٧ آب/ أغسطس ١٩٤٠، كما يخاطب متكساس رئيس وزراء اليونان الجنرال ديغول بالصفة ذاتها (القائد الأول لأحرار فرنسا). يضاف إلى ذلك الدعم الواسع واللامحدود الذي قدمته الصحافة البريطانية مثل **التايمز** و**الغارديان** وغيرهما لفرنسا الحرة بزعامة ديغول.

كذلك حظيت المقاومة الفلسطينية بدعم إعلامي واسع النطاق، فقد خصصت أغلبية الإذاعات في الوطن العربي برامج خاصة بالمقاومة الفلسطينية، تبث بياناتها وخطب القادة الفلسطينيين، وتقدم البرامج التي تحث الناس على التبرع للمقاومة ودعمها، كما أنشدَ الكثير من المطربين للقضية الفلسطينية، وواصلت الصحف في الوطن العربي نشر أخبار المقاومة الفلسطينية، وكتابة المقالات والدراسات التي تتحدث عن مشروعية المقاومة، وأنها العلاج الحقيقي للاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية، ويتشابه الدعم الإعلامي الذي حظيت به المقاومة الفلسطينية، مع ما حصلت عليه المقاومة الفييتنامية، وإن كان للفييتناميين حصة أوسع وأكبر، إذ تبنى قضية المقاومة الفييتنامية إعلام الاتحاد السوفياتي بصحفه وإذاعاته وتلفزيونه، ومثل ذلك الإعلام الصيني ومعه عدد كبير من دول العالم الثالث.

ومثلما حصلت المقاومة الفرنسية على دعم إعلامي واسع في وقت مبكر جداً، فإن المقاومة الجزائرية قد حظيت بمثل ذلك الدعم الإعلامي. يقول رابح بلعيد: «بدأت الثورة الجزائرية بنشر بيان في جريدة **صوت الشعب الجزائري** في عددها الأول كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٤»، تحت عنوان، الجزائر تكافح من أجل استقلالها، وبعد أقل من شهر على انطلاق المقاومة الجزائرية جاء الدعم السياسي والإعلامي للمقاومة على أوسع نطاق، وأعلن عبد الخالق حسونة الأمين العام لجامعة الدول العربية في ٢٥

تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٤ تعيين سفير فوق العادة للجامعة العربية هو الجزائري أحمد مزغنة.

لا شك في أن عامل الإعلام يتزاحم مع السلاح في مستوى الأهمية، وإذا أعطت الدول أهمية قصوى للإعلام في الحروب، فإن أولى أوجه الدعم الذي حظيت به المقاومات الفرنسية والفييتنامية والجزائرية والفلسطينية، هو الدعم الإعلامي والرعاية الواسعة على هذا الصعيد، ولم تطلق رصاصة واحدة في تجارب المقاومة المشار إليها، قبل إطلاق الفضاء الإعلامي لها. وهكذا فإن تجارب المقاومة تقول، إن الكلمة أولاً، وإن حرب الإعلام تحتل أولوية في سوح المعارك، إلا أننا نجد تفرداً آخر تميزت به المقاومة العراقية، فقد انطلقت من دون أن تحظى بدعم أو رعاية إعلامية. ففي الظرف الصعب والقاسي الذي نشأت وانطلقت فيه هذه المقاومة، وفي عصر العولمة، والأهمية الكبيرة للإعلام، لما له من تأثير بالغ في تهيئة الرأي العام والتعبئة، وشرح البرنامج السياسي للجهة التي اختارت المقاومة المسلحة، وقف الإعلام الدولي والعربي إلى جانب القوة الأمريكية ودعم مشروع التعتيم على هجمات المقاومين العراقيين.

وباعتماد الولايات المتحدة مبدأ «الصدمة والترويع» خلال الاستعداد لغزو العراق، فهي تكون قد استخدمت واحداً من أخطر الأسلحة الحديثة الفتاكة في الحرب، ويقر الكثير من الخبراء في ميدان الاتصال، بأن أمريكا قد حققت نصرها السريع بقوة الإعلام قبل قوة السلاح. والمعضلة أن الأمر لم يقتصر على وسائل الإعلام الأمريكية المعروفة فقط، بل إن الإدارة الأمريكية أسست راديو «سوا» لتحل مكان إذاعة «صوت أمريكا» التي انطلقت بعد الهجوم الياباني على بيرل هاربر عام ١٩٤١.

وتم توظيف الأغلبية العظمى من وسائل الإعلام العالمية العربية والعراقية لتعمل في خدمة الخطاب الأمريكي وتروّج له، ولم تكن هناك أي جهة أو وسيلة إعلامية تتبنى خطاب المقاومة العراقية. وتتأتى أهمية ذلك من الآتي:

١ ـ دور وسائل الإعلام في إبراز دور المقاومة في التصدي للمحتل، والكشف عن إرادة جمعية أو على شكل مجاميع مقاومة وقفت بالضد من مشروع الاحتلال، إذ ينحصر تأثير ذلك في إثارة الحماسة عند الآخرين، ودفعهم للانخراط في المقاومة، وهذا لم يحصل في العراق.

٢ ـ في تجربة فريدة ونادرة في المقاومة العراقية، التي انطلقت بفعل قتالي، قبل أن تكون هناك واجهات سياسية تعبّر عن مشروع المقاومة السياسي، فإن التضييق

على خطابها وإطلاق يد وسائل الإعلام المعادية لها، يؤثر ذلك بقوة في البيئة الشعبية الحاضنة للمقاومة، التي تحدث عن أهميتها الزعيم الصيني ماوتسي تونغ. وعلى الطرف الآخر، فإن توجهات المقاومة ومشروعها يبقى في غياهب المجهول.

٣ـ شنت وسائل الإعلام الأمريكية والعالمية والعربية والعراقية التي ظهرت في ظل الاحتلال حملات منظمة بقصد تشويه المقاومة العراقية، وتم توظيف فضائيات وإذاعات وصحف وعقول ومحللين وكتاب وصحفيين وفنيين بالآلاف لتنفيذ هذا الهجوم الإعلامي الواسع. وبذلك تكون المقاومة العراقية قد حُرمت الدعم الإعلامي نهائياً، خلاف ما حصلت عليه المقاومات في العالم، كما أنها تعرضت لعمليات إعلامية واسعة بقصد التأثير في روحية المقاومين وتضييق البيئة الحاضنة لهم.

ومن بين أكثر من ٢٢٠ ألف هجوم شنه المقاومون العراقيون ضد قوات الاحتلال، من بينها ما يزيد على ١٠٠ ألف هجوم موثق بالصوت والصورة، وتم إرسال أغلبيتها إلى وكالات الأنباء والفضائيات العربية والأجنبية، لم تُبث ما نسبته واحد من الألف من تلك الهجمات، وفي حال ظهرت صورة فديوية لهجمة ما ضمن سياق خبر أو تقرير أو برنامج سياسي، فإن ما يتم بثه تلفزيونياً من هجوم موثق وقته أكثر من دقيقتين، لا يتجاوز العشر ثوانٍ في أفضل الأحوال، وبينما بثت قناة «الجزيرة» نتفاً ضئيلة جداً من بعض الهجمات، فإن الفضائيات الأخرى وفي مقدمتها قناة «العربية» لم تبث أو تذكر لفظ المقاومة العراقية على الإطلاق، وهذه الحال تنطبق على الفضائيات الأخرى، في حين خصصت تلك الفضائيات والصحف والإذاعات العراقية والعربية والدولية مساحات واسعة من نشاطها الإعلامي اليومي لتشويه صورة المقاومة العراقية بمختلف الوسائل[٢٥].

رابعاً: التضاريس

أَولى منظّرو الحروب وزعماء المقاومة البارزون في العالم أهمية استثنائية لعامل التضاريس، لما له من أهمية وأثر بالغ في تحديد نتائج الكثير من المعارك الصغيرة والهجمات التي تشنها المجاميع المقاومة على العدو. ويوجّه الزعيم الصيني ماوتسي

(٢٥) انظر: تعقيب وليد الزبيدي على بحث عبد الحسين شعبان، «تداعيات الثورة في العراق،» ورقة قُدِّمت إلى: **الثورة والانتقال الديمقراطي في الوطن العربي: نحو خطة طريق: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظّمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع المعهد السويدي بالإسكندرية**، تحرير عبد الإله بلقزيز ويوسف الصواني، وقفية جاسم القطامي للديمقراطية وحقوق الإنسان (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٢)، ص ٧١٣ـ ٧٢٠.

تونغ مقاتليه أثناء مقاومتهم للاحتلال الياباني مطلع القرن العشرين بقوله «إن مناطق وجود المقاومين تتوزع على ثلاث مناطق رئيسية هي: المناطق الجبلية، والسهول وتلك التي تكثر فيها الأنهار والبحيرات والخلجان» ويقسم المناطق نظراً إلى طبيعة الأرض التي توجد في تلك المناطق، ويقول ماو، إن المناطق الجبلية هي الأفضل لشن الهجمات على العدو، إذ إن قوات المقاومة في المناطق الجبلية، يمكنها بصورة دائمة أن تحطم حملات التطويق والهجوم، وتصمد في قواعدها، أما في السهول فإن الأمر يختلف، إذ ينبغي على المقاومين في هذه المناطق التي تكون مفتوحة ومكشوفة أكثر، أن يفكروا في حال تعرضوا لهجوم، في ضوء الظروف القائمة اتخاذ التدابير اللازمة، وأهمها سحب أكبر عدد ممكن من المقاتلين، والإبقاء على مجاميع منفردة غير مكشوفة، وما إن ينسحب العدو حتى تعود قوات المقاومة إلى الانتشار في تلك السهول. وهنا يفترض الزعيم الصيني وجود جبال بالقرب من السهول، حيث ينتقل العدد الأكبر من المقاومين إليها، ويصنف المناطق التي تكثر فيها الأنهار والبحيرات والخلجان بأنها أفضل من السهول في تنفيذ هجمات المقاومين ضد العدو، إلا أنها أقل أهمية من تلك المتوافرة في المناطق الجبلية.

ويفرد تشي غيفارا من جهته، مساحة واسعة للتضاريس وأهميتها في تنفيذ الهجمات من قبل المقاومين في كتابه **حرب العصابات** الذي صدر العام ١٩٦١[٢٦]، ويضع أول عامل لنجاح المقاومين في شن هجمات ناجحة، طبيعة الأرض التي يتحرك عليها المقاومون ويقول «إن وجود الجبال والأرض الوعرة والغابات والأحراش من أهم عوامل دعم المقاومين وضمان نجاح هجماتهم دون تقديم أي خسائر، وإن الأرض المناسبة لشن الهجمات هي الجبال». ويضيف غيفارا أيضاً، أن «الجبال تحمي المقاومين من أذى الطيران وأنها الأماكن الملائمة لتنظيم الأفراد المقاتلين، وتجهيزهم للقتال».

ولا تختلف أفكار وطروحات كبار المفكرين الاستراتيجيين حول أهمية وجود الجبال والهضاب والأحراش في نجاح المقاومة وديمومتها، وتبرز أهمية ذلك في التجارب التي موضوع المقارنة هنا (الفرنسية والفييتنامية والفلسطينية والجزائرية) نظراً إلى كثرة الجبال والهضاب في هذه الدول. إلا أن هذا العامل الذي أولاه جميع المفكرين

(٢٦) إرنستو تشي غيفارا، الثائر البوليفي الشهير وقد شرح ذلك بالتفصيل في كتابه عن حرب الأغوار، الذي يُعَدُّ أحد أهم مصادر الفصائل المقاومة في العالم. انظر: Ernesto Che Guevara, *Guerrilla Warfare* (New York: Bison Books, 1961).

والاستراتيجيين وقادة المقاومة في العالم أهمية استثنائية، نجده غائباً بصورة تامة في تجربة المقاومة العراقية، وسنوضح ذلك بالتفصيل من خلال تقديم وصف جغرافي كامل للمناطق التي تتوزع فيها قواعد ومعسكرات قوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية وغيرها من قوات الدول الأخرى، سواء مئات القواعد والمعسكرات الأمريكية (لوحدها ٥٠٥ قواعد ومعسكرات) أو القواعد الـ ١٥ الأمريكية الكبرى[٢٧]، وطبيعة الأرض التي توجد فيها الطرقات التي تسلكها القطعات الأمريكية والبريطانية للانتقال بين مناطق العراق المختلفة، وفي التواصل بين هذه القواعد والمعسكرات. لذلك نعتقد بأن دراسة طبيعة الأرض في تجربة المقاومة العراقية واحدة من الجوانب الهامة، إذ يكتشف الدارسون والباحثون والمفكرون والعاملون في مجال العلوم العسكرية، أن شرط وجود الجبال والهضاب والغابات والأحراش لنجاح المقاومة في كل مكان وزمان غائب في التجربة العراقية، وهو العامل الآخر الذي يقف بالضد من المقاومة العراقية.

إن غياب هذا العامل بصورة نهائية، وفي عصر التطور التكنولوجي الهائل الذي تمتلكه قوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية، مقابل الإمكانات البسيطة للمقاومة العراقية ـ بل إن أغلبية الأسلحة التي انطلقت بها المقاومة العراقية كانت بسيطة ـ يستدعي الخوض في أعماق وخصوصية التجربة العراقية في المقاومة، مع استحضار جميع العوامل، ومن بينها مسألة الأرض المنبسطة والمفتوحة، التي تنفذ فيها المقاومة العراقية هجماتها الكثيرة والواسعة.

بما أن العلاقة وثيقة جداً بين التضاريس التي تساعد على تنفيذ الهجمات من قبل المقاومين، على شكل كمائن، ومن ثم يصبح الانسحاب والاختفاء يسيراً، وبين تزايد الهجمات النوعية وقلة الخسائر في صفوف المهاجمين، فلا بد من إعطاء صورة مكثفة لهذا الأمر في الدول التي شهدت مقاومة ضد قوات الاحتلال، وهو ما ساهم بقوة في تحقيق النصر لها في نهاية المطاف. ففي الجزائر عدة سلاسل من الجبال، أهمها سلسلة جبال أطلس، وجبال جرجرة، وجبال الونشريس، وجبال الهقار. وتتكون جبال أطلس من سلسلتين جبليتين وهي موازية للساحل الجزائري الذي يمتد على مسافة ١٢٠٠ كم، أما حدود الجزائر فتبلغ ٦٣٤٣ كم ومساحتها ٢,٣٨١,٧٣١ كم٢، وهناك الهضاب الداخلية، وهي مناطق مرتفعة وأهمها مرتفعات تبسة، والحضنة، وأولاد نايل العمور

(٢٧) تمركزت القوات الأمريكية في ٥٠٥ قواعد ومعسكرات في مختلف مناطق العراق، ما عدا المحافظات الشمالية الثلاث (أربيل والسليمانية ودهوك). انظر: وليد الزبيدي، **المقاومة العراقية وأمريكا** (القاهرة: مكتبة جزيرة الورد، ٢٠١٢).

والقصور. كما أن حدود الجزائر طويلة، وقد ساعدت في تأمين الإمدادات التي كانت تأتي إلى المقاومين من الخارج. ومن دون شك فإن وجود الجبال والهضاب قد أسهم في إعطاء زخم للمقاومة الجزائرية، إذ كانت الملجأ للمقاتلين الذين تطاردهم سلطات الاحتلال الفرنسية.

أما في فلسطين فتوجد مجموعة من الجبال، أهمها جبال الجليل التي يبلغ معدل ارتفاعها ٨٠٠م، وجبل الجرمق وهو أعلى جبال فلسطين وتبلغ قمته ١١٠٠م، وهناك جبل كنعان، وجبل الكرمل، ومرتفعات الجليل وجبل الطور، إضافة إلى جبال القدس والخليل.

وبالنسبة إلى الأغلبية العظمى من المقاومين الفرنسيين التابعين لفرنسا الحرة بقيادة الجنرال شارل ديغول في المناطق الجبلية، يقول ديغول بهذا الصدد «إن الحركات المقاومة التي كانت تعمل في المناطق الجبلية الوعرة الشائكة، استمروا هناك ولم يبرحوا المكان، لأن وجودهم في تلك الأحراش هو الأفضل، إذ تتوافر لهم الظروف الأمنية، للاستعداد لتنفيذ هجماتهم ضد قوات الاحتلال الألماني»[٢٨].

ومن دون شك فإن التضاريس الفرنسية مثالية بالنسبة إلى هجمات المقاومين، إذ تنتشر سلاسل الجبال والغابات والأحراش، حيث يكون الوضع مثالياً لنمو المقاومة وانتشارها وضمان أمن المقاومين من خلال توفير الأمكنة الآمنة لتجمعاتهم، وعدم قدرة الجواسيس على الوصول إليهم، إضافة إلى الاختباء في الكهوف الحصينة، التي تحميهم من قصف طائرات العدو.

وبالمرور على التجربة الفييتنامية، في ما يتعلق بأهمية الجبال، نورد المثال التالي: عندما بدأت القوات الأمريكية باستخدام الطائرات في القصف العنيف لمواقع المقاومين الفييتناميين (الفيتكونغ) عام ١٩٦٢ مستفيدة من العدد الكبير من المستشارين الأمريكيين والخبراء البريطانيين والفرنسيين وتجاربهم في فييتنام والجزائر، تسبب كل ذلك بتدهور موقف المقاومين الفييتناميين، وتذكر الموسوعة الفييتنامية، لقد تكبد الفيتكونغ خسائر جسيمة بسبب الغارات الجوية، وبخاصة في قرية اب باك، ضمن منطقة دلتا الميكونغ، على بعد أربعين ميلاً من سايغون، والسبب في كل هذه الخسائر هو عدم وجود جبال أو غابات في هذه المنطقة، «لذلك فكّر قادة المقاومة بوقف المقاومة في هذه المناطق»

(٢٨) ديغول، **مذكرات الجنرال ديغول: نداء الشرف، ١٩٤٠ ـ ١٩٤٢**، ص ١٣٩.

وجرت نقاشات واسعة بهذا الشأن وقرروا الاستمرار بالمقاومة خشية فقدان الثقة بها في الأوساط المؤيدة لها «الوسط الفلاحي الفييتنامي».

ومن المعروف أن دلتا الميكونغ قد تكون المنطقة الوحيدة التي ليس فيها جبال وغابات وأحراش، ولمجرد فقدان هذا العامل واجهت المقاومة الفييتنامية صعاباً جمة، إلى درجة تفكير الكثير من زعاماتها باللجوء إلى اتخاذ قرار وقف نشاطات المقاومة على الأقل في تلك المناطق؛ وعلينا أن نتذكر أن القوة التي ألحقت الخسائر الجسيمة بالمقاومين الفييتناميين هي الطائرات، ونحن نتحدث عن أسلحة وطائرات بتقنية وإمكانات بداية ستينيات القرن العشرين، أي قبل غزو العراق بما يقرب من نصف قرن، وهو زمن هائل بالنسبة إلى التطور اليومي والسريع الذي يشهده قطاع السلاح ومعه أجهزة الرصد والاستمكان الإلكتروني، وما أضافته الولايات المتحدة لقواتها المسلحة خلال الحرب الباردة وحقبة التنافس مع الاتحاد السوفياتي، والأهم من ذلك مرحلة التطور التقني الهائل في الميدان الإلكتروني، والاستحضارات الأمريكية لقيادة العالم تحت سطوتها العسكرية المعروفة بتفوقها المطلق.

ورغم الحصار الشديد الذي فُرض على المقاومة الفييتنامية خلال حرب العمليات الخاصة، التي رسمها وقادها وزير الدفاع الأمريكي ماكينمارا ورئيس الأركان تايلور، واستحداث القرى الاستراتيجية التي هدفت إلى عزل المقاومين عن محيطهم وحاضنتهم، إلا أن المقاومين تمكنوا من استعادة نشاطاتهم بعد أقل من سنتين. من هنا تبرز أهمية التضاريس، إذ لجأ المقاومون إلى الجبال ليعاودوا نشاطهم وهجماتهم ضد القوات الأمريكية.

أصبحت واضحةً أهمية عامل التضاريس في تجارب المقاومة، وأي دارس وباحث يتعمق في دراسة تجارب المقاومة في العالم، سيكتشف أن وعورة الأرض والجبال والأحراش أهم عوامل نجاح المقاومة في هذا البلد أو ذاك. وإذا اعتبر السوفيات أن «جنرال ثلج» قد ساهم بقوة في إلحاق الهزيمة بالجيش الألماني، الذي استهدف موسكو خلال الحرب العالمية الثانية، فالقول بأن «جنرال الجبال والهضاب والوعورة والأحراش» هو الجيش الجرار الذي وقف إلى جانب الأغلبية العظمى من المقاومين في مختلف تجارب الشعوب، الذين تمكنوا من الصمود والاستمرار، يضاف إلى ذلك وبدون أدنى شك، العوامل الأخرى التي ناقشناها في سياق تناولنا لظروف نشأة وانطلاق المقاومة العراقية. ويتضح دور عامل التضاريس في التجربة العراقية من خلال الدراسة التفصيلية التالية:

أثناء جولة لي في مناطق شمال العراق صيف عام ٢٠٠٤، ونحن نسير بين الجبال الشاهقة، حيث تنتصب الصخور العملاقة، وتجد مخبأً بين مخبإٍ وآخر، قلت في نفسي، لو حصل الوجود الأمريكي في مثل هذه الأماكن أو ما يشابهها في مناطق العراق الأخرى، لما تمكنت قواتهم من البقاء لستة أشهر. في تلك اللحظات، كنت أستحضر حجم العمليات التي تنفذها المقاومة العراقية، ضد القوات الأمريكية في أرض منبسطة تماماً، ويتفق الخبراء في العلوم العسكرية ومنظّرو حرب العصابات، أن أول أعداء المقاتلين والمقاومين هو الأرض المنبسطة وعدم وجود الأحراش والغابات.

إن الأراضي التي بدأت فيها أولى عمليات المقاومة العراقية وتواصلت بعد ذلك، هي أرض منبسطة جداً؛ إذ لا توجد جبال ولا تلال وليس هناك غابات واسعة تمتد لمسافات كبيرة. هنا لا بدّ من الإشارة إلى مسألة مهمة، وهي أن التصور الجمعي عند العراقيين قبل الغزو الأمريكي كان قد تكرّس باتجاه خطورة التقنيات الأمريكية، بما وصلت إليه من التفوق والتطور، إلى درجة أن أجهزة الرصد الجوي والاستطلاع (الأقمار الاصطناعية) التي تغطي سماء العراق، لديها القدرة على الآتي:

١ ـ اكتشاف أي حركة وتصويرها بدقة متناهية.

٢ ـ القدرة على متابعة الهدف المتحرك (للأشخاص والعجلات) والوصول إليه في أي مكان.

٣ ـ رصد الحوارات والأحاديث بين الأشخاص وتحليلها بسرعة فائقة، والتعرف إلى فحوى ما يدور بين الناس.

وقد تعززت هذه القناعات نتيجة لسرعة تقدم القوات الأمريكية، واجتياحها للقطعات العراقية خلال فترة قياسية[٢٩]. تضاف إلى ذلك الحكايات والروايات التي نقلها العسكريون العراقيون عن الدقة المتناهية للصواريخ الأمريكية في إصابة الأهداف مثل مقارّ الجيش والحرس الجمهوري والدبابات والمدافع وتجمعات القوات في مختلف المناطق والمعسكرات.

اجتمع هنا عاملان قويان ومؤثران في الجانب النفسي، فمن ناحية يشعر المرء بأنه أمام قوة أمريكية عملاقة وهائلة، سواءٌ من حيث المعدات الثقيلة (الطائرات والدبابات

(٢٩) بدأ الغزو في ١٩/ ٣/ ٢٠٠٣، وتّمت السيطرة على بغداد في ٩/ ٤/ ٢٠٠٣، وتّمكنت القوات الأمريكية من دخول مطار بغداد مساء الثالث من نيسان/ أبريل ٢٠٠٣.

والمدافع)، أو من حيث القوات البشرية على الأرض، وبالأخص قوات المارينز المعروفة بقوتها وسطوتها، إضافة إلى القدرات التكنولوجية الهائلة.

في المقابل، لا تمتلك المقاومة العراقية عوامل مضادة لما تتصف به القوات الأمريكية، من القدرة على الحركة والمناورة وسرعة الاختباء بعد تنفيذ هجماتها، ولا شك في أن هذا العامل لا يتوافر بدون تضاريس تكفل تأمين ذلك.

يمكن الجزم، بأن التضاريس العراقية قد وقفت ضد المقاومة بصورة لم تشهدها تجارب المقاومة في العالم. وإزاء القدرات الهائلة لدى القوات الأمريكية، ونحن هنا نتحدث عن التطور التقني الكبير والسريع الذي حصل خلال السنوات الأخيرة في الألفية الثالثة، وما تمتلكه القوات الأمريكية تحديداً من التقنيات والأجهزة الأحدث والأقوى في العالم، ولا نتحدث عن ظروف حربي الجزائر وفييتنام (خمسينيات وستينيات القرن العشرين) ومثل ذلك المقاومة الفلسطينية، أو المقاومة الفرنسية (النصف الأول من أربعينيات القرن العشرين) فإن عامل التضاريس يزيد من عوامل القوة المضافة للجيش الأمريكي، ويقف بالضد من العمل المقاوم في العراق.

وسط الظروف النفسية التي عاشها العراقيون نتيجة لزلزال الاحتلال والانهيار السريع لمؤسسات الدولة العسكرية والأمنية والسياسية، انطلقت المقاومة العراقية بالسرعة المعروفة، وبدأت الهجمات في أرض منبسطة. وإذا بدأنا من الهجمات التي حصلت داخل مدينة بغداد، فإن أرض العاصمة منبسطة وشوارعها مستقيمة، ولا توجد فيها الكثير من البنايات الشاهقة، ما عدا شارع حيفا بجانب الكرخ من العاصمة حيث توجد العمارات السكنية الحديثة. والهجمات التي شنها المقاومون في مدينتي العمارة والبصرة حصلت في أرض منبسطة أيضاً، إذ لا توجد مرتفعات وتلال وغابات. رغم ذلك أوقع المقاومون هناك خسائر فادحة بالقوات البريطانية الغازية، وحصلت جميع الهجمات في أرض منبسطة. وهاجم المقاومون القوات الأمريكية بشراسة داخل العاصمة بغداد، وخير مثال على ذلك إطلاق ٢٩ صاروخاً على فندق الرشيد أثناء وجود نائب وزير الدفاع الأمريكي بول وولفويتز بداخله، وهذا الفندق أحد مقار القوات الأمريكية الرئيسية ويقع ضمن حدود (المنطقة الخضراء) شديدة التحصين، وأصابت الصواريخ الفندق إصابة مباشرة (أواخر شهر تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٣)، ونحن هنا إزاء هجوم واسع، إذ إن إطلاق هذا العدد الكبير من الصواريخ ليس بالأمر السهل، ويحتاج إلى منصات إطلاق وطواقم مدربة، كما أن ذلك يقتضي البقاء في المكان لمدة قد تصل بين ٥ و٨ دقائق.

أما الأمر الأكثر أهمية فيتمثل بتأمين انسحاب القوة المهاجمة من المقاومين، حيث تنتشر القوات الأمريكية في جميع أنحاء بغداد، والهجوم هو في جانب الكرخ من بغداد، ولا يبعد عن مقر السفارة الأمريكية سوى ٥٠٠ متر، وبسبب كثافة الصواريخ تأخر اقتراب المروحيات الأمريكية، ما ساعد المقاومين على الانسحاب بسرعة من دون أن تتمكن القوات الأمريكية من رصد مكانهم، أو الأماكن التي انسحبوا إليها.

كما قلنا، إن وجود جبال وأودية وهضاب وغابات وأحراش، تساعد كثيراً على تنفيذ هجمات المقاومين، وعلى الانسحاب الفوري والتواري عن أنظار العدو، وهذه الحال لم تتوافر للمقاومين العراقيين على الإطلاق، لأن القوات الأمريكية تمركزت في قواعد ومعسكرات تحيط بها أراض منبسطة، وجميع الطرق التي تربطها بها متشابهة، ولا توجد تلال وجبال وكهوف في جميع المناطق التي توزعت فيها. ولإعطاء تصور عن طبيعة وأنواع التضاريس المحيطة بالقواعد الأمريكية، نقدم تعريفاً ببعض القواعد الأمريكية في العراق، وطبيعة الأرض المنبسطة التي تحيط بهذه القواعد، ويشمل ذلك جميع القواعد والمعسكرات الأمريكية والبريطانية في البصرة والعمارة والكوت والمناطق الأخرى:

١ ـ قاعدة البكر الجوية (شمال بغداد): تعتبر هذه القاعدة الأكثر شهرة بين «القواعد العاملة» في العراق، تم تغيير اسمها إلى «أناكوندا»، وتقع قرب مدينة الدجيل في ناحية يثرب التابعة لمحافظة صلاح الدين، على مسافة ٧٥ كم شمال بغداد، وتتميز بأنها الأشد ازدحاماً بالحركة الجوية في المنطقة، وتضم المقاتلات الجوية وطائرات النقل العملاقة، وهي القاعدة الرئيسية لتقديم الإمداد والخدمات اللوجستية للقوات الأمريكية العاملة في العراق. ومن الواضح أن اختيار اسم «أناكوندا»، وهو أحد أنواع الثعابين الطويلة التي تلتف على عنق عدوها وتخنقه حتى الموت، في دلالة على تصديها لأعداء أمريكا في العراق والمقصود هنا «المقاومون». وتتميز قاعدة البكر بوجود عدة مدارج لإقلاع وهبوط الطائرات، وهي من أطول المدارج في القواعد الأمريكية، لذلك فهي القاعدة الرئيسية لنقل المعدات الخاصة بالجيش الأمريكي، إضافة إلى نقل الجرحى الذين تكون إصاباتهم خطيرة، بعد تلقيهم العلاج في المستشفى العسكري الكبير الموجود داخل القاعدة التي تغطي مساحة واسعة من الأراضي، ولا تبعد كثيراً عن المناطق الشمالية (نحو ٢٥٠ كم عن حدود كردستان) والمسافة نفسها تقريباً عن الحدود الإيرانية؛ إذ تقع القاعدة قرب منطقة ديالى التي ترتبط بحدود مع إيران، ولا تبعد كثيراً من بغداد، كذلك من الأنبار وتكريت. ولأن مساحة القاعدة شاسعة، فإن مساحات

كبيرة فارغة تحيط بها، وهي مناطق زراعية تنتشر فيها أشجار الحمضيات والكروم، غير أنها تفتقد أي نوع من الجبال والتلال والهضاب، سواء في المناطق المحيطة أو المحاذية للطرقات، التي تسلكها أرتال القوات الأمريكية في تحركاتها، في اتجاه العاصمة بغداد عبر طريق بغداد ـ الموصل أو في تنقلها صوب ديالى (شرقاً) أو معسكرها قرب مدينة بلد إلى الغرب.

٢ ـ قاعدة التاجي (٣٠ كم شمال بغداد): أحد أهم معسكرات الجيش العراقي السابق، وتمتد على رقعة شاسعة، وسط أرض زراعية منبسطة، لا توجد بالقرب منها أي تلال وهضاب وغابات، وترتبط بالعاصمة بطريق رئيسي حديث (هو الطريق ذاته الواصل بين بغداد ـ سامراء ـ تكريت ـ الموصل). وتحيط بهذه القاعدة مناطق المشاهدة والطارمية. والجهة المقابلة لها عبارة عن أرض منبسطة مفتوحة تصل إلى منطقة الدجيل غرباً وترتبط بمناطق الكرمة التابعة لمدينة الفلوجة (جنوب غرب)، وبإمكان المرء أن يرى بالعين المجردة أي شخص يتحرك على مسافة عدة أميال، وهذا يعطي تصوراً عن الصعوبة البالغة، التي يواجهها المقاومون في التخطيط لشن الهجمات، وكيفية تأمين الانسحاب من موقع الهجوم، مع وجود طائرات الهليكوبتر وأجهزة الرصد والمتابعة الجوية التي تمتلكها القوات الأمريكية.

٣ ـ قاعدة الفلوجة: تقع شرق المدينة وعلى بعد ٥٥ كم من العاصمة، وكانت في السابق منتجعاً رئاسياً، ثم تحولت إلى منطقة سياحية يزورها العراقيون أثناء العطل الرسمية والمناسبات، وتحتوي مجموعة مبان واستراحات كبيرة واسعة إضافة إلى بحيرة، ولا تبتعد عن الشارع الرئيسي (الذي يربط بغداد ـ الفلوجة ـ الرمادي ـ وصولاً إلى الحدود العراقية ـ السورية والأردنية) سوى ٢ كم، وتحيط بالقاعدة صحارٍ وأراضٍ منبسطة، ويظهر الجسم الصغير المتحرك من مسافة بعيدة، ويمكن مشاهدته بالعين المجردة من عدة كيلومترات، وتستخدم القوات الأمريكية الطرق التقليدية في التحرك باتجاه بغداد (شرقاً) والرمادي والحبانية والخالدية وغيرها (غرباً)، كما يوجد طريق زراعي يربط بين هذه القاعدة وقاعدة التاجي يسمى ذراع دجلة ويقع ضمن أرض مفتوحة ومنبسطة أيضاً، ما يعني أن ثمة صعوبات بالغة في التخطيط لشن هجمات على هذه القاعدة العسكرية الأمريكية، وتأمين انسحاب المقاومين.

٤ ـ قاعدة الصقر الجوية: تقع جنوب بغداد على مسافة ١٥ كم تقريباً، وهي من القواعد الكبيرة وتستخدم لتخزين الذخيرة والأسلحة. تعرضت لهجوم عنيف عام ٢٠٠٧، تسبب بحرق وتدمير مخازن الأسلحة الرئيسية، وسمع دوي الانفجارات

الهائلة في جميع أحياء بغداد، وتواصلت الانفجارات لعدة ساعات. وقُدرت خسائر القوات الأمريكية جراء ذلك الهجوم بعدة مليارات من الدولارات؛ ولا توجد بالقرب من هذه القاعدة جبال وهضاب وأحراش، إلا أن هناك عنصراً بسيطاً واحداً لمصلحة المقاومين، هو وجود مجموعة من بساتين النخيل في منطقة الدورة جنوب بغداد، يمكن لهم استخدامها أحياناً في إطلاق الصواريخ، إلا أنها ليست بالتضاريس التي توفر لهم الأمن الكامل، بما في ذلك الاختباء وتأمين الحماية من الصواريخ وهجمات الطائرات.

٥ ـ قاعدة الناصرية: واسمها سابقاً «قاعدة الإمام علي» تقع على مسافة ٣٥٠ كم جنوب بغداد وتقع على ضفاف نهر الفرات، وهي من القواعد العسكرية الكبيرة، وتستخدم لسلاح الطيران، وتعرضت للقصف والتدمير الواسع إبان حرب الخليج ١٩٩١، وتحيط بها مناطق مفتوحة وليس هناك أي هضاب أو جبال تكفل تأمين انسحاب المقاومين في حال شنّوا هجمات على القوات الموجودة داخلها.

٦ ـ قاعدة مطار بغداد: من القواعد الكبير: تقع قرب المطار، وتحيط بها المزارع في منطقة الرضوانية، وهي أرض منبسطة ولا توجد أية تضاريس وغابات أو جبال.

٧ ـ القاعدة الأمريكية في الموصل، ولا تختلف من حيث الأرض المحيطة بها عن القواعد الأخرى، إذ لا يوجد عامل التضاريس للمساعدة على شن هجمات ناجحة من قبل المقاومين.

٨ ـ المنطقة الخضراء: تقع وسط بغداد، قبل الغزو كانت تضم القصر الجمهوري، وتحتوي موقع السفارتين الأمريكية والبريطانية، ومحاطة بالمناطق السكنية، ولا توجد تضاريس بالقرب منها تسهّل هجمات المقاومين.

٩ ـ قاعدة عين الأسد: من القواعد العسكرية الكبيرة، تقع إلى الغرب من بغداد بمسافة ٢٠٠ كم في منطقة البغدادي ضمن محافظة الأنبار، وكانت سابقاً قاعدة القادسية الجوية، وهي التي هبط بها الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش أثناء زيارته الأخيرة للعراق، وتقع وسط أراض صحراوية منبسطة ومفتوحة، ولا توجد بالقرب منها هضاب وجبال وكهوف.

يمكن القول، إن جميع المناطق المحيطة بالقواعد والمعسكرات الأمريكية متشابهة من حيث التضاريس، سواء تلك الموجودة في الموصل وديالى وكركوك

والأنبار وبغداد، أو القواعد العسكرية البريطانية في البصرة والعمارة والناصرية والقواعد والمعسكرات الأخرى في كربلاء والنجف والكوت والسماوة.

لا شك في أن فقدان المقاومة العراقية لواحد من أهم الاشتراطات المتعارف عليها في تنفيذ استراتيجية حرب العصابات ضد العدو، يُعد من العوامل غير المساعدة للمقاومة إن لم نقل المعادية لنشاطها. لكن استمرار المقاومة في تنفيذ الهجمات ضد الأمريكيين وبالزخم الكبير المعروف، يؤكد قوة المقاومة العراقية بالرغم من خسارتها هذا العامل الحيوي، الذي طالما قدم دعماً كبيراً لرجال المقاومة في فييتنام والجزائر وغيرها. ومن المعروف أن أي تخطيط لهجمات ميدانية، لا بد من دراسة سبل الانسحاب والتواري عن أنظار العدو، ووضْع ذلك في المقدمة، للمحافظة على حياة المقاومين وإدامة زخم الهجمات اللاحقة.

الفصل الثاني

المقاومة العراقية في الميدان

يعرف أغلبية الأمريكيين والكثيرون في العالم أسماء أول جنديين أمريكيين قُتلا في العراق، في أول يوم من أيام الاحتلال الأمريكي، وهو يوم الخميس المصادف العاشر من نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، في حين لا يعرف العراقيون وغيرهم حتى الآن، وبعد مضي أحد عشر عاماً على هذا التاريخ أسماء الأشخاص (المقاومين) الذين صوبوا نيران أسلحتهم وقتلوا كلاً من تيري هيمنغواي البالغ من العمر ٣٩ عاماً وهو من قوات المارينز، والقتيل الأول الذي اصطادته المقاومة العراقية في اليوم الأول للاحتلال، والقتيل الثاني هو جيفري بوه من قوات المارينز أيضاً وعمره ٣٩ عاماً.

وهنا لا بد من التذكير بأنه يجب أن نفرّق بين التسمية التي تطلق على منفذي الهجمات ضد القوات الأمريكية، الذين قتلوا الجنديين الأمريكيين، عن التسمية التي نطلقها على الذين تصدوا لقوات الغزو الأمريكي وقتلوا وجرحوا من هذه القوات الكثيرين منذ بداية الغزو حتى يوم الاحتلال.

بناءً على ذلك، فإن أي فعل عراقي مضاد للقوات المحتلة وقع بعد الساعة الثانية عشرة من ليل التاسع من نيسان/ أبريل، هو فعل مقاوم، وأن منفذي الهجمات هم مقاومون. وهذا الاصطلاح يختلف من حيث التسمية والمعنى، عن التسمية التي تطلق على العراقيين الذين قتلوا أو جرحوا جنوداً من القوات الأمريكية والبريطانية، منذ صبيحة التاسع عشر من آذار/ مارس ٢٠٠٣ وحتى نهاية يوم التاسع من نيسان/ أبريل من العام نفسه، فقد قتل العراقيون أولئك الغزاة وهم يدافعون عن بلدهم، وهم منتظمون ضمن مؤسسات إما عسكرية وإما أمنية وتنظيمات أخرى تابعة للدولة العراقية، ما يحتم عليهم واجبهم الرسمي والوطني والوظيفي التصدي للغزاة المعتدين، ويطلق عليهم مدافعون عن بلدهم ضد الغزاة؛ وهو المصطلح الذي يُطلق على الذين قتلوا أول جنديين أمريكيين في بداية الغزو الأمريكي ـ البريطاني للعراق، (وهما تيري شيلدرز، ٣٠ عاماً من المارينز، وجوس غوتيريز وعمره ٢٢ عاماً، وكلاهما من المارينز، وقتلا بتاريخ ٢١/ ٣/ ٢٠٠٣)، أي بعد ٤٨ ساعة من بدء الغزو الأمريكي ـ البريطاني

في ١٩/ ٣/ ٢٠٠٣[١]، والوصف ذاته يطلق على الذين قتلوا جنوداً وأفراداً وضباطاً من قوات الغزو، طيلة أيام الغزو التي استمرت لثلاثة أسابيع، وكان آخر هؤلاء ستة قتلى أعلنت عنهم القوات الأمريكية، وقالت انهم قُتلوا في بغداد يوم الإثنين المصادف ٨/ ٤/ ٢٠٠٣، ومن بينهم هنري براون (٢٢ عاماً) من الجيش الأمريكي، وجون مارشال ٥٠ عاماً وأربعة آخرون.

أما يوم التاسع من نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، فلم يعترف الجيش الأمريكي بوقوع قتلى بين قواته، وهو اليوم الذي يؤرخ بأنه آخر يوم للسلطة الرسمية وسيادة العراق قبل بدء الاحتلال الأمريكي، وفيه دخلت قواته قلب بغداد وأسقطت التمثال في ساحة الفردوس، وأوردنا أسماء الجنود الأمريكيين وتواريخ قتلهم على الأراضي العراقية، بهدف التمييز بين الاصطلاح العلمي والمنطقي، الذي يُطلق على العراقيين الذين قتلوا الجنود الأمريكيين والبريطانيين منذ بداية الغزو، حيث اعترف الأمريكيون بسقوط أول قتلاهم في ٢١/ ٣/ ٢٠٠٣، وصولاً إلى آخر القائمة من الذين اعترف بهم البنتاغون وقتلوا يوم ٨/ ٤/ ٢٠٠٣، حيث قتل هؤلاء من قبل العراقيين تحت عنوان «الدفاع عن العراق» والتصدي للغزاة، في حين يجب تسمية الذين قتلوا الجنود الأمريكيين والبريطانيين وسواهم من قوات الاحتلال، ابتداءً من القتيل الأمريكي الأول (تيري همينغواي بتاريخ ١٠/ ٤/ ٢٠٠٣) بأن هؤلاء «مقاومون» رجال المقاومة العراقية.

ولا نريد هنا أن ندخل بشرح واسع ومطوّل حول هذه النقطة التي سبق أن تناولناها، ونكتفي بالقول، إن الواجب يحتم على كل عراقي أن يدافع عن بلده، إذا تعرض لاعتداء أو غزو، سواء كان ضمن منظومة المؤسسات الرسمية أو الشعبية، وهو بذلك يدافع عن بلده، وأن ذات الواجب يفرض على المرء مقاومة المحتل، ولأن يوم التاسع من نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، هو آخر يوم لعلامات السيادة، كما شرحنا ذلك بالتفصيل في الفصل الأول من الكتاب، وأن اليوم اللاحق هو أول أيام الاحتلال (١٠/ ٤/ ٢٠٠٣) فإن أي رد فعل يصدر ضد قوات الاحتلال يسمى مقاومة.

من هذا الفهم، فإن أي فعل حصل بعد يوم ٩/ ٤/ ٢٠٠٣، هو مقاومة الاحتلال، وهو ما نعمل على توثيقه، وتحليل مضامين هذه الأعمال بالقدر الذي نستطيع في هذه المساحة. وبسبب غياب التوثيق والأرشفة، وعدم وجود بيانات كاملة ودقيقة، تتضمن الإعلان عن جميع عمليات المقاومة العراقية ضد قوات الاحتلال، في انطلاقة المقاومة

(١) وذلك بحسب البيانات الأمريكية التي اعترفت بمقتل هذين الجنديين.

الأولى، وإن وجدت فإنها نادرة وقليلة جداً ومبعثرة هنا وهناك. أما في انطلاقتها، الأولى أي الأسابيع الأولى، فلم نعثر على بيان بهذا الخصوص، في حين اعترف البنتاغون بهجمات شنتها المقاومة العراقية ضد قواتهم، واعترفت القيادة الأمريكية الوسطى بسقوط ٢٢ قتيلاً بين قواتها، خلال الفترة الممتدة من العاشر من نيسان/ أبريل (أي اليوم الأول للاحتلال) حتى الأول من أيار/ مايو (وهو اليوم الذي أعلن فيه الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش الانتصار في العراق في خطابه الشهير في ذلك اليوم) ويكون المقاومون في العراق قد قتلوا أمريكياً في كل يوم خلال عشرين يوماً (من ١٠/ ٤/ ٢٠٠٣ إلى ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٣).

وقد يستغرب الكثيرون، أننا وخلال البحث والتدقيق في ظروف نشأة وانطلاق المقاومة العراقية، وجدنا أن البيانات الأمريكية قد وثقت لبداية الفعل المقاوم في العراق. لكن ضمن بياناتها العسكرية، اعترفت القوات الأمريكية بأنها تعرضت لهجمات عنيفة، استهدفت أرتالها ومعسكراتها، كذلك معسكرات وأرتال القوات البريطانية في البصرة، في حين لم تكن هناك بيانات أو منشورات تتحدث عن تلك الهجمات، وهو ما يشير إلى أن الفعل المقاوم بدأ عسكرياً صرفاً، من دون أن تكون هناك واجهات سياسية تضع خططاً استراتيجية كبرى للمقاومين في الميدان. على عكس ما نلاحظه في الثورة الجزائرية على سبيل المثال، حيث تزامنت أول خمس هجمات عنيفة شهدتها خمس مناطق في الجزائر في الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٥٤، مع توزيع البيان الأول للمقاومة الجزائرية في أغلب المدن الجزائرية في يوم الهجمات نفسه، وأعلن عن انطلاق المقاومة الجزائرية.

كذلك حصل ذات الأمر عندما أعلن الجنرال ديغول بداية انطلاق المقاومة الفرنسية في اليوم ذاته لاحتلال ألمانيا لفرنسا، الذي تمثل بالاتفاق الذي جرى في ١٩/ ٦/ ١٩٤٠، بين قوات الاحتلال الألمانية وحكومة فيشي بقيادة الجنرال بيتان، عندها أصدر ديغول بيانه الشهير من إذاعة لندن معلناً بدء المقاومة باسم «فرنسا الحرة» ومن ثم تتابعت البيانات والتصريحات الأخرى، لكن في المسألة الفرنسية صدرت بيانات دون أن تحصل عمليات مقاومة في بداية الأمر كما أوضحنا سابقاً.

وفي واقع الحال لا يمكن أن يُحسب أمر عدم صدور بيانات توثق للهجمات الأولى على المقاومة العراقية، بل إنه يحسب لها، إذ تقدمت البندقية على كل شيء، لذلك فإن الجميع يعترف بأن أسرع مقاومة في الرد والانطلاق هي المقاومة العراقية، أما عدم توزيع ونشر البيانات، فإن هذا الأمر يرتبط بظروف نشأة وانطلاق المقاومة

المسلحة، ومن ثم تطور أدواتها بعد ذلك، حيث جاء الاهتمام بأداة الإعلام والنشر والتوثيق في مرحلة لاحقة، وازداد التركيز على مواصلة الطرق على المحتلين والتطوير القتالي والتدريب ووضع الخطط العسكرية وتنفيذ المزيد من الهجمات.

وقد يستغرب الكثيرون إذا عرفوا أن فصائل مسلحة من المقاومة العراقية واصلت قتالها لعدة سنوات ولم يكن من بين مقاتليها متحدث رسمي، أو ناطق إعلامي، في حين يوجد بين وحداتها القتالية آلاف المقاتلين.

ومن الواضح أن رجال المقاومة في العراق قد أعطوا الأولوية لميدان مقاتلة قوات الاحتلال الأمريكي ـ البريطاني، وتمكنوا من الشروع ببرنامج التصدي للمحتلين وقتلهم منذ اليوم الأول للاحتلال (في العاشر من نيسان/ أبريل ٢٠٠٣) وهو اليوم الذي شرع فيه المقاومون العراقيون في مهمة تحرير بلدهم من الاحتلال الأمريكي، وقتلوا قبل غروب شمس يوم الخميس أول أيام الاحتلال كلاً من (تيري همينغواي وجيفري إدوارد) وبذلك أصبح يوم الخميس بتاريخ ١٠/ ٤/ ٢٠٠٣ هو يوم انطلاق المقاومة العراقية.

ولا شك أن أحداً في تلك الأيام، وربما الأسابيع التي تلت ذلك اليوم، لم يكن يتوقع أن تكون حوادث قتل هذين الجنديين الأمريكيين، هو تاريخ بدء المقاومة، إلا أن الكاتب البريطاني الشهير روبرت فيسك، الذي كان موجوداً في بغداد أيام الغزو، وبعد ثلاثة أيام من إسقاط التمثال في ساحة الفردوس، وأثناء تجواله في مدينة بغداد، وكانت رائحة القصف الأمريكي العنيف للمدينة وأحيائها ومنشآتها ما زالت تختلط بالدخان المتصاعد من الوزارات ودوائر الدولة المحترقة، قال كلمة في أحد مقالاته التي نشرها يوم ١٣/ ٤/ ٢٠٠٣ وقد ذهبت رؤيته ذلك اليوم وفي تلك اللحظات باتجاه يقول فيه «انتهت الحرب الأمريكية لتحرير العراق، وبدأت الآن حرب العراقيين لتحرير بلدهم من القوات الأمريكية، وأننا سنرى أموراً مروعة في العراق»[٢].

وفي الأسبوع الأخير من الغزو الأمريكي للعراق، توقع المفكر الأمريكي نعوم تشومسكي[٣] انهياراً شاملاً في المجتمع العراقي، ورسم صورة قاتمة للعراق، بقوله «إن ما يحدث في العراق ليس حرباً، فهناك عدم تكافؤ وبون شاسع بين القوتين الأمريكية والعراقية، ولا يمكن أن نطلق لفظة مباراة ملاكمة بين بطل العالم في الملاكمة [يقصد

(٢) انظر مقال الكاتب البريطاني باتريك سيل (Patrick Sills)، في: *The Independent*, 13/4/2003.

(٣) انظر مقال المفكر الأمريكي الشهير نعوم تشومسكي (Noam Chomsky)، في: Zd Net, 1/4/2003, <http:// www.zdnet.com>.

الولايات المتحدة بكل ما تملك من قوة عسكرية واقتصادية وإعلامية وهيمنة على العالم] وبين طفل في الحضانة [يقصد العراق البلد الصغير الذي أنهكته العقوبات الاقتصادية وعدم امتلاكه لأي سلاح حيث دمرته لجان التفتيش التابعة للأمم المتحدة ضمن برنامج العقوبات المفروض على العراق منذ عام ١٩٩٠]»[٤].

واعتقد تشومسكي أن طفلاً في الحضانة (شعب العراق)، لن تقوم له قائمة بعد تلقيه ضربات متتالية وعنيفة من بطل الملاكمة في العالم (الولايات المتحدة) التي تمتلك جميع مقومات القوة وأدوات السيطرة على العراق، وفي واقع الحال ما اعتقده تشومسكي تصورته تصوراً شبه مطلق الأغلبية العظمى في العالم، إن لم يكن الجميع، من استراتيجيين ومفكرين ومثقفين وأناس بسطاء. وترسخت تلك القناعات أكثر عندما أنجزت القوات الأمريكية مهامها القتالية ضد العراق في زمن قياسي لم يتوقعه الكثيرون، وتمكنت من احتلال بغداد خلال ثلاثة أسابيع من بداية الغزو، قطعت خلالها ما يقرب من ١٠٠٠ كم في طرق برية مستقيمة ومتعرجة، ولم يتوقع الكثيرون في تلك الأثناء أن شيئاً من كلمات الزعيم الفييتنامي المقاوم هو شي منه كانت حاضرة، بصورة أو بأخرى، في عقول ومشاعر الرجال المقاومين في العراق، وهو القائل «خير لنا أن نقضي في ساحات القتال، من أن نعيش أذلّاء ومستعبدين».

إن ما حصل في العراق منذ اليوم الأول للاحتلال الأمريكي، فاجأ العالم، ووجه صدمة كبيرة للإدارة الأمريكية تتجاوز بحجمها الصدمة التي وجهوها ضد العراق والعراقيين. ولأن توثيقاً لهجمات المقاومة العراقية لم يحصل ـ على الأقل في انطلاقتها الأولى كما أن الكثير من العراقيين لم يسمعوا ببطولات مقاوميهم، وأستطيع الجزم، بأن نسبة قليلة جداً هم الذين يعرفون أن المقاومة العراقية بدأت في أول يوم للاحتلال، وأنهم لم يسمعوا باسمي أول قتيلين سقطا بسلاح المقاومة.

والأهم من ذلك أن الكثير من المقاومين لم يعرفوا شيئاً عن الكثير من الهجمات البطولية التي نفذها مقاتلون آخرون في مناطق مختلفة في العراق، وهو ما نحاول أن نقدمه إلى المقاومين وعوائلهم أولاً وإلى المحبين والمؤيدين والمدافعين عن المقاومة العراقية، وإلى العراق والعالم، والمعلومات الموثقة وما يصحبها من تحليل موجه أيضاً لكل من يريد أن يعرف حجم الفعل المقاوم، وبعد ذلك أعداء العراق الذين أرادوا شراً به وبأهله.

---

(٤) المصدر نفسه.

بداية المقاومة

هناك ثلاثة تواريخ هامة، يجب الإشارة إليها عند الحديث عن الغزو والاحتلال والمقاومة، أحد هذه التواريخ هو الأول من أيار/ مايو عام ٢٠٠٣، وهو اليوم، الذي توصلت فيه جميع القيادات الأمريكية (البيت الأبيض والخارجية والبنتاغون ووكالة الاستخبارات الأمريكية) إلى قناعة تامة تقول، بأن «المهمة قد أنجزت»، وأن يد أمريكا في العراق هي الطولى والأولى والأخيرة، وأنه لا وجود لقوة أخرى تنافسها أو تتحداها؛ لذلك أعلن في هذا اليوم (١/ ٥/ ٢٠٠٣) الرئيس الأمريكي والقائد العام للقوات المسلحة الأمريكية جورج دبليو بوش من على حاملة الطائرات الأمريكية أبراهام لنكولن وفي خطابه الشهير «انتهاء العمليات العسكرية الكبرى في العراق»، وهو بيان «الانتصار الأمريكي» وهزيمة العراق بصورة نهائية.

أما التاريخ الذي لم يتحدث عنه أحد فهو العاشر من نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، أي قبل عشرين يوماً من إعلان الرئيس جورج دبليو بوش انتصار الولايات المتحدة، وهو اليوم، الذي تأكد للجميع، أنه يوم انبثاق المقاومة العراقية، أما التاريخ الثالث، فهو ٩/ ٤/ ٢٠٠٣، الذي دخل صفحات التاريخ باعتباره، يوم دخول القوات الأمريكية مدينة بغداد العاصمة العراقية، أما «غائمية المصطلح»، فالمقصود بها، أنه خلال العشرين يوماً المحصورة بين ٩/ ٤/ ٢٠٠٣ و١/ ٥/ ٢٠٠٣، حصلت أحداث على أرض العراق، لم يكن يتوقعها القادة العسكريون الأمريكيون، ونقصد بها الهجمات التي أصابت قواتهم، فقد تصور قادة البنتاغون والبيت الأبيض، أنه بمجرد إسقاط تمثال الرئيس العراقي الراحل صدام حسين عصر يوم الأربعاء التاسع من نيسان/ أبريل سيرفع العراقيون جميعاً الرايات البيض بأيديهم، ويرسمون الابتسامة على وجوههم، ويتبارون لنثر الورود والزهور، التي تتفتح وتتكاثر في شهر نيسان/ أبريل، حيث يحل في تلك الأيام فصل الربيع في العراق، وينشغل جنود المارينز والمجندات الشقراوات، الذين أتعبتهم رحلة الأسابيع الثلاثة من الأراضي الكويتية إلى بغداد، بتلقف باقات الورد التي تتساقط عليهم مثل نداوة رذاذ المطر، ورسم ابتسامة التعالي والتباهي، ولا يمانعون في وقوف العراقيين في طوابير لتقبيل أياديهم على وقع ما يتعرض له العراقيون من هجوم إعلامي هائل أدرجته الإدارة الأمريكية تحت اسم «الصدمة والترويع».

وسط هذا الواقع، واستناداً إلى الدراسات الاجتماعية والسياسية، وبسبب هطول قوة أمريكية هائلة على أرض العراق، والانهيار السريع والمفاجئ للمؤسسة العسكرية والسياسية والأمنية العراقية، وعدم وجود بارقة أمل على الإطلاق، باحتمال وجود من

يناصر ويدعم أو حتى يؤيد من يقف ضد الأمريكيين، أو يتصدى لهم، ولدت قناعة راسخة عند الجميع، بأن ما حصل في المجتمع الياباني والألماني بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥، سيحصل في العراق، وأن الهدوء والصمت والاستكانة والقبول بواقع الاحتلال، هو السمة الأولى والأخيرة في هذا البلد.

لقد انعكس ذلك كله على ماجريات الأحداث، وكيفية التعاطي معها؛ فوسائل الإعلام المختلفة أولت اهتماماً واسعاً للبيانات الأمريكية، التي تتحدث عن سيطرة قواتها على المدن العراقية، وتأتي إشارات ضمنية ومقتضبة للخسائر التي تعلن عنها البيانات الصادرة عن الجيش الأمريكي (أقصد بذلك خلال الفترة الممتدة من ١٠ نيسان/ أبريل حتى الأول من أيار/ مايو ٢٠٠٣) وسادت قناعات راسخة بأن ما تتعرض له هذه القوات من هجمات متفرقة لا تخرج عن اصطلاح «الجيوب القتالية»، وكما شرحنا ذلك، فإن استمرار المقاتلين أو قطعات الجيش في القتال، بعد توقف العمليات القتالية في المعارك والحروب، لم يحصل، إلا بسبب انقطاع الاتصال بتلك المجاميع، التي غالباً ما تتمركز في قمم الجبال والغابات وفي الأماكن البعيدة. وبسبب عدم معرفة المسؤولين عن تلك المجاميع بتطور الأحداث وتوقف المعارك، فإنهم يواصلون إطلاق الصواريخ عندما يشاهدون طائرة معادية، وما شابه ذلك، إلا أن التجربة العراقية، تختلف تماماً، فالجميع أدرك أن منظومة الحكومة العراقية قد انهارت تماماً، وانهار معها أي خط آخر بإمكانه التصدي لهذه القوة الهائلة، التي استطاعت تحقيق انتصار سريع جداً، ودخلت العاصمة العراقية خلال ثلاثة أسابيع فقط، من لحظة شروعها بالحركة من خارج الحدود العراقية انطلاقاً من الأراضي الكويتية في الجنوب.

نقول إن غائمية المصطلح سادت في وسائل الإعلام طيلة عشرين يوماً، بسبب عدم وجود أي احتمال لبروز مقاومة مسلحة، قادرة على شن هجمات ضد القوات الأمريكية، والاستمرار في ذلك، لعدم توافر العوامل المساعدة لنشوء مثل هذه المقاومة، والتي تحدثنا عنها سابقاً بالتفصيل، وفي مقدمة ذلك انعدام «الثنائية» في المنظومة الدولية، التي طالما كانت هي السمة السائدة في العالم عبر العقود والقرون، وتفرد الولايات المتحدة بالسيطرة على العالم، منذ انهيار الاتحاد السوفياتي مطلع تسعينيات القرن العشرين، يضاف إلى ذلك الزلزال النفسي الخطير والهائل، الذي عاشه العراقيون في تلك الأيام، لذلك اقتنعت الأغلبية العظمى من المراقبين والمتابعين والاستراتيجيين باستحالة بروز مقاومة عراقية، على الأقل في تلك الأيام والأسابيع، وفي الأشهر اللاحقة وربما لسنوات عدة.

وحتى عندما سقط ٢٢ قتيلاً من القوات الأمريكية خلال الأيام العشرين من شهر نيسان/ أبريل والعشرات من الجرحى، لم يتحدث أحد عن مقاومين في العراق، يقفون وراء إلحاق هذه الخسائر بقوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية، وكان الجميع ينتظرون الإعلان الذي يصدر عن الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش، عن انتهاء العمليات العسكرية، الذي يستند إلى عدة عوامل، في مقدمتها قناعة القوات الأمريكية بالسيطرة على العراق، وبخاصة أنها في اليوم السادس للاحتلال قد أعلنت عن سيطرتها على ٥٠ ـ ٦٠ بالمئة من الأراضي العراقية، وبعد دخول بغداد توالت البيانات الأمريكية عن دخول مدن الموصل وكركوك وصلاح الدين والأنبار وديالى، وهي المناطق التي لم تشهد عمليات قتالية منذ بداية الغزو في ١٩/ ٣/ ٢٠٠٣، إذ اندفعت القوات الأمريكية والبريطانية من جهة الجنوب أي مدينة البصرة صعوداً، وكان إسقاط التمثال في ساحة الفردوس في ٩/ ٤/ ٢٠٠٣ أمام مختلف وسائل الإعلام الموجودة في فندق الميريديان، بمنزلة الإعلان الرسمي عن الانهيار التام والنهائي للمنظومة الحكومية بكل مؤسساتها وأجهزتها، بل انهيار العراق كاملاً.

لذلك نرى أن بداية وضوح المصطلح، للكثير من وسائل الإعلام العالمية، جاء بعد إعلان بوش بيان الانتصار في الأول من أيار/ مايو ٢٠٠٣، ويمكن قراءة ذلك من خلال الجملة التي لازمت التقارير والأخبار، التي تنشرها وسائل الإعلام، وتقول «وصل عدد القتلى من القوات الأمريكية إلى كذا وكذا منذ إعلان الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش انتهاء العمليات العسكرية في الأول من أيار/ مايو ٢٠٠٣». من الواضح، أن القائمين على منظومة التحليل الاستراتيجي في وكالات الأنباء العالمية وفي المؤسسات الصحفية والإعلامية الكبرى، قد بدأوا يقرؤون الواقع الميداني في العراق من زاوية جديدة، تحاول الاقتراب من صوغ مصطلح يتساوق مع ما يحصل في الميدان، وهو وقوع هجمات على القوات الأمريكية والبريطانية، ينسجم ومفهوم المصطلح المتعارف عليه عندما يقع أي بلد تحت الاحتلال. لذلك فخلال الأسابيع الأولى بعد إعلان «١/ ٥/ ٢٠٠٣» اضطر العديد من وسائل الإعلام العربية والأجنبية إلى استخدام مصطلح «عمليات مقاومة» في العراق، وهو ما فرضته هجمات المقاومة العراقية التي بدأت بالازدياد والانتشار في العديد من المناطق.

إن هجمات المقاومة العراقية، التي بدأت مسارها بقتل اثنين من الجنود الأمريكيين في ١٠/ ٤/ ٢٠٠٣ استناداً إلى اعتراف الجيش الأمريكي، لم تتوقف، وتواصلت منذ ذلك اليوم. وسنتحدث عن هجمات المقاومة حسب اعترافات البنتاغون، إضافة إلى

مصادر عراقية، روت لنا بعض الهجمات التي شنتها المقاومة، ولم تذكرها بيانات الجيش الأمريكي، كما نستند في تلك المعلومات إلى ما تناقلته بعض الصحف من خلال مراسليها وما بثته وكالات الأنباء العربية والعالمية.

اختطفت الشاشات الفضية من خلال البث الفضائي تغطية تطورات الأحداث المتسارعة في العراق، منذ الساعات الأولى من صباح الأربعاء في ٩/ ٤/ ٢٠٠٣، لدخول القوات الأمريكية قلب بغداد من جهة الرصافة، حيث اتجهت الدبابات الأمريكية صوب شارع فلسطين، الذي تقع فيه وزارة الري واللجنة الأولمبية، وعلى مقربة منه وزارة النفط، وعلى بعد عشرات الأمتار وزارة النقل والمواصلات. وسارعت الفضائيات إلى تكرار مشاهد السلب والنهب، التي حصلت في إشارة واضحة إلى أن أحداثاً أخرى لا وجود لها في العراق، بقصد تشجيع العراقيين على الغرق في وحل واحدة من أسوأ الرذائل، وهي السرقة والنهب والسلب.

واستمر الحال لعدة أيام، إذ تتكرر تلك المشاهد، وما إن يهبط الليل في تلك الأيام النيسانية الباردة، حتى يشعر المرء أن بغداد ومدن العراق الأخرى تئن وتذرف الدموع، وأن خوفاً مركّباً يدْهم العراقيين: الخوف من العصابات والمجرمين، والخوف من هؤلاء الغرباء، الذين يضعون نظارات معتمة على عيونهم، ويجلسون خلف رشاشاتهم فوق دبابات ضخمة جداً، لم يشاهد بمثل حجمها العراقيون إلا في أفلام هوليوود.

في اليوم الرابع لاحتلال بغداد (١٢/ ٤/ ٢٠٠٣)، توجهتُ إلى فندق الميريديان أمام ساحة الفردوس، لأطمئن إلى الأصدقاء والزملاء، وعند مدخل الفندق من جهة شارع السعدون، توقفت للحظات، وأنا أشاهد دبابة أبرامز ضخمة جداً، تحيط بها أجهزة إلكترونية وأسلحة مختلفة، ويجلس في قمرتها جنديان أمريكيان يحدجان بنظرات تزخر بالزهو وترمي ذؤابات من الإهانة والاحتقار على العراقيين، ولسان حالهم يقول: نحن أسيادكم، لأنكم شعب مهزوم، ونحن جيش قوي شجاع، انتصر عليكم. وبقصد أو من دون قصد، يحرك جندي المارينز حذاءه صوب وجوه المواطنين الذين كانوا يسيرون في شارع السعدون، حينها سحبت نفساً عميقاً، وأدركت لماذا يجب أن تقاوم الشعوب من يحتلها. في تلك الأثناء لم أدرك أن المقاومة بدأت شوطها منذ ثلاثة أيام، إذ لم تسلّط الفضائيات ووسائل الإعلام الأخرى أي بقعة ضوء على فعل رجال المقاومة العراقية، إذ ربما كان القائمون على تلك الوسائل قد وقعوا تحت سطوة سحر القوة الأمريكية التي لا تقاوم لأنها (أمريكا) لا تُهزم أبداً، وأن ضبابية ما زالت قائمة في استخدام

المصطلحات، لذلك وجدوا في ما يحصل ليس بأكثر من جيوب قتالية، رغم أن هذا الوصف لا يصلح على الإطلاق في العراق في ذلك الوقت.

طيلة الأيام العشرين، لم يتنبه العراقيون إلى النتَف المقتضبة في سياق نشرات الأخبار، التي تتحدث عن سقوط قتلى أو جرحى أمريكيين، كما أن أحداً لم يلتفت إلى ما إذا كان ذلك جراء حوادث السير، كما دأبت البيانات الأمريكية على قول ذلك، أو بنيران صديقة. ووسط هذا الخلط الشديد وعدم وضوح الصورة، فقد حصلت هجمات شنها المقاومون، واعتقد الكثيرون أنها ليست بأكثر من الزفرة الأخيرة، ولم يتصوروا أنها كانت الاستشاطة الأولى في مقاومة ستسجل في صفحات التاريخ أنها الأسرع عبر التاريخ الحديث، وأن المئات سيلتحقون بصفوفها خلال أيام، وقبل أن تكمل شهرها الثالث، سيكون مقاتلوها بالآلاف.

أولى الهجمات التي نفذها المقاومون في العراق، حصلت في يوم الخميس العاشر من نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، واعترف بيان للجيش الأمريكي بمقتل أحد جنود المارينز في بغداد، وبينما توزعت عشرات نقاط التفتيش التي أقامتها القوات الأمريكية في مناطق بغداد وفي محيطها، اقترب أحد الأشخاص من واحدة من نقاط التفتيش تلك، التي أقامتها القوات الأمريكية في العاصمة العراقية، وفوجئ المارينز بالهجوم الذي نفذه أحد رجال المقاومة، وقال بيان للجيش الأمريكي إن جندياً من المارينز قد قُتل في ذلك الهجوم، وأعلن البنتاغون في وقت لاحق اسمه وقال في بيان يوم السبت في ١٢/ ٤/ ٢٠٠٣ أن تيري هيمنغواي قد قُتل في هجوم وقع يوم العاشر من نيسان/ أبريل في بغداد، وهو أول قتيل بعد التاسع من نيسان/ أبريل. لذلك اهتمت به بعض وسائل الإعلام وكتبت صحيفة **التايمز**[٥] عنه تقول «إنه القتيل الأول بعد السيطرة على بغداد، وإنه من مواليد ٢٩ أيلول/ سبتمبر عام ١٩٦٣، والتحق بالجيش الأمريكي بعد إنهائه الدراسة الثانوية عام ١٩٨١»، وتفاخرت الصحيفة به بعددها الصادر يوم ١٩/ ٤/ ٢٠٠٣.

وتحدثت صحيفة **يو أس أي توداي**[٦] الأمريكية الواسعة الانتشار عن حياة تيري، وأجرت وكالة «أسوشيتد برس»[٧] مقابلات مع عائلته، ذكروا فيها أنه قطع تذكرة على طائرة لوكربي الشهيرة التي سقطت في ثمانينيات القرن الماضي، إلا أنه تأخر عن

(٥) *Times*, 19/4/2003.

(٦) *USA Today*, 19/4/2003.

(٧) بثّت وكالة «أسوشيتد برس» للأنباء مقابلات مع عائلة القتيل تحدّثوا فيها عن حياته وعلاقاته بعد أيام من مقتله.

موعد الطائرة وسافر على الرحلة التالية لها، وبهذا نجا من موت محقق. وقالت والدته إن ولدها توفي هناك لأنه ذهب لمساعدة الناس الذين كانوا في «عبودية» ويسعون للحصول على حريتهم، وإنه لم يمت عبثاً وترك تيري وراءه ثلاثة أبناء (دانيشا وإلفينيسيا وجونيور). إلا أن من الملاحظ أن وسائل الإعلام الأمريكية لم تهتم في مرحلة لاحقة بتفاصيل حياة القتلى من الجيش الأمريكي، الذين تواصل سقوطهم على أيدي المقاومة العراقية، بسبب الأعداد الكثيرة، كما أن الرئيس جورج دبليو بوش منع وسائل الإعلام من الوصول إلى المطارات التي تستقبل جثامين القتلى القادمين من القاعدة الأمريكية في ألمانيا بعد نقلهم من قاعدة البكر الجوية شمال بغداد.

خدم تيري همينغواي (أول قتلى القوات الأمريكية) في قوة السرية الثالثة التابعة للكتيبة الأولى من الفوج الخامس عشر مشاة ومقره ولاية جورجيا، وهو برتبة رقيب. كما أعلن البنتاغون المعلومات الخاصة بالقتيل الثاني الذي سقط بنيران المقاومة العراقية. وقال بيان صادر عن وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون)[٨] إن القتيل الثاني هو الرقيب جيفري إدوارد (٣٩ عاماً) من نيوجيرسي، وقتل ببغداد يوم الخميس العاشر من نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، وهو من قوة الكتيبة الثالثة في الفوج الخامس عشر للفرقة الثالثة مشاة ومقره ولاية جورجيا. وقالت وكالة «أسوشيتد برس» في تقريرها عن القتيل، إنه قتل في معركة في شمال بغداد بمعركة استمرت سبع ساعات، التحق بالجيش بصفة حارس وبعدها أصبح أحد أفراد مشاة البحرية، وقد شارك في الإنزال بالمظلات في غرينادا، وساعد على إطاحة الرئيس البنمي نورييغا، وشارك في حرب الخليج العام ١٩٩١. لم يكن لديه أطفال وعلمت زوجته بمقتله أثناء قيادتها السيارة. وقبل مغادرته إلى العراق انتقد والده بشدة وقال إنه يشكك في إرسال قوات إلى العراق، وخاطب والده بالقول «أنت لا تعرف الكثير عن ذلك كما أفعل أنا، ونحن بحاجة إلى الذهاب إلى هناك».

كان أهالي الجنود الأمريكيين قد احتفلوا في ساعات الصباح الأولى من يوم الأربعاء التاسع من نيسان/ أبريل وهم يتابعون مشاهد إسقاط تمثال الرئيس صدام حسين في ساحة الفردوس أمام فندق المريديان، وبينما كانت الساعة في حدود الخامسة عصراً حسب توقيت بغداد المحلي، كان الوقت صباحاً في الولايات الأمريكية، إذ يسبق العراق الولايات المتحدة بحدود ثماني ساعات، وابتهجت عوائل الجيش الأمريكي والبريطاني وأحباء أمريكا القريبون والبعيدون، متصورين أن لا صوت بعد هذه الساعات لإطلاق

(٨) ذكر بيان وزارة الدفاع الأمريكية سقوط قتيلين في بغداد يوم العاشر من نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، كما ذُكِرَت تفاصيل عن القتيلين المذكورين في: *USA Today*, 10/4/2003.

النار، وأن الحال سيكون مشابهاً تماماً لما جرى بعد الانتصار الذي حققه الحلفاء في الحرب العالمية الثانية العام ١٩٤٥ على كل من ألمانيا واليابان، وأن لا صوت بعد الساعة إلا لأمريكا وأتباعها. وبدأت العوائل الأمريكية تعد العدة لبدء رجوع جنودها معززين مكرمين، يحملون أوسمة الشجاعة. إلا أن أول صدمة كانت لعائلتي تيري همينغواي وجيفري إدوارد. ومنذ تلك الساعة بدأ مسلسل إرسال الجثامين والمعاقين والمجانين من القوات الأمريكية والبريطانية، ولم يدم الحلم الاحتفالي لعوائل جيوش الاحتلال، فقد انطلقت قوة المقاومة العراقية وتواصلت لتقلب جميع الموازين وتقتل كل الأحلام المريضة والبائسة.

ونشرت صحيفة **يو أس أي توداي** الأمريكية صور هؤلاء القتلى، وتم تثبيت تاريخ قتلهم في العاشر من نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، وهو اليوم الأول لبدء المقاومة العراقية ضد الاحتلال الأمريكي[٩].

ولا ندري ربما يكون تيري حفيد الروائي الأمريكي الشهير إرنست همينغواي صاحب روايتي **الشيخ والبحر** و**لمن تقرع الأجراس** أو ربما من العائلة نفسها، وكان ضابط أمريكي قد أفاد لمراسلي وكالات الأنباء المرافقة للقوات الأمريكية (المارينز) أن قواته قد واجهت (الخميس) مقاومة عنيفة على الضفة الشمالية لنهر دجلة، موضحاً أن أحد رجال المارينز قد قتل وأن ١٣ آخرين جرحوا في هذه المعارك[١٠].

لم يدر بخلد الضابط الأمريكي أن لفظة «المقاومة» ستتحول إلى واقع حال وفعل يومي لا ينقطع، ما يؤدي إلى قلب موازين القوى والتأثير في جوهر وهيكل الخطط الأمريكية في العراق. ونقلت الوكالات خبراً مقتضباً نصه أن «فدائياً فجّر نفسه في مجموعة من الجنود الأمريكيين عند حاجز عسكري في بغداد بالقرب من فندق فلسطين مريديان، ما أدى إلى مقتل جندي وإصابة عدد آخر بعضهم في حالة الخطر». ونُشر هذا الخبر في اليوم التالي لبثه أي يوم ١١/ ٤/ ٢٠٠٣، ونشرت ذلك الكثير من صحف العالم في طبعتها التي صدرت في اليوم التالي، وفي اليوم نفسه قالت وكالات الأنباء أن معارك عنيفة وقعت في منطقة الأعظمية، وتحاشت الكثير من وسائل الإعلام الإشارة إلى اسم المنطقة، واكتفت بالقول، إن خمسة مدنيين قتلوا وجرح ستة آخرون في معركة «المسجد»، المقصود به مسجد الإمام أبو حنيفة النعمان في منطقة الأعظمية، وأفاد

(٩) المصدر نفسه.
(١٠) **الرياض**، ١١/ ٤/ ٢٠٠٣.

سكان الحي أن معارك عنيفة وقعت، ودُمرت خلالها دبابتان أمريكيتان، ولم تعترف بيانات القوات الأمريكية بهذه الخسائر، التي تأكدت دقتها من خلال روايات سكان المنطقة.

ونقلت بعض وسائل الإعلام خبراً لا يزيد على سطر واحد تحدث عن إصابة أربعة جنود أمريكيين عندما تعرضوا لإطلاق نار جنوب بغداد، في إشارة إلى اليوم الرابع للاحتلال الأمريكي للعراق (١٣/ ٤/ ٢٠٠٣)، من دون إعطاء تفاصيل عن طبيعة الهجوم وعدد المشاركين فيه وأنواع الأسلحة المستخدمة[١١].

لقد اعترفت البيانات الصادرة عن وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) بسقوط ٢٢ قتيلاً من قواتها خلال الفترة من العاشر من نيسان/ أبريل وحتى الثامن والعشرين منه، عام ٢٠٠٣، وهي الفترة الممتدة من أول يوم من الاحتلال الأمريكي في العاشر من نيسان/ أبريل حتى إعلان الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش الانتصار في العراق وانتهاء العمليات العسكرية في الأول من أيار/ مايو ٢٠٠٣، وسقط القتلى الأمريكيون حسب التسلسل التالي من أيام شهر نيسان/ أبريل:

ـ يوم ١٠: قتيلان، ويوم ١١: قتيل واحد هو رايان توجيدا ٢٦ عاماً من قوات المارينز من نيويورك وقتل أثناء عمليات قتالية ببغداد، وقالت والدته في مقابلة لمجلة **وينشستر ستار** إنها كانت تراقب التلفاز أثناء الحرب عسى أن تراه. وتضيف، أنها كانت تتألم عند مقتل الجنود وتتعاطف مع عوائلهم لكن مقتله كان مؤثراً جداً بالنسبة إليها، وأبلغ قادة المارينز بخبر موته وقالوا بأنه أصيب برأسه خلال اشتباك مع مسلحين في بغداد وتوفي في طريقه إلى المستشفى.

ـ يوم ١٢: سقط قتيلان هما: جيسز غونزاليز وعمره ٢٢ عاماً من قوات المارينز، يقطن كاليفورنيا وقتل ببغداد؛ وعريف البحرية أوينز ديفيد عمره ٢٠ عاماً من فرجينيا وقتل ببغداد.

ـ يوم ١٣: قتيلان هما: جل ميركادو ٢٥ عاماً من الجيش الأمريكي نيوجيرسي وقتل بمطار بغداد؛ والثاني هو جوزيف أكيفيدو ٤٦ عاماً من مشاة البحرية وسكان نيويورك.

---

(١١) **الشرق الأوسط**، ١٤/ ٤/ ٢٠٠٣.

ـ يوم ١٤: ستة قتلى (وهو أكبر عدد يسقط فيه قتلى من الجيش الأمريكي في الأيام الأولى من الاحتلال) وهم كل من توماس فولي وباتريك جوزيف وأرماندو غونزاليز وريتشارد الين وديفيد جاسون وجون براون. وبينما تم الإعلان عن مقتل آخر ثلاثة ببغداد، فلم يتم توضيح أمكنة قتل الآخرين.

ـ يوم ١٧: سقط قتيل واحد هو جون ريفيرو عمره ٢٣ عاماً من الجيش الامريكي يقطن فلوريدا وقتل خلال هجوم للمقاومة العراقية في تكريت.

ـ يوم ٢٢: أربعة قتلى هم كل من أندريو أرنولد وجي آر روبرت وليام وألان لام سقطوا جميعاً في الكوت.

ـ يوم ٢٥: قتيلان هم كل من أوزبالدو أوروزكو ونارسون سولفيان؛ قتل الأول قرب تكريت دون الإشارة إلى مكان قتل الثاني.

ـ يوم ٢٨: قتيل واحد هو جو جارزا يبلغ من العمر ٤٣ عاماً من الجيش الأمريكي عريف أول يقطن تكساس وقتلته المقاومة العراقية في بغداد[١٢].

جميع هؤلاء سقطوا قتلى بأيدي المقاومين الذين تصدوا للاحتلال الأمريكي منذ يومه الأول. إن سقوط اثنين وعشرين قتيلاً خلال عشرين يوماً في أول أيام الاحتلال الأمريكي للعراق على أيدي رجال المقاومة العراقية، ليس بالأمر البسيط، وهنا نتحدث عن القتلى الذين اعترف بهم الجيش الأمريكي، في حين تجاهلت البيانات الأمريكية خسائر أخرى، ولم تأتِ على ذكرها إطلاقاً. على سبيل المثال، عند مراجعتنا للبيانات الأمريكية التي صدرت يوم الجمعة في ١٨/ ٤/ ٢٠٠٣ وفي الأيام التالية، لم تتطرق إلى واحدة من المعارك الشرسة، التي وقعت في جانب الكرخ من مدينة بغداد، بالقرب من منطقة نفق الشرطة، إذ هاجم عدد من المقاومين رتلاً للقوات الأمريكية، في الشارع المؤدي إلى طريق مطار بغداد الدولي، وكان ذلك في حدود الساعة الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم (الجمعة) وهو اليوم الثامن للاحتلال الأمريكي للعراق، وذكر شهود عيان للمؤلف من أبناء منطقة حي الشرطة ببغداد[١٣]، أن المقاومين استخدموا قاذفات أر بي جي ٧

(١٢) نُشرت صورهم وأسماؤهم وتواريخ وأماكن قتلهم على المواقع الإلكترونية الخاصة بقتلى الجيش الأمريكي في العراق ومن بينها موقع مايكل وايت، iCasualties.org Iriaq Coalition Casuality Count, <http://icasualties.org/iraq/index.aspx>.

(١٣) شاهد عيان روى للمؤلّف تفاصيل الهجوم الذي استهدف دورية للقوات الأمريكية في ذلك اليوم، كان في مكان الهجوم لحظة وقوعه.

(RPG 7) وأسلحة خفيفة، وتمكنوا من إحراق ناقلة جنود نوع هَمر وقتلوا جميع من كان بداخلها، وأصابوا ناقلات أخرى، وردت القوات الأمريكية بنيران أسلحتها على المهاجمين، وسقط اثنان منهم قتلى في المكان، ولم تعترف البيانات الأمريكية بوقوع قتلى في صفوف قواتها خلال يوم ١٨ وهو يوم الهجوم الذي أشرنا إليه ولا في الأيام اللاحقة (١٩، ٢٠، و٢١) من شهر نيسان/ أبريل، في حين تأكد لكل من كان قريباً من مكان الهجوم أن قتلى الجيش الأمريكي ليس بأقل من ثلاثة إلى أربعة جنود، فقد احترقت العربة القتالية التي كانوا يستقلونها بالكامل، ولم يخرج أي شخص منها، وهذا دليل قاطع على كذب البيانات الأمريكية وعدم اعترافها بجميع الهجمات التي تشنها المقاومة العراقية ضدها. وتواصلَ هذا الكذب طيلة سنوات الاحتلال، والقصص والشواهد كثيرة جداً.

وبعد أن وثّقنا لقتلى الجيش الأمريكي بالأسماء والتواريخ وبعض الأماكن، فإن القارئ قد يربط بين أسماء بعض القتلى والمعارك التي سنتحدث عن بعضها في السطور اللاحقة.

شهد اليوم الثالث لاحتلال العراق هجوماً آخر ضد القوات الأمريكية، إذ شن قناصة مقاومون هجوماً على القوات الأمريكية ليلة ١٣/ ٤/ ٢٠٠٣ من مبنى بالقرب من فندق فلسطين مريديان، الذي اتخذته القيادة العسكرية الأمريكية مقراً مؤقتاً لها. وتبادل الجنود الأمريكيون إطلاق النار معهم، وقال مراسل وكالة «رويترز» للأنباء في تقرير له[١٤] إنه سمع أصوات إطلاق النيران لعدة دقائق، وأطلقت قذائف مضيئة لإنارة المنطقة، أعقب ذلك فترة سكون ثم عاد إطلاق المزيد من النيران والقذائف المضيئة. ويعطي المراسل الصحفي تصوره لما يجري في بغداد خلال الأيام التي تلت إسقاط التمثال في ساحة الفردوس، ويقول: إن مثل هذه الرشقات تتكرر كثيراً في بغداد منذ أن استولت القوات الأمريكية على بغداد أواخر الأسبوع الماضي.

بلا شك، إن المقاتلين الذين يشنون هجماتهم على القوات الأمريكية الموجودة في فندق الميريديان، لا يمكن اعتبارهم من «الجيوب المقاتلة»، التي لا تعرف تفاصيل ما حصل في العراق، وأن هؤلاء المقاتلين، لم يؤثر بدواخلهم الزلزال الهائل الذي أصاب العراقيين، وأنهم قد اختاروا طريق المقاومة ولا حياد عنه ولا تراجع، وهذا ما تأكد خلال

(١٤) نقلاً عن مراسل وكالة «رويترز» للأنباء في بغداد. انظر: وكالة «رويترز» للأنباء، ١٣/ ٤/ ٢٠٠٣، <http://ara.reuters.com>.

الأيام والأشهر والسنوات اللاحقة. ورغم أن هؤلاء المقاومين لم يصدروا بياناً يتضمن تفاصيل الهجوم، الذي نفذوه بأسلحة القنص ضد القوات الأمريكية، إلا أن فعلهم المقاوم، أرغم وسائل الإعلام المقيمة في فندق الميريديان على توثيقه والاعتراف به، كما أن هجوم المقاومة العراقية. الذي حصل في اليوم الثالث من الاحتلال في جنوب شرق العاصمة، ذهب أدراج الرياح، ولم يعرف به العراقيون، مثل آلاف الهجمات التي لم يتعرف إلى تفاصيلها العراقيون والرأي العام الدولي.

أما هذا الهجوم فقد ضرب منفذوه هدفين في آن معاً، فهُم بالتأكيد أصابوا جندياً أو أكثر في رأسه أو رقبته أو أي مكان قاتل لأن سلاح القنص يباغت العدو، ولا يطلق القناص رصاصته من دون أن تصيب مقتلاً. أما الهدف الثاني الذي لا يقل أهمية عن الأول، فهو الإعلان عن الهجمات أمام وسائل الإعلام الموجودة في فندق المريديان، والوصول بهذا الفعل إلى الرأي العام رغم التعتيم الواسع والكبير على الهجمات التي تتعرض لها القوات الأمريكية. إلا أن متحدثاً أمريكياً هو الكابتن مايك أوتش من القوات الأمريكية، لم يعترف بأي إصابة بين الجنود الأمريكيين، لكنه اعترف بحصول الهجوم، بمعنى أن هناك هجوماً قد تعرضت له القوات الأمريكية، ولا يختلف إثنان أن الذين نفذوا الهجوم على القطعات العسكرية الأمريكية في محيط فندق المريديان، هم المقاومة.

وكُشفت تفاصيل مقتل أحد جنود المارينز في بغداد، في اليوم الخامس للاحتلال (الثلاثاء ١٥/ ٤/ ٢٠٠٣)، حسب ما ذكرها البيان العسكري الصادر عن القوات الأمريكية، مشيراً إلى وجود خوف بدأ يدبّ في دواخل الجنود الأمريكيين، بعد أن تواصلت الهجمات على دورياتهم، وهو بخلاف ما توقعوه في الساعات الأولى لاحتلالهم العراق، حيث ستكون زاخرة باللحظات السعيدة، وتتناثر باقات الورود فوق رؤوسهم. إلا أن حالة من «الصدمة والترويع» بدأت تتغلغل في دواخل الجنود الأمريكيين، حيث أشار البيان الصادر من القيادة الأمريكية الوسطى إلى مسألة الخوف صراحة، التي تسيطر على جنود المارينز.

ومن دون أدنى شك، إن مصدر هذا الخوف هو هجمات المقاومين، وهذا ما يؤكده نص ما ورد في البيان العسكري الأمريكي الذي جاء فيه أن «أحد رجال المارينز قُتل صباح الثلاثاء في ١٤/ ٤/ ٢٠٠٣، بعد أن اعتقد جنود أنه من الأعداء». واستخدام البيان الأمريكي لفظة «أعداء» التي تعني وجود قوة مسلحة تهاجم القوات الأمريكية،

بعد اعتراف القوات الأمريكية[١٥] في بيان لها صدر الأربعاء في ١٦/ ٤/ ٢٠٠٣ أن اثنين من جنودها قُتلا يوم الاثنين في ١٤/ ٤/ ٢٠٠٣ حينما انفجرت قنبلة يدوية داخل مركبتهما. ومن الواضح أن المقاومين العراقيين شنوا هجوماً بالقنابل اليدوية في شوارع بغداد، وتمكنوا من قتل هذين الجنديين، ولم نحصل على شاهد عيان ليحدد لنا تفاصيل هذا الهجوم والمكان الذي وقع فيه، يثبت أن روح التحدي قوية عند المقاومين، فقد بدأت الهجمات على شكل مواجهة مباشرة، إذ إن استخدام القنبلة اليدوية يعني اضطرار المقاوم إلى الاقتراب مسافة لا تزيد على عشرة أمتار من الدورية الأمريكية، التي غالباً ما تتكون من ثلاث أو أربع عربات، يجلس في قمرة كل عربة جندي أمامه مدفع رشاش، قادر على إصابة وقتل أي شخص لمسافة ٣٠٠ متر أو أكثر. وعلينا أن نعرف أن الهجمات التي نتحدث عنها تحصل في أرض منبسطة وليس هناك أدغال أو كهوف أو ما شابه ذلك، وشوارع بغداد مفتوحة؛ ويعبّر ذلك عن أعلى درجات التحدي لقوات الاحتلال بكل ما تمتلك من أسلحة وتجهيزات متطورة جداً.

في اليوم السادس للاحتلال (١٥/ ٤/ ٢٠٠٣)، انتقلت وسائل الإعلام إلى مدينة الربيع (الموصل) على بعد ٥٠٠ كم شمال غرب بغداد، فقد اعتاد الموصليون والكثير من العراقيين الاحتفال في أيام نيسان/ أبريل من كل عام بأيام الربيع، حيث تتفتح الزهور، وتمتد لوحة الخضرة في كل مكان، إلا أن المراسلين في هذا اليوم، نقلوا مشاهد الاحتجاج الواسعة التي بدأت في الموصل؛ إذ خرج المئات في تظاهرات ضد الاحتلال الأمريكي، وتفجرت الأوضاع هناك، ونقلت وسائل الإعلام عن شهود عيان أن ١٠ أشخاص قد قُتلوا وجرح مئة آخرون برصاص جنود أمريكيين أثناء تظاهرة انطلقت وسط المدينة. واعترف الجيش الأمريكي بتعرض قواته لإطلاق نار، وقال الجنرال فنسنت بروكس في مقر القيادة الأمريكية في الدوحة، إن قواتهم المتمركزة في أحد المباني وسط مدينة الموصل، قد تعرضت لهجوم من قبل مسلحين.

ونقلت وكالة «فرانس برس»[١٦] عن مسؤول في أحد مستشفيات الموصل، أن عدد القتلى من العراقيين كانوا ١٥ شخصاً وأصيب ٢٨ آخرون بجروح. وتعاملت وسائل الإعلام مع هذا الحدث في سياق الأحداث البسيطة، في حين يتحدث الواقع اليومي عن

---

(١٥) بيان صادر من الجيش الأمريكي يوم ١٦/ ٤/ ٢٠٠٣، اعترف فيه بسقوط القتلى يوم ١٤/ ٤/ ٢٠٠٣.

(١٦) نقلت وكالة الصحافة الفرنسية عن مسؤولين في مستشفى الموصل، كما تحدّث عن ذلك الجنرال فنسنت بروكس في مقرّ القيادة الأمريكية في الدوحة يوم ١٥/ ٤/ ٢٠٠٣. انظر: وكالة «فرانس برس» (أ. ف. ب.)، <http:// www.afp.com/ar>.

فعل آخر، لا يدرك كنهه الكثيرون، ولا يقتنع الأغلبية من الناس بأن ما يجري، هو شرارة المقاومة العراقية، التي انطلقت في وقت مبكر جداً. ولم تقتصر الهجمات على العاصمة العراقية لوحدها، بل انتشرت في العديد من المناطق العراقية، من بينها مدينة الموصل.

في مكان آخر وعلى بعد آلاف الكيلومترات، كان الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش وطاقمه الرئاسي وكبار مستشاريه ومعاونيه، يعيشون وسط أجواء تزخر بالابتهاج والاحتفالية؛ ليس هذا وحده بل تزداد ثقتهم بمستقبلهم الزاهر في العراق، من دون أن يدركوا أن كرة النار التي ستحرقهم بدأت تتدحرج في مناطق عديدة من العراق. في هذه الأثناء، وفي اليوم السادس من الاحتلال، قال جورج دبليو بوش «إن الانتصار في العراق أمر مؤكد، وإن عراقاً حراً سيكون نبراساً للحرية والتقدم في الشرق الأوسط كله»[١٧]، بحسب الصحافة الأمريكية الصادرة يوم ١٦/ ٤/ ٢٠٠٣.

وفي اليوم نفسه الذي تحدث فيه بوش الإبن عن الانتصار الكبير على العراق، وصل الجنرال تومي فرانكس قائد العمليات العسكرية في العراق إلى بغداد، وكان قد أعلن قبل ذلك التاريخ بيومين أنه يعتزم التوجه مع فريقه إلى بغداد لتفقد الجنود الذين قاموا بهذا العمل الجبار في بغداد ومحيطها ـ على حد قوله ـ في مقابلة بثتها مع تومي فرانكس شبكة «فوكس نيوز» الأمريكية[١٨]. وتوقع المراقبون والمحللون، أن فرانكس سيحدد موعد انتهاء العمليات العسكرية في العراق، وقالت متحدثة أمريكية في قاعدة السيلية (رومي نلسون غرين) في يوم وصوله إلى بغداد «ليست لدي تقديرات ولا توقعات عن موعد هذا الإعلان، ولا أستطيع أن أتنبأ بما يدور في رأس الجنرال»[١٩].

بعد غروب شمس يوم الأربعاء في ١٦/ ٤/ ٢٠٠٣، وهو اليوم السابع لاحتلال العراق، وبينما كان بوش يعلن ابتهاجه في البيت الأبيض، ويجلس تومي فرانكس في القصر الرئاسي وسط بغداد، يحدج نهر دجلة بنظرات الجنرال المنتصر، ويربّت على أكتاف ضباطه وجنوده متوقعاً لهم عودة سريعة وميمونة إلى الولايات المتحدة، في تلك اللحظات دوت سلسلة من الإطلاقات وسمع دويّ انفجارات في شارع السعدون وسط مدينة بغداد في جانب الرصافة أي في المنطقة المقابلة لمقر إقامة تومي فرانكس، ولم

---

(١٧) نُشِرت تصريحات الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش في الصحف العربية والعالمية، وتناقلته أيضاً وكالات الأنباء يوم ١٦/ ٤/ ٢٠٠٣.

(١٨) مقابلة أجرتها شبكة فوكس نيوز الأمريكية مع تومي فرانس، انظر: Fox News, <http://www.foxnews.com>، كما ذكرت ذلك أيضاً وكالة الصحافة الفرنسية بتاريخ ١٦/ ٤/ ٢٠٠٣.

(١٩) وكالة «فرانس برس» (أ. ف. ب.)، ١٦/ ٤/ ٢٠٠٣، <http://www.afp.com/ar>.

يكن الهجوم هذه المرة بالقرب من فندق الميرديان في ساحة الفردوس الشهيرة، بل هاجم المقاومون العراقيون قوات المارينز المتمركزة قرب المسرح الوطني في شارع السعدون بحي الكرادة (ويبدو أن المقاومين قد اختاروا قوات المارينز الموجودة في هذه النقطة بالذات، حيث يتواجد عدد كبير من المراسلين الصحفيين في فندق سجمان الذي تتمركز بالقرب منه قوات المارينز).

وذكر شهود عيان أن القوات الأمريكية تفاجأت بالهجوم الذي استخدمت فيه قاذفات صواريخ وأسلحة رشاشة وقنابل يدوية، واضطر جميع الذين صودف وجودهم في هذه المنطقة التجارية، إلى مغادرة المكان على وجه السرعة بسبب كثافة النيران التي وجهت صوب القوات الأمريكية. ولم تتطرق بيانات القوات الأمريكية إلى هذا الهجوم، إلا أن مراسل وكالة الأنباء الوطنية السويدية «تي تي»[٢٠] روى بعض جوانبه، وقال إن إطلاقاً مكثفاً للنار اندلع بين قوتين عسكريتين غير معروفتين، وأكدت ذلك صحيفة **افتو نبلابيت** السويدية التي تصدر في استوكهولم، حيث تعرضت غرفة مراسلها بنجت ثيرنر الذي يقطن الفندق إلى إطلاق نار، وأنه كان في تلك الأثناء خارج الغرفة، واندلع حريق في الفندق إثر المواجهات المسلحة.

لا شك في أن ذلك الهجوم الذي شنته المقاومة العراقية، كان بمنزلة بيان عسكري، اضطرت وسائل الإعلام الموجودة هناك إلى نشره في الكثير من دول العالم، إلا أن جميع وسائل الإعلام، لم تتعامل مع ذلك الهجوم على أنه «مقاومة» وظلت الغائمية تتحكم بالمصطلحات، إذ يردد الأمريكيون أن «جيوباً» معزولة ويائسة ما زالت هنا وهناك، وأنها ضئيلة ويائسة. وهذا ما تعتمده وسائل الإعلام العالمية، التي وجدت فيه الكثير من الواقعية، لأن القوات الأمريكية هي من القوة بحيث وصلت بغداد بسرعة كبيرة. وعلى الطرف الآخر، فإن تجارب الأمم والشعوب التي تعرضت للاحتلال، تؤكد أن أي مقاومة، إذا حصلت، فإنها لن تبدأ قبل سنوات، وأن العراقيين وجدوا أمامهم قوة أمريكية هائلة، تبث الرعب في قلوب الجميع، وتزرع اليأس المخيف، ولا تعطي بارقة أمل لمن يحمل السلاح بوجه هذا العملاق الهائج (أمريكا). كما أن جميع المراقبين والمحللين والسياسيين، كانوا يترقبون إعلان الانتصار الرسمي، عبر بيان يلقيه الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش، يعلن فيه بداية الحقبة الأمريكية في العراق، المتمثلة ببسط

---

(٢٠) روى مراسل وكالة الأنباء الوطنية السويدية «تي تي» بعض جوانب الهجوم، انظر: TT Nyhetsbyrån, <http://tt.se/>، وأكّدت ذلك صحيفة **أفتونبلاديت** السويدية الصادرة في استوكهولم، انظر: *Aftonbladet* (Stockholm), 14/4/2003.

السيطرة الأمريكية على العراقيين جميعاً وعلى أرضهم، التي تبلغ مساحتها ٤٤٤ ألف كم٢، وعدد العراقيين سبعة وعشرون مليون نسمة (في سنة الاحتلال)، وبعد إعلان الانتصار، فإن صوتاً لا يعلو على صوت الأمريكيين، ولا سلاح إلا بيد قواتهم المنتشرة في مختلف أنحاء العراق.

لم يكن بوش وفرانكس ورامسفيلد وحدهم متفائلين بالحقبة الأمريكية الوردية في العراق، بعيداً من أي حضور للون الأحمر الأمريكي على أرض العراق. ففي اليوم السابع للاحتلال الأمريكي، أكد ضابط أمريكي كبير، أن الشرطة العراقية ستتمكن من حفظ الأمن في العراق خلال أسبوعين فقط، وقال المقدم إلين كينغ في فندق فلسطين ميرديان، إن قوة كبيرة من الشرطة العراقية ستبدأ عملية حفظ الأمن والنظام والقانون خلال أسبوعين، بمعنى أن برنامج السيطرة الأمريكية المطلقة على العراق يسير وفق خطة دقيقة وواضحة، وأن «الجيوب القتالية» اليائسة والبائسة في طريقها إلى الاختفاء والتلاشي بسرعة كبيرة، وأن الساعات أو الأيام القليلة القادمة ستشهد خواء الآخرين وعلو الراية الأمريكية، ولا حضور بعد ذلك إلا لإرادتها.

إن الصورة الوردية والتفاؤل الكبير اللذين يملآن صدور وعقول القادة الأمريكيين، ينبثقان من قناعة راسخة بخنوع أبناء العراق وقبولهم بالاحتلال الأمريكي، وأنهم سيتحولون إلى أدوات رخيصة تنفذ ما يريده الأمريكيون؛ من الواضح، أنهم لم يضعوا في حساباتهم اندلاع مقاومة عراقية شرسة وسريعة، وهذه القناعة الخاطئة دفعت القائد الأمريكي ليرسم أمام الصحفيين لوحة وردية عن أمن العراق، وأن قوات الشرطة ستوفر الأمن في مختلف أنحاء العراق خلال أسبوعين، أي قبل موعد إعلان الرئيس الأمريكي «الانتصار الكبير في العراق» بأيام قليلة.

في الوقت الذي واصل الأمريكيون تفاخرهم بالانتصار الكبير في العراق، وامتلأت بذلك الزهو التاريخي صحفهم اليومية والفضائيات والإذاعات، لم يكن أغلب العراقيين على معرفة بتفاصيل ما يحصل في المدن والمحافظات العراقية، إذ لم تكن هناك وسائل إعلام محلية، من صحف وفضائيات، وحتى عندما ظهرت بعض تلك الصحف بعد أسابيع من بداية الاحتلال، فإن أعداد النسخ التي توزعها هذه الصحف لا يتجاوز آلافاً قليلة، إذ تطبع وتوزع هذه الصحف بين ١٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ نسخة، وهذا العدد يمثل نسبة ضئيلة جداً قياساً على سكان العراق (حوالى ٢٧ مليون نسمة)، يضاف إلى ذلك مشكلة التوزيع، إذ لا توجد شبكة توزيع للمطبوعات، وفي قلب العاصمة بغداد هناك الكثير من المناطق لا تصل إليها المطبوعات، فكيف حال المدن والقرى والأرياف النائية. حتى

الصحف التي صدرت في ذلك الوقت فإنها تروّج للأمريكيين ومشروعهم ووقفت ضد أي فعل مقاوم يتصدى لقوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية لأسباب معروفة.

أما البث الفضائي، فقد أخذ ينتشر بصورة سريعة، وغرقت الأسواق العراقية بالأطباق اللاقطة، وأجهزة الاستقبال الفضائي، وازداد إقبال العراقيين على وضع تلك الأطباق فوق أسطح المنازل للمرة الأولى بصورة علنية، بعد أن كانت ممنوعة قبل الاحتلال في ربيع العام ٢٠٠٣ بأمر من السلطات الرسمية. وما تجدر الإشارة إليه هنا، أن الفضائيات لا تنقل جميع الأحداث وكل تفاصيل الشأن العراقي، وهي تبقى أسيرة أجندة عالمية معروفة، تفرض الولايات المتحدة هيمنتها بقوة عليها؛ لذلك فإن محدودية وتقنين التدفق الإعلامي الذي عاشه العراقيون في الحقبة الأولى من الاحتلال، أثر سلباً في إطلاع الرأي العام على الكثير من الأمور وماجريات الأحداث حتى داخل العراق. لهذا فإن أبناء هذه المدينة لا يعرفون شيئاً عن الهجمات وحجمها التي يشنها المقاومون وتستهدف قوات الاحتلال الأمريكية أو البريطانية. وغالباً ما كان يصل إلى أسماعهم أصوات انفجارات مدوية، من دون معرفة تفاصيلها ومن نفذها وما هو الهدف الذي تعرض لذلك الهجوم، وهل سقط قتلى أو جرحى.

ولا يعرف العراقيون شيئاً كثيراً إلا في حدود الهجمات التي يشاهدونها بأم العين. ولأن هذه الهجمات كانت قليلة ومتفرقة في الأسابيع الثلاثة الأولى من الاحتلال، فإن قلة قليلة جداً من العراقيين هي التي علمت شيئاً عن الهجمات، ما يعني عدم معرفة الكثيرين بوجود مقاومة، وأنا متأكد أن الكثير من العراقيين الذين سيطلعون على الهجمات، التي يتضمنها هذا الكتاب سيتفاجأون بوجود هجمات للمقاومة العراقية في وقت مبكر جداً ضد قوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية. كما أن الأغلبية العظمى من العراقيين تصوروا أن العالم سيشارك الأمريكيين بهجة الانتصار، ما يعني أن مشروع احتلال العراق وجد دعماً من الكثيرين ومقبولية من الجميع. لذا وجدت من المناسب، أن نتعرف إلى بعض المواقف من بين آراء وتصورات ومواقف كثيرة، التي قرأت المشروع الأمريكي في العراق من زاوية أخرى، تتطابق في بعض جوانبها وقناعات أي جهة أو مجموعة لا تتفق والرؤية الأمريكية، وتؤمن بإمكان إفشال هذا المشروع الذي بدأ بغزو العراق ومن ثم احتلاله؛ وهذا يتساوق والقناعات التي ينطلق منها المقاومون العراقيون في شروعهم بالتصدي لهذا المشروع والإصرار على إفشاله وإلحاق الهزيمة به، وقد اختاروا طرقاً اعتقد الكثيرون أنها بمنزلة الطريق المستحيل، أو الانتحار السريع.

إلا أن ثمة من تحدث وكتب بقناعات مختلفة تماماً عن الهالة والبهرجة التي رسمها الكثيرون لمشروع أمريكا في العراق، ومستقبله المشرق كما تصوروا أو تخيلوا، وفي وقت مبكر من أيام الاحتلال. على سبيل المثال، قالت مجلة **ليبرتيه** الفرنسية[٢١]: «إن التاريخ لن ينسى أبداً أن القانون الدولي والأمم المتحدة تعرضا للدهس بالأقدام، وأن شعباً تم قصفه بلا هوادة لعدة أسابيع، وأن آلاف الرجال والنساء والأطفال اغتيلوا من أجل العثور على أسلحة دمار شامل مزعومة، وأن دبيلو بوش أراد توجيه رسالة إلى العالم كله، مفادها أن أمريكا تريد فرض قانونها في كل أنحاء الكرة الأرضية، حتى وإن أدى ذلك إلى إثارة ضغائن جديدة وسبب المزيد من المآسي، وحوّل العالم إلى برميل بارود هائل»[٢٢].

وفي عددها الصادر بتاريخ ١٧/ ٤/ ٢٠٠٣ ذهبت صحيفة **لوس أنجلوس تايمز** إلى أبعد من ذلك[٢٣]، ونشرت افتتاحية بعنوان «في سعيها لترتيب أوضاع المعمورة، أمريكا تزرع بذور الدمار الشامل»؛ وتقول: «إن العراق بلد له تاريخ، ونكتفي بالإشارة فقط إلى أن هذا البلد كان مهد الحضارة قبل سبعة آلاف سنة، إلا أن هذا الأمر، لم يدُر في خلد المستعمرين الجدد (الأمريكيين) الذين يقودون شعباً لا يتعدى تاريخه المئتي عام إلا قليلاً»، وتضيف الصحيفة، أن القادة الأمريكيين سيواصلون ارتكاب الأخطاء في العراق، في قتل المدنيين وحشد الجبناء، وإفساد الزعماء (العراقيين) الذين غادروه لعشرات السنين، وهذه غربلة وتنقيح لمبدأ إدارة بوش القائلة «إن الدول الحرة حرة في ارتكاب الأخطاء واقتراف الجرائم في الدول غير الحرة»؛ وتقرأ الصحيفة أوضاع العراق ومستقبله من زاوية أخرى؛ إذ تقول «إذا كان ميلاد العراق الجديد يحتاج إلى قابلة أجنبية للمساعدة، فيجب أن تتم الولادة تحت رعاية مجلس الأمن الدولي»، وتتساءل الصحيفة عن دوافع قبول وسائل الإعلام الأمريكية تسويق دعاية الإدارة الأمريكية، التي تردد بأن القوات الأمريكية دخلت العراق بأيدٍ نظيفة وسيوف بريئة[٢٤]. وبعد عشرة أيام نشرت الصحيفة ذاتها افتتاحية عنونتها: «حساب الحقل لا ينطبق على حساب البيدر».

في تلك الأثناء أشاد الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش بشجاعة الصحافيين أثناء حفل تكريم أقامه البيت الأبيض خصيصاً لذلك، ووصف هؤلاء الصحافيين بأنهم

---

(٢١) *La Liberté* (Paris), 16/4/2003.

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) *Los Angeles Times* (New York), 17/4/2003.

(٢٤) المصدر نفسه.

قاسموا الجيش الأمريكي مخاطر الحرب، لكي ينقلوا الحدث، بطريقة لم تحدث أبداً من قبل. وكان ثلاثة عشر صحافياً قُتلوا أثناء حملة الغزو على العراق، من بينهم أمريكيان، هما مايكل كيلي رئيس تحرير مجلة **أتلانتك مونثلي** السابق وديفيد بلوم من تلفزيون (إن بي سي) تم تكريم عوائلهما ضمن الحفل الذي حضره كبار المسؤولين ووزير الخارجية كولن باول ومستشارة الأمن القومي كونداليزا رايس، وعدد من نجوم الفن والمجتمع، ولا أريد التوقف طويلاً أمام مظاهر البهجة والاحتفالية التي استغرقت زعامات البيت الأبيض في تلك الأثناء، إلا أن ما تحدث به كاتب افتتاحية **لوس أنجلوس تايمز** التي أشرنا إليها، قد قرأ الواقع من زاوية في غاية الأهمية، عندما أراد تذكير زعماء أمريكا أنهم يستهينون بشعب من عقوله خرجت أولى بذور الثقافة، وفي بلاد الرافدين ابتكر العقل العراقي الكتابة، وأن هذا الشعب لن يسمح لقوة تحتله وتوجه إليه الإهانة والإذلال. هذه قراءة موضوعية إلا أنني واثق أن الذي كتبها ورئاسة التحرير وجميع الذين يتفقون مع هذه القناعة لم يدر بخلدهم أن المقاومة العراقية كانت قد بدأت فعلاً، وإن كانت في تلك الأيام في طور النشأة. ولم يدركوا أن الجنود الأوائل الذين سقطوا يمثلون بداية السلسلة من مئات وآلاف القتلى والمجانين والمعاقين، الذين سترسلهم المقاومة إلى الولايات المتحدة وإلى مشافيها الخاصة بعلاج المجانين والمعاقين، وأن رجال المقاومة أبناء حضارة السبعة آلاف سنة، قد شرعوا في كتابة أسطورة أخرى، لا تقل أهمية عن اختراع الكتابة ووضع أول القوانين للبشرية في **مسلة حمورابي** الشهيرة، وأن التاريخ سيكتب أن هذا الشعب قاوم أشرس وأخطر وأكبر قوة عبر تاريخ العالم، وأن رجال المقاومة ينهضون في تجربة فريدة من نوعها في التاريخ القديم والحديث، قياساً على قوة العدو الأمريكي المحتل، وفي ظروف العراق القاسية والصعبة.

تؤكد، ما ذهبنا إليه، تلك الصورة البهية التي رسمها المقاومون العراقيون في منطقة أخرى من العراق. ففي اليوم العاشر للاحتلال، هاجم مقاومون عراقيون في مدينة البصرة القوات البريطانية، الشريك الرئيسي والرديف الكبير لقوات الاحتلال الأمريكية، التي انتشرت دورياتها في المدينة، ففي مساء السبت في ١٩/ ٤/ ٢٠٠٣ وبينما كانت إحدى الدوريات البريطانية تتجول وسط البصرة (٥٠٠ كم جنوب بغداد) شن المقاومون العراقيون هجوماً عنيفاً استهدف الجنود البريطانيين، وتفاجأ الجنود بهذا الهجوم، وقال الملازم نيك فرييه[٢٥]، إن دورية بريطانية تعرضت لإطلاق نار، إلا أن شهود عيان في المكان، قالوا إنهم شاهدوا جنوداً بريطانيين وهم يحاولون الاحتماء

(٢٥) انظر: وكالة «فرانس برس» (أ. ف. ب.)، ١٩/ ٤/ ٢٠٠٣، <http://www.afp.com/ar>.

بجانب الطريق أو خلف أعمدة الكهرباء، في حين سارع جنود آخرون إلى إطلاق وابل من الرشقات، لتوفير الحماية لأعضاء الدورية للاختباء، ما يؤكد أن الهجوم الذي شنه المقاومون العراقيون في مدينة البصرة في أقصى جنوب العراق كان عنيفاً ومنظماً[٢٦].

تداول العراقيون في أحياء مدينة البصرة قصة هجوم المقاومة العراقية على القوات البريطانية، التي دخلت المدينة قبل أسبوعين من تاريخ الهجوم، ورغم أنهم لا يعرفون أسماء المهاجمين، إلا أن الكثيرين تفاخروا بذلك. وتذكر كبار السن بعض أحداث اندلاع المقاومة العراقية ضد القوات البريطانية المحتلة مطلع القرن الماضي (ثورة العشرين) وبسالتهم في مدينة البصرة وشجاعتهم في أيام ثورة العشرين الشهيرة. وحاولت أغلب وسائل الإعلام تجاهل هجوم المقاومة هذا، إلا أن اعتراف القوات البريطانية وما تناقله أبناء المدينة، هو الوثيقة الدامغة، التي تؤكد اندلاع المقاومة في العديد من مناطق العراق، وأنها قد انبثقت في آنٍ واحد في بغداد والموصل والنجف والعمارة والبصرة والأنبار وديالى وغيرها من المناطق.

يوم الثلاثاء الموافق ٢٢/ ٤/ ٢٠٠٣ شهدت بغداد معركة بين رجال المقاومة العراقية وقوات أمريكية قرب نهر دجلة بجانب الرصافة، واستمر هجوم المقاومين الذين لم يعرف عددهم لمدة عشرين دقيقة، أطلقوا خلالها قذائف آر بي جي واستخدموا الأسلحة الرشاشة. وسارعت القوات الأمريكية المتمركزة في أحد القصور الرئاسية، على الضفة الغربية لنهر دجلة، من جانب الكرخ إلى الرد على هجوم المقاومين العراقيين. في تلك اللحظات شاهد الصحافيون في فندق الميرديان الجنود الأمريكيين وقد سارعوا إلى الاحتماء داخل دباباتهم أو خلف سواتر في محيط الفندق. ولم ينسحب المقاومون إلا بعد أن حلقت المروحيات الأمريكية في سماء بغداد، وسمعت أصوات الطائرات المقاتلة أيضاً. ولم تتم معرفة تفاصيل المعركة التي حصلت في المكان، حيث انتشرت القوات الأمريكية في شارع أبي نوّاس المحاذي لنهر دجلة من جانب الرصافة، وطوقت المكان الذي حصل فيه الهجوم، في حين توارى المقاومون عن الأنظار، وتمكنوا من الانسحاب دون أن تتمكن القوات الأمريكية من إصابة أو اعتقال أي من أفراد المجموعة المهاجمة[٢٧]، وكما ذكرنا سابقاً فقد اعترفت القوات الأمريكية بمقتل أربعة من جنودها في ذلك اليوم.

---

(٢٦) المصدر نفسه.

(٢٧) وكالة «رويترز» للأنباء، ٢٢/ ٤/ ٢٠٠٣، <http://ara.reuters.com>.

بعد يومين من هذا الهجوم، وقعت معركة شرسة بين المقاومين والقوات الأمريكية بمنطقة المشتل (شرق بغداد)، وقد وصفتها بعض وسائل الإعلام بالعنيفة، وبأن ما جرى كان أوسع اشتباك بين القوات الأمريكية والمسلحين الذين هاجموا تلك القوات، ويبدو أن خطة المقاومة العراقية قد انصبت على الاستفادة من بناية كانت مركزاً للشرطة، إلا أنه كان مهجوراً في تلك الأيام، واتخذوا من هذا المكان نقطة انطلاق لتنفيذ الهجوم، وذكر مراسل صحيفة **الشرق الأوسط** اللندنية في بغداد[٢٨]، أن المسلحين أطلقوا وابلاً من نيران بنادقهم الرشاشة، فور تقدم القوات الأمريكية نحو المكان، في معركة استغرقت ربع ساعة، موقعين العديد من القتلى والجرحى، فيما تمكنوا من الانسحاب من دون إصابة أو اعتقال أي منهم. وتكتمت القوات الأمريكية على ذلك الاشتباك، شأنه شأن العديد من الهجمات، التي لم تذكرها البيانات الأمريكية. وكان البنتاغون قد اعترف في بيان له، بمقتل ثلاثة عسكرين وجرح آخرين من جراء انفجار قنبلة في جنوب شرق بغداد، ولم يذكر تفاصيل أخرى. وهذا اعتراف بهجوم آخر شنه المقاومون تلك الأيام[٢٩]، ولم تتوافر معلومات من شهود عيان عن تلك الهجمات، إلا أن المقاومين استخدموا في وقت مبكر أسلوب استدراج القوات الأمريكية إلى نقطة قتل، مستخدمين وسائل عديدة من بينها إيهام مواطنين عاديين بوجود عصابة في المكان وما إن يبلغ القوات الأمريكية أحد المواطنين حتى تسارع هذه القوات بالذهاب إلى المكان، دون أن يعرفوا أن المقاومين قد وضعوا خطة لاستدراجهم، وفجأة وجد الأمريكيون أنفسهم وسط وابل من النيران تأتيهم من كل جانب، فيسقط منهم القتلى والجرحى. ولم تنقذهم من تلك الهجمات إلا الطائرات المروحية التي يسارع الجنود الأمريكيون إلى الاستنجاد بها، وبسبب معرفة المقاومين بتوقيتات وصول المروحيات، فإنهم يضعون خطة الانسحاب بما يضمن سلامة المهاجمين، وتأمين طرق الاختباء والتواري عن الأنظار بسرعة البرق، في حين تحلق المروحيات لساعة أو أكثر، وغالباً ما تحط إحداها لنقل الجرحى والمصابين.

في مدينة النجف، وعلى بعد ١٤٠ كم جنوب بغداد، احتشد المئات من أبناء المدينة، التأم هذا الجمع بدافع وطني واحد، وما إن هتف البعض بعبارات ضد قوات الاحتلال الأمريكية، حتى سارع العشرات والتقوا بعضهم ببعض، ويقول شهود عيان إن الحشود قد ازدادت أعدادها بعد انتشار خبر التظاهرات المعادية للاحتلال الأمريكي،

(٢٨) انظر: **الشرق الأوسط**، ٢٤/ ٤/ ٢٠٠٣.
(٢٩) المصدر نفسه.

وخلال أقل من ساعتين وصل أبناء النجف من مختلف مناطقها، ومن أطراف المدينة، كما شارك العديد من أبناء المحافظات والمدن العراقية الذين صادف وجودهم في النجف في تلك الأيام لمناسبة الزيارة الأربعينية لمرقد الإمام الحسين (عليه السلام). وذكرت وكالات الأنباء أن حشداً كبيراً من العراقيين خرجوا في تظاهرة احتجاجية حاشدة، وتوجهوا إلى الأماكن التي توجد فيها القوات الأمريكية، وبدأوا بالهتافات المعادية للاحتلال الأمريكي ـ البريطاني، مطالبين بالانسحاب من العراق. وتصاعدت حدة الهتافات المعادية للاحتلال، وفوجئ الأمريكيون برشقات كثيفة من الحجارة والحصى التي قذف بها المتظاهرون القوات الأمريكية، ورداً على تلك التظاهرات، قال ضابط أمريكي من إحدى قواعد مشاة البحرية على مشارف مدينة النجف، «إننا انتصرنا في الحرب»، لكنه أردف بالقول، إن المقاومين يوجهون أسلحتهم ضد قواته، وقال «إن الرصاص لم يتوقف ضد قواتنا»، وقال الملازم جاك بونيتي من وحدة ألفا في مشاة البحرية «بالقطع لا تزال هناك خطورة، الخطر لا يزال قائماً»[٣٠]، وهو كان يرد على أسئلة صحفية تتعلق بالتظاهرات المعادية في مدينة النجف. وكانت تقارير صحفية، قد ذكرت أن حشوداً تعدادها بين ٢٠٠ و٢٥٠ شخصاً قد رمت القوات الأمريكية بالحجارة يومي الخميس والجمعة ٢٣ و٢٤/ ٤/ ٢٠٠٣.

بعد ذلك بيومين (٢٦/ ٤/ ٢٠٠٣) تعرضت القوات الأمريكية إلى الرشق بالحجارة في مدينة النجف أيضاً من قبل حشود كبيرة، وبسبب الأجواء المتوترة والمعادية للوجود الأمريكي، الذي تواصل في هذه المدينة، فقد عاش الجنود الأمريكيون هواجس الخوف والحذر الشديدين، وسيطرت عليهم حالة من التوتر. لهذا فقد سارع الجنود الأمريكيون إلى فتح النار على رجل، قالت القوات الأمريكية في بيان لها إنهم «ظنوا أنه مسلح». واعترف القائد الأمريكي في النجف بأن الكثير من العراقيين لا يريدوننا، وقال «ما زال هناك من لا يريدون رؤيتنا هنا». وجاء هذا التصريح على خلفية التظاهرات التي حصلت ورمي الجنود الأمريكيين بالحجارة والحصى، وإطلاق الهتافات الحماسية المعادية للوجودين الأمريكي والبريطاني. واستناداً إلى شهود عيان فإن الضباط الأمريكيين سارعوا بالتراجع أمام حشود المتظاهرين، واستدعوا بعض المترجمين الذين يعملون معهم وطلبوا ترجمة فورية للهتافات التي أطلقها المحتشدون من أبناء مدينة النجف والمدن القريبة منها.

---

(٣٠) تصريحات الملازم جاك بونيتي من وحدة «ألفا» في مشاة البحرية من مشارف مدينة النجف يوم ٢٤/ ٤/ ٢٠٠٣.

ويروي معارف أحد المترجمين أن المترجم العراقي حاول أن يخفف من العبارات المعادية للأمريكيين، وقال للضابط الأمريكي، إنهم غاضبون يطالبون بالخدمات والمساعدات، إلا أن مترجماً من أصل لبناني كان قريباً من الضابط الأمريكي، اقترب منه وقال له بأن ما يقوله المتظاهرون عبارات شتم وسب ووعيد للقوات الأمريكية. وأضاف أنهم «يعبّرون عن كراهية عميقة لكم». ووسط الحرج الشديد الذي شعر به المترجم العراقي الذي التحق تواً بخدمة المحتلين، حدجه القائد الأمريكي بنظرة تزخر بالاحتقار والازدراء لكذبه وعدم دقته في الترجمة، وقال المترجم من أصل لبناني إنهم يطالبون قواتكم بالانسحاب ويطلقون عليكم قوات «احتلال»؛ ورمق القائد الأمريكي مرة ثانية المترجم العراقي الذي انكمش وارتبك وتراجع عدة خطوات متعثراً، وسبب هذه النظرة أن المترجم كان يقول للضباط الأمريكيين طيلة الأيام السابقة، إن أبناء النجف وجميع العراقيين يقدمون لكم شكرهم وكبير تقديرهم واحترامهم، وإنهم يصفون قواتكم بالقوات «المحررة للعراقيين». لكن ما استغربه البعض أن القائد الأمريكي لم يعاقب المترجم الكاذب، بل أعطاه الكثير من الامتيازات، وبعد ذلك أصبح أحد الوسطاء الرئيسيين في مشاريع ما يسمى «الإعمار» في العراق. أما تصريحات القائد الأمريكي التي أشرنا إليها فقد أوردتها إحدى كبريات الوكالات العالمية[٣١].

على بعد أكثر من ١٦٠ كم شمال بغداد، شن المقاومون هجوماً على نقطة تفتيش أقامتها القوات الأمريكية على الطريق العام الذي يربط بين بغداد وسامراء وتكريت والموصل، وتعرضت نقطة التفتيش شمال بغداد لهجوم مباغت استخدم فيه رجال المقاومة العراقية القاذفات والأسلحة الخفيفة، وتمت مباغتة القوات الأمريكية التي ما زال جنودها وضباطها يعيشون لحظات زهو الانتصار الكبير الذي حققوه في العراق.

نفذ هذه العملية مجموعتان من المقاومين، بعد وضع خطة مُحكمة في هذا الهجوم (الذي اعترفت به القوات الأمريكية) على نقطة تفتيش بين مدينة سامراء ومدينة تكريت شمال بغداد، وكانت تتمركز قوة أمريكية على بعد عدة كيلومترات من نقطة التفتيش المذكورة، وشاغل المقاومون الجنود الأمريكيين بأسلحتهم الرشاشة والقاذفات، الذين سارعوا بعدها إلى الاستنجاد بالقوات القريبة. ولم يدر بخلد القادة الأمريكيين أن المقاومين العراقيين قد وضعوا خطة عسكرية محكمة للإيقاع بقوات الاحتلال، التي سارعت مهرولة لحماية زملائها الذين يتعرضون للهجوم، وتمكن المقاومون الذين

(٣١) وكالة «رويترز» للأنباء، ٢٦/ ٤/ ٢٠٠٣، <http://ara.reuters.com>.

كانوا ينتظرون القوات الأمريكية المنقذة من إصابة عربتين تقدمتا لدعم الجنود في منطقة التفتيش، وانقلبتا قبل وصولهما إلى المكان.

واعترفت وزارة الدفاع الأمريكية[٣٢] في بيان لها بمقتل أحد جنودها وإصابة آخر بجروح كانا ضمن طاقمي العربتين، التي اعترف البيان بانقلابهما. وحصل الهجوم يوم السبت في ٢٦/ ٤/ ٢٠٠٣. وجاء في نص البيان الصادر عن القيادة المركزية الأمريكية في قاعدة السيلية في قطر «أن الجنديين كانا في مركبتين مقاتلتين من نوع برادلي في طريقهما إلى نقطة تفتيش، لتقديم المساعدة قبل أن تنقلب السيارتان إثر تعرضهما لإطلاق نار». ومن يحاول أن يقرأ هذه القصة سيجد بين طياتها الكثير من التخطيط والإصرار والقدرة على استدراج القوات الأمريكية إلى مناطق القتل. وعلينا أن نتذكر أن هذا الفعل المقاوم الجبار بكل ما يتضمن من تخطيط وقدرات عالية على التنفيذ، قد حصل في أيام الاحتلال الأولى لهذا البلد.

واستمراراً لهجمات المقاومة العراقية فقد شهد يوم الأحد في ٢٧/ ٤/ ٢٠٠٣ معارك أخرى وسط بغداد. ففي صباح ذلك اليوم شن المقاومون هجوماً على دورية للقوات الأمريكية، ولم نحصل على شاهد عيان يتحدث لنا عن تفاصيل الهجوم، إلا أن بياناً صدر عن البنتاغون اعترف به[٣٣]، وقال إن أربعة جنود أمريكيين أصيبوا في ذلك الهجوم. وإن أحد الجرحى بحالة حرجة. ورغم أن الكثيرين لم يتوقفوا طويلاً عند هذا الهجوم ومروا على الاعتراف الذي صدر من القيادة العسكرية الأمريكية مرور الكرام، كما يقال، إلا أن طرفين رئيسيين يعرفان أهمية ذلك، هما:

أولاً الطرف الذي وقع عليه الهجوم، وتكبد فيه خسائر بين جنوده وأن أحد الجرحى في حالة حرجة، كما اعترف البيان الأمريكي، ما يعني أن الهجوم كان قوياً ومحكماً، ويقف خلفه رجال مناوئون للوجود الأمريكي في العراق، إلا أن عزاء هذا الطرف الوحيد، أن الذين ينفذون هذه الهجمات هم بقايا «جيوب قتالية» في طريقها إلى الاندثار والتلاشي (هكذا كانوا يمنّون أنفسهم بمثل هذه الأحلام).

أما الطرف **الثاني**، فهو من نفذوا ذلك الهجوم، من المقاومين. وفي كل هجوم ناجح يزدادون ثقة بقضيتهم، وتتضاءل أمامهم أسطورة القوة الأمريكية التي لا تُهزم،

---

(٣٢) البيان الصادر عن القيادة المركزية الأمريكية في قاعدة السيلية العسكرية الأمريكية في قطر يوم ٢٦/ ٤/ ٢٠٠٣.

(٣٣) اعترف البنتاغون بذلك في بيان صدر يوم ٢٧/ ٤/ ٢٠٠٣.

ما يزيد من معنوياتهم ويشجع الآخرين على الاقتراب من الثلة المقاومة القليلة، التي بدأت شوط المقاومة في تلك الأيام، والذين يعدّون بالعشرات من المؤمنين بقضيتهم، والسائرين في طريق تحرير العراق.

ونجد في هذا السياق أن البيان الصادر عن القيادة المركزية الأمريكية يعترف بأن قواتهم تواجه مقاومة، وتم استخدام هذا المصطلح (مقاومة) في هذا البيان، إلا أن القيادة العسكرية الأمريكية أكدت وبحزم أنها تحقق تقدماً في القضاء على جيوب المقاومة! أما على أرض الواقع فإن الهجوم الذي شنته المقاومة العراقية يوم الأحد في ٢٧/ ٤/ ٢٠٠٣ وأوقع أربعة جرحى، كانوا داخل مركبة حربية، يبرهن ـ حسب بيان الجيش الأمريكي ـ على أن الوضع لا يزال محفوفاً بالمخاطر في بغداد[٣٤].

في يوم الاثنين المصادف في ٢٨/ ٤/ ٢٠٠٣ أعلنت القوات الأمريكية أنها قتلت ستة مقاتلين عراقيين في مدينة الموصل، واعترف الضباط الأمريكيون في تصريح لوكالات الأنباء، أن معركة نارية جرت مع المقاتلين العراقيين بمدينة الموصل، وتعرض مقرّان للجيش الأمريكي لهجومين متزامنين. وذكر شهود عيان أن إطلاقاً كثيفاً للنيران سُمع في وسط الموصل بالقرب من الأماكن التي تمركزت فيها القوات الأمريكية، واستمرت المعركة لمدة ٤٥ دقيقة، وهي أطول معركة تخوضها المقاومة العراقية حتى ذلك التاريخ ضد قوات الاحتلال التي استعانت بالطائرات وهاجمت مواقع المقاومين موقعة بينهم عدداً من الإصابات، وتمكن المقاومون من إخلاء الجرحى حسب روايات شهود عيان، ولم تتمكن القوات الأمريكية من اعتقال أي من المقاومين، الذين استخدموا قاذفات آر بي جي ورشاشات البي كي سي والقنابل. واعترف النقيب جيه بي سوبز من الفرقة ١٠١ المحمولة جواً، التي سيطرت على الموصل قبل أسبوع من ذلك الهجوم[٣٥]، أن هؤلاء الأشخاص يعبرون عن معارضتهم للولايات المتحدة. واعتقد القائد الأمريكي، مثل غيره من القادة الميدانيين الذين تعرضت وحداتهم لهجمات مسلحة في الأيام الأولى للاحتلال، أن منفّذي هذه الهجمات مجموعة يائسة وأنها تطلق آخر ما لديها من طلقات نارية، وأنه لن تمضي إلا أيام قليلة قبل أن يسيطر اليأس والقنوط على هذه القلة، لتبدأ رحلة رمي الزهور أمام قوافل القوات الأمريكية. لم يقتنع الأمريكيون للحظة واحدة أن مقاومة ستبرز في العراق المدمر الضعيف، الذي أنهكته العقوبات الاقتصادية، وبين ليلة وضحاها تفرض قواتها سيطرتها على أرضه وشعبه وهي

(٣٤) الرياض، ٢٨/ ٤/ ٢٠٠٣.

(٣٥) تصريحات النقيب جيه بي سوبز من الفرقة ١٠١ المحمولة جواً لوسائل الإعلام.

أكبر قوة عسكرية في العالم يخشاها الشرق والغرب، ولا توجد جهة أو دولة في العالم قادرة على مجرد التفكير بمواجهة أمريكا، أما قضية التصدي لها ومقاومتها فالكثيرون رأوا في ذلك ضرباً من الجنون.

تحت هذه القناعات التي سيطرت على الكثيرين، عاش الجيش الأمريكي أول أسابيعه في العراق، على أمل أن يتلاشى أي أثر لأي شخص يقف ضد القوات الأمريكية والبريطانية، إلا أننا سنكتشف ما يثير الإعجاب وما لا يتوقعه العالم، سواء من حيث سرعة ازدياد أعداد الهجمات اليومية أو نوعية الهجمات وسرعة انتشارها في مناطق عراقية كثيرة.

بعد التظاهرات التي خرجت في مدينة الموصل بتاريخ ١٦/ ٤/ ٢٠٠٣ وقتلت خلالها القوات الأمريكية عدداً من المتظاهرين الذين عبروا عن رفضهم للاحتلال، وبعد التظاهرات الاحتجاجية التي خرجت يومي ٢٣ و٢٤/ ٤/ ٢٠٠٣ في مدينة النجف وشارك فيها ما بين ٢٠٠ و٢٥٠ متظاهراً رموا خلالها القوات الأمريكية بالحجارة وهتفوا ضد وجودهم، وقتلت القوات الأمريكية أحد الرجال في مدينة النجف، قال ضابط أمريكي على مشارف المدينة إنهم اعتقدوا أنه «عدو» أي مقاوم. بعد ذلك خرجت تظاهرة أخرى في مدينة الفلوجة، ضد القوات الأمريكية التي تصدت لهم بإطلاق نار كثيف، وكان ذلك مساء يوم ٢٧/ ٤/ ٢٠٠٣. ويذكر مراسل وكالة «رويترز» إدموند بلير[٣٦]، أن القوات الأمريكية قتلت برصاصها ١٧ شخصاً. أما القيادة المركزية الأمريكية في قطر فقد أعلنت في بيان لها، أن مقاتلين في الفلوجة قد فتحوا نيران أسلحتهم ضد الجنود الأمريكيين، ما استدعى الرد عليهم بالأسلحة. وقالت متحدثة لرويترز في مقر العمليات العسكرية بقطر: «فوجئ أفراد من الكتيبة الأولى بفوج المشاة المحمول جواً الرقم ٣٢ التابع للفرقة الثانية والثمانين بعراقيين مسلحين يحملون بنادق آلية من نوع «إيه كي ٤٧». وبادر المسلحون بإطلاق النار وردّ الجنود الأمريكيون على المسلحين. ويروي شهود عيان أن حشداً من أبناء الفلوجة توجهوا إلى المدارس التي اتخذتها القوات الأمريكية مقراً لها، وطالبوهم بالخروج منها، إلا أن القوات الأمريكية بادرت إلى إطلاق النار وقتلت وجرحت عدداً من أبناء المدينة. وحصلت مواجهات أخرى أثناء تشييع جثامين القتلى في الفلوجة، وهتفت حشود المشيعين ضد قوات الاحتلال مطالبين بخروجهم من العراق. وتسبب هذا الحادث بفورة معادية للأمريكيين،

(٣٦) نقلاً عن مراسل وكالة «رويترز» للأنباء إدموند بلير. انظر: وكالة رويترز للأنباء، ٢٧/ ٤/ ٢٠٠٣، <http://ara.reuters.com>.

ويذكر أشخاص من الفلوجة، أن دعوات كثيرة انطلقت في المساجد والبيوت وبعض دواوين وجهاء المدينة للثأر للضحايا.

وأعتقد أن المجاميع الأولى التي بدأت ضرباتها للقوات الأمريكية، قد وجدت في عمليات القتل الجماعي المبكر للعراقيين من قبل القوات الأمريكية مادةً خصبة للتحريض ضد الأمريكيين وحشد أكبر عدد ممكن للانخراط في صفوف المقاومة. ولم يتوقع الأمريكيون أن قتلهم للعراقيين بهذه الطريقة سيوصلهم إلى أنفاق الجحيم، وأرادوا تطبيق الأسلوب ذاته في ارتكاب الجرائم التي مارسوها ضد الفييتناميين ومن أشهر وأبشع تلك الجرائم مجزرة «ماي لاي» عندما قتل الجنود الأمريكيون جميع أبناء تلك القرية الذين يزيد عددهم على الألف شخص من رجال وأطفال ونساء وشيوخ، انتقاماً لمقتل جندي أمريكي وجدوا جثته بالقرب من قرية «ماي لاي» وكان ذلك عام ١٩٦٩ أثناء الاحتلال الأمريكي لفييتنام، وهو سلوك القوات الإسرائيلية نفسه في انتقامها الجماعي من الفلسطينيين.

وأعتقد أن أكثر حادثة سمع بتفاصيلها العراقيون كانت مقتل العراقيين في حادثة الفلوجة، تناقلتها المجالس العشائرية في مختلف أنحاء العراق، وجاء على ذكرها الكثير من خطباء المساجد، وأجمع أغلب هؤلاء على أن الحل في العراق هو مقاومة الاحتلال، وأن هؤلاء القتلة من القوات المحتلة لن يتوقفوا عن ممارساتهم البشعة بل ستزداد، وربط البعض في خطبهم الحماسية بين ممارسات العصابات الإسرائيلية مثل الهاغانا وشتيرن والأرغن ضد أبناء فلسطين، وحرضوا ضد الأمريكيين من خلال التأكيد أن أمريكا احتلت العراق خدمة لإسرائيل، وذهب البعض إلى القول بأن هناك الكثير من قيادات الجيش الإسرائيلي يعملون ضمن القوات الأمريكية، وتردد في فترات لاحقة أن هذا الأمر صحيح ومؤكد، ونقل معتقلون عراقيون خرجوا بعد سنوات من سجن أبو غريب الشهير، أن المحققين الأمريكيين كانوا يهددونهم في حال عدم إرشادهم إلى أماكن المسلحين، فإنهم سيرسلونهم إلى محققين من «الموساد الإسرائيلي» الذين يمارسون أبشع أنواع التعذيب الوحشي ضد المعتقلين العراقيين المتهمين بانضمامهم إلى صفوف المقاومة.

زخرت الفترة الممتدة منذ أول يوم للاحتلال (١٠/ ٤/ ٢٠٠٣) حتى اليوم الأول من أيار/ مايو ٢٠٠٣، بالكثير من الأحداث، التي أكدت جميع معطياتها أن المقاومة تمر في طور النشأة، وأن الانطلاق قد امتزج بقوة بمرحلة النشأة، وكانت هناك التظاهرات

الرافضة للاحتلال، إضافة إلى الهجمات الكثيرة والواسعة، التي اضطرت القوات الأمريكية إلى الاعتراف ببعضها، في حين جرت عملية تعتيم على هجمات أخرى.

تفاجأت إدارة البيت الأبيض والبنتاغون ووكالة الاستخبارات الأمريكية بالهجمات، ورغم محاولات بعض القادة العسكريين التقليل من أهمية هجمات المقاومة العراقية في مرحلتها الأولى، والتعامل معها على أساس آنية تلك الهجمات ومحدوديتها، من خلال الحديث عن «بقايا جيوب قتالية» هنا وهناك، إلا أن خبراء الحرب والمتخصصين في الاستراتيجيات، لا بد أنهم قد سارعوا إلى دراسة بوادر ظاهرة المقاومة، التي انطلقت بسرعة في العراق بوجه القوات الأمريكية والبريطانية، وأن دراسة بسيطة وسريعة لمسألة «بقايا الجيوب القتالية» تكشف أن مصطلح «الجيوب» لا ينطبق من قريب أو من بعيد على ما يجري على أرض العراق، وأن هناك مقاومة عراقية مسلحة تتلمس أولى خطواتها على طريق النشأة والتطور، أما الأطراف الدولية والمراقبون ووسائل الإعلام المختلفة، فقد واصلت انتظارها الحدث الأهم بالنسبة إليها، وهو إعلان الانتصار الذي توقعوا أن يحدد تاريخه تومي فرانكس، بعد أن تتأكد الدوائر الأمريكية المعنية من القضاء على «الجيوب القتالية» بصورة نهائية. ولم يكن فرانكس وسواه يستبعدون القضاء على هذه «الجيوب» المزعومة، لتبدأ مرحلة جديدة، بكامل تفاصيلها وكلياتها وجزئياتها الأمريكية شكلاً وجوهراً ومضموناً، لا يسمعون فيها أصوات الإطلاقات النارية، ويفتتحون صفحة الاحتلال الأمريكي للعراق بجميع أنواعها وميادينها.

لذلك فإن يوم ١/ ٥/ ٢٠٠٣ وما يقوله القائد العام للقوات المسلحة الأمريكية ورئيس الولايات المتحدة جورج دبليو بوش، يعدّان من أهم المحطات، التي تلت يوم التاسع من نيسان/ أبريل ٢٠٠٣. فما يقوله بوش في هذا الخطاب، هو البرنامج الواثق والواضح والدقيق، الذي يتحكم بأوضاع العراق والمنطقة والعالم، كما أن إعلان الانتصار من قبل الرئيس الأمريكي يعني أن القوات الأمريكية قد تمكنت من القضاء على «بقايا الجيوب»، التي برزت بعد انهيار المؤسسات الرسمية العراقية من الجيش والحرس الجمهوري والأجهزة الأمنية والحزبية، وأن القوة الأمريكية الهائلة التي استطاعت أن تصل العاصمة العراقية خلال ثلاثة أسابيع من بداية الغزو في ١٩/ ٣/ ٢٠٠٣.

ومن دون أدنى شك إن كفة القوى الأولى والثانية والثالثة والعاشرة هي لأمريكا، وليس هناك من قوة قادرة على الوقوف بوجهها، والتاريخ الذي سيحدده الرئيس الأمريكي ويعلن فيه الانتصار سيكون نهائياً وحاسماً، بمعنى أن لا «جيوب قتالية»

بعد هذا التاريخ، وهو ما يفتح الأبواب في استخدام المصطلح، الذي يتساوق وطبيعة المرحلة. وأعتقد أن الأغلبية العظمى من وكالات الأنباء والفضائيات والصحف، لم تكن تتوقع صدور بيانات عسكرية أمريكية خلال المرحلة التي تلي إعلان بوش بيان الانتصار، والذي تم تحديد موعده في الأول من أيار/ مايو عام ٢٠٠٣، أي بعد ثلاثة أسابيع من احتلال العراق وخمسين يوماً تقريباً من بداية الغزو الأمريكي للعراق، وهي فترة قياسية حصل فيها الغزو، عندها يتحقق الهدف الأكبر للإدارة الأمريكية المتمثل بـ «إعلان الانتصار». إلا أن توقعات الكثيرين لم تكن دقيقة، ومنهم مراسلو الفضائيات ووكالات الأنباء والصحف الذين أبرقوا لعوائلهم ومؤسساتهم، أنهم سيحزمون حقائبهم قريباً ويغادرون العاصمة العراقية التي توقعوا أن الهدوء سيعمها بصورة تامة، كما حدث عندما دخلت قوات الحلفاء عاصمة ألمانيا برلين وعاصمة اليابان طوكيو بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥.

بيد أن بداية الصيف العراقي الذي تبدأ فيه درجات الحرارة بالارتفاع في مثل هذه الأيام من كل عام، رافقه ارتفاع مفاجئ وغير متوقع في درجات الأحداث وتزاحمها، ولم يغادر الكثير من المراسلين والصحافيين بغداد بعد أن بدأت تلوح بقوة ملامح قوة عسكرية عراقية لا تشبه ما سمّوه «بقايا جيوب قتالية»، وهذا ما نلمسه بقوة خلال شهر أيار/ مايو عام ٢٠٠٣، بعد إلقاء بوش لخطابه الذي أرّخ به لمرحلة جديدة، إلا أنها جاءت جديدة فعلاً، لكن ليس بالصورة التي رسمها بوش وطاقمه السياسي والعسكري في البيت الأبيض والبنتاغون.

الفصل الثالث

ملامح قوة عسكرية عراقية مميزة
وتنامي الخوف الأمريكي

أولاً: أيار/ مايو: قلق وارتباك

بعد ساعة واحدة، من تلقّي عائلة جيسي جيفنز، خبر مقتله في العراق يوم الخميس الأول من أيار/ مايو ٢٠٠٣، أعلن الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش بيان «الانتصار في العراق» وانتهاء العمليات العسكرية، فأجهش أفراد العائلة بالبكاء بعد أن تناقلوا الخبر فيما بينهم في ولاية ميزوري، واعتقدوا أنه آخر جندي يسقط في العراق، واحتضنت زوجته طفلته الوحيدة (٥ سنوات). وأشار بيان من الجيش الأمريكي[١] أن جيسي قد قُتل في منطقة الحبانية (غرب العراق)، بعد أن سقطت دبابته نوع أبرامز في النهر.

في ذلك الوقت، كانت عوائل الجنود والضباط الأمريكيين الموجودين في العراق يحتفلون بـ «انتصار جيشهم» وفي الوقت نفسه، يفسّرون بيان بوش الذي أعلن فيه «انتهاء العمليات العسكرية»، بأنه بمنزلة «شهادة ولادة» لجميع أفراد الجيش الأمريكي في العراق، بعد أن تمكنت قواتهم من القضاء نهائياً على «بقايا الجيوب القتالية» في مناطق العراق، وأن الأيام والأسابيع المقبلة ستشهد استقبال الجيش الأمريكي بباقات الورد. وزفّت وسائل الإعلام الأمريكية البشرى للأمريكيين ولجنودهم في العراق، وقالت إن الأول من أيار/ مايو ٢٠٠٣ سيكون يوماً مفصلياً في قصة الحرب على العراق، فقد جهز الرئيس جورج دبليو بوش خطاباً هاماً موجهاً إلى القوات المسلحة والشعب الأمريكي، يعلن فيه «الانتصار في العراق»، بعدما زار الجنرال تومي فرانكس العراق والتقى كبار القادة العسكريين الذين قدموا له التقارير النهائية عن الأوضاع في مختلف المناطق.

وكان فرانكس، الذي يدخّن السيجار وهو يتجول في بغداد ومناطق أخرى، قد انتهى إلى قناعة لا تقبل الشك تذهب باتجاه انصياع العراقيين جميعاً، ووقوعهم تحت خيمة الأمريكيين، وأن مرحلة أخرى قد بدأت في هذا البلد، تتوزع فيها السلطات

(١) بيان الجيش الأمريكي الذي اعترف فيه بمقتل آخر جندي قبل إلقاء بوش خطاب النصر في الأول من أيار/ مايو ٢٠٠٣.

ومكامن القوة بيد الأمريكيين وحدهم، فهم «سادة العراق الجديد»، ومن أرضه سينطلقون في مشروعهم «الكوني» ليصبحوا «سادة العالم» بلا منازع.

جاء خطاب القائد العام للقوات المسلحة الأمريكية جورج دبليو بوش الذي انتظره العالم في الأول من أيار/ مايو ٢٠٠٣، أي بعد ثلاثة أسابيع من احتلال العراق، وبعد شهر ونصف الشهر تقريباً من بداية الغزو، ليؤكد قناعة الإدارة الأمريكية بطرفيها (البيت الأبيض والبنتاغون) بأن العراق قد وقع تحت السطوة الأمريكية بصورة «مطلقة»، وأن الوهن والخنوع والركوع والاستسلام هي العناوين الوحيدة التي سيوصم بها الشعب العراقي منذ ذلك التاريخ صعوداً.

قبل ساعات من إلقاء بوش خطابه التاريخي، وجّه وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد كلمة للعراقيين من بغداد، وأرى من الضروري أن يطّلع العراقيون على أهم ما جاء فيها، لأن الأغلبية العظمى منهم لم يسمعوا شيئاً منها.

قال رامسفيلد[٢] في كلمته بتاريخ ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٣: «كل يوم يمر تتحسن فيها الأوضاع في العراق، وأصبح لدى العراقيين غذاء ومياه وكهرباء أكثر مما كان لديهم في ظل النظام القديم، ونعمل جاهدين ليل ونهار لتوفير ذلك للجميع». وقال مخاطباً العراقيين: «أنا دون رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكي، تسعدني زيارة بلدكم العراق لأشهد تحرركم، الشعب الأمريكي يشارككم فرحتكم»، وأطلق رامسفيلد مجموعة من الوعود، أهمها، اشتركنا في هدف واحد هو إطاحة صدام حسين، ولدينا أهداف مشتركة في ما يتعلق بالعراق الجديد، هو بلد حر يستجيب فيه زعماء العراق للشعب العراقي بدلاً من أن يقتلوه، تستخدم فيه ثروة البلاد لمصلحة الشعب العراقي بدلاً من أن تذهب إلى الطاغية. يمكن لأطفال العراق أن يلعبوا ويستذكروا دروسهم ويكبروا دون خوف من أن تقبض فرق الإعدام عليهم أو على آبائهم فجأة. واختتم رامسفيلد كلمته بقوله: «في وطني أمريكا، لدي ثلاثة أبناء وستة أحفاد أصغرهم يبلغ عاماً واحداً من العمر. أريد لهم ما يريده كل واحد منكم لأبنائه وأحفاده، وهو الأمان والأمن ومجتمع عادل يتمتعون فيه بالحرية في سعيهم لتحقيق أحلامهم». وأضاف: «سنبقى فقط للفترة المطلوبة لمساعدتكم على القيام بذلك، ولن نبقى يوماً واحداً أكثر».

أما إعلان بوش من على حاملة الطائرات العملاقة «أبراهام لنكولن»، فقد أكد فيه تحول الإدارة الأمريكية إلى مرحلة توفير الاستقرار في العراق. ونقل الصحافي

(٢) كلمة وزير الدفاع الأمريكي الأسبق دونالد رامسفيلد الموجّهة إلى العراقيين بتاريخ ٣٠ / ٤/ ٢٠٠٣.

الأمريكي توم بومان عن مسؤول في البنتاغون قوله بعد خطاب بوش «نحن ننتقل الآن إلى عمليات تحقيق الأمن والاستقرار».

حمل الخطاب الذي أعلن فيه بوش انتهاء العمليات العسكرية في العراق، أكثر من رسالة موجهة إلى أكثر من طرف، في مقدمهم الجيش الأمريكي وعوائلهم في الولايات المتحدة، ومضمون الرسالة هو «طمأنة» هؤلاء إلى أن «الجيوب القتالية» قد انتهت، ولم تعرف بلاد الرافدين بعد هذا الوقت أي سلاح إلا سلاح الجيش الأمريكي، وأن جميع الجنود سيعودون سالمين منتصرين إلى بلادهم وإلى أحضان عوائلهم، فقد تم إسقاط تمثال الرئيس صدام حسين عصر الأربعاء في التاسع من نيسان/ أبريل، وخلال عشرين يوماً، تمكنت القوات الأمريكية والبريطانية من الانتشار في أنحاء العراق، وأن اليأس قد هيمن على عقول وقلوب كل من يفكر بالوقوف ضد الموج الأمريكي الهادر، الذي أنهى المؤسسة العسكرية والمدنية وألغى الوزارات وسحق المنظومة الأمنية في هذا البلد خلال ثلاثة أسابيع، وأن الأسابيع الثلاثة اللاحقة التي أعقبت إسقاط التمثال والانتشار في العراق، تشير إلى تعاون أطراف كثيرة من داخل المؤسسة الإدارية والأمنية والدوائر الأخرى مع القوات الأمريكية. لذلك فإن الإعلان لم يأتِ من فراغ أو كان بمنزلة الحاجة إلى الإعلان عن ذلك ليس إلا، وإنما استند إلى ما اعتقد القادة الأمريكيون أنه بمنزلة حقائق ووقائع من أرض الواقع العراقي اليومي.

لم يتصور الكثيرون بأن مسلسل سقوط قتلى وجرحى من القوات الأمريكية والبريطانية، سيتواصل بعد إعلان الرئيس بوش انتهاء العمليات العسكرية. وإذا كان تيري هيمنغواي (الذي سقط قتيلاً في اليوم الأول من الاحتلال ١٠/ ٤/ ٢٠٠٣)، قد تصدر قائمة القتلى، ولم يتفاجأ البعض بـ «مقتله»، فإن القتيل الأول هذا، الذي تلقت عائلته الخبر قبل ساعة واحدة من إعلان بوش بيان الانتصار، قد شكل صدمة كبيرة في الأوساط الأمريكية، لأنهم تصوروا، أن نص بيان الانتصار قد تم صوغه منذ عدة أيام، وأن زيارة تومي فرانكس قبل عشرة أيام من ذلك التاريخ، ووجود وزير الدفاع دونالد رامسفيلد في العراق، ما هو إلا الدليل القاطع على أن القناعة لدى القيادة الأمريكية نهائية وحتمية، وأن طلقة نارية «معادية» واحدة لن يسمعها الجنود الأمريكيون في العراق قبل عدة أيام من بيان «الانتصار»، ثم يتلاشى ذلك نهائياً اعتباراً من الأول من أيار/ مايو ٢٠٠٣.

لم يسمع العراقيون ببعض الهجمات التي شنها المقاومون خلال الساعات التي سبقت إعلان بوش، كما أن المقاومين الذين اختاروا طريقهم الجديد، لا يأبهون

للإعلانات الأمريكية عن الانتصار. وهذا دونالد رامسفيلد وهو يعيش لحظات الزهو عندما وطئت قدماه أرض مطار بغداد، حيث شعر بحلاوة الانتصار، فهو يقف على أرض الرافدين، وكان قد وقف قبل عشرين عاماً من هذا التاريخ في المطار نفسه، عندما جاء مبعوثاً من قبل الرئيس رونالد ريغان إبان الحرب العراقية ـ الإيرانية (١٩٨٠ ـ ١٩٨١)، ووصل رامسفيلد هذه المرة إلى بغداد قادماً من البصرة، وسار موكبه من المطار (الذي يقع على بعد ٣٠ كم غرب بغداد) في طريق طويل يشق أحياء العاصمة باتجاه القصور الرئاسية على ضفة نهر دجلة، حيث تتمركز القيادة الأمريكية العسكرية والمدنية، وبينما كان رامسفيلد يلقي نظراته على أحياء بغداد، فإذا بهجوم مفاجئ يتعرض له موكبه. وجرى تعتيم على ذلك الهجوم، إلا أن أحد مراسلي قناة «فوكس نيوز»[٣] الذي كان يرافق رامسفيلد، قال في سياق نشرة الأخبار «إن حافلة في موكب وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد تعرضت لإطلاق نيران في طريق مطار بغداد» بتاريخ ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٣.

في تلك الأثناء كانت قوة أمريكية أخرى قد تعرضت بدورها لهجوم في مدينة الفلوجة، وأقر الجيش الأمريكي بجرح سبعة من جنوده إثر هجوم تعرضوا له في المدينة. وكان سكان وسط الفلوجة قد سمعوا انفجارين في حدود الساعة الواحدة والنصف من فجر الخميس ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٣ وقال شهود عيان إن إثنين من المقاومين قد تسللا تحت جنح الظلام، رغم وجود الأضواء الكاشفة مستهدفين مقر القوات الأمريكية. واعترف الجيش الأمريكي بالهجوم الذي شنته المقاومة العراقية، وقال النقيب فرانك روز نبلات من الفرقة ٨٢ المحمولة جواً المتمركزة في الفلوجة إن شخصين اقتربا من المبنى الذي كان في السابق مقراً لحزب البعث قرابة الساعة الواحدة ليلاً وألقيا قنبلتين يدويتين من فوق حائط المبنى، ما أدى إلى إصابة سبعة جنود بجروح متوسطة وطفيفة. وأعلن بيان للجيش الأمريكي أن الجرحى قد تم نقلهم إلى بغداد وأن خمسة من المصابين يحتاجون إلى رعاية طبية. وكانت القوات الأمريكية قد ردت بإطلاق نار كثيف حول المبنى، إلا أن المقاومَين تمكنا من الانسحاب دون إصابة أي منهما.

كانت مدينة الفلوجة تعيش توتراً شديداً بعد التظاهرات التي خرجت وتعرض المشاركون فيها لإطلاق نار من قبل القوات الأمريكية تسبب بقتل وجرح العشرات من أبناء المدينة. وأعلن ضابط أمريكي لوسائل الإعلام أن المتظاهرين بدأوا برشق القوات الأمريكية بالحجارة والأحذية، وظن الجنود أنها قنابل يدوية فأطلقوا النار عليهم.

---

(٣) ذكرت ذلك قناة «فوكس نيوز» الأمريكية التي كان أحد مراسليها يرافق رامسفيلد، في سياق نشرة الأخبار مساء يوم ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٣.

بدأت تتنامى المخاوف عند بعض القيادات العسكرية الأمريكية، رغم عدم الإفصاح عنها بصورة علنية. إلا أن المختصين والخبراء والمسؤولين عن رصد الأوضاع في العراق، أيقنوا أن ادعاء «الجيوب القتالية» ليس صحيحاً، وأن التمسك بمثل هذه القناعات، قد تفضي إلى نتائج سلبية، وأن توقعاتهم التي انصبت على استقبال العراقيين لهم بباقات الزهر قد يكون مبالغاً فيها، إن لم يكن تصوراً خاطئاً على أقل تقدير.

كشف عن هذه المخاوف قرار البنتاغون، الذي تم تسريبه إلى بعض وسائل الإعلام، والقاضي بإرسال ما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف جندي أمريكي إضافي إلى العاصمة العراقية لتعزيز القوات المنتشرة هناك، والتي كان تعدادها يفوق العشرين ألفاً في ذلك الوقت. كان هذا القرار غير متوقع، وعُدَّ استجابة لرؤية جديدة لما يجري في العراق، وهو يخالف ما تم الإفصاح عنه قبل أقل من أسبوعين، حيث سبق وأعلنت قوات المارينز أنها شرعت بتسليم الأمن في العاصمة إلى قوات أخرى، وأن الاستعدادات جارية لتسليم مفاصل مهمة من أمن بغداد إلى قوات الشرطة العراقية، ولم يعط الجنرال بافورد بلونت أي تفاصيل عن دواعي إرسال المزيد من القوات إلى العاصمة في الوقت الذي يعلن فيه الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش انتهاء العمليات العسكرية وتحقيق الانتصار الكبير.

حدثني أحدهم أن أحد رجال المقاومة العراقية كان ينتظر قافلة أمريكية، وعلى بعد أمتار كان ينتظره رجل آخر داخل سيارة صغيرة، وخلال ثوانٍ، صوّب الرجل الأول قذيفة أر بي جي ٧ نحو أول ناقلة جنود أمريكية، وأصابها إصابة دقيقة، واشتعلت النيران بداخلها، في تلك اللحظات قفز رجل المقاومة إلى داخل السيارة التي كانت في انتظاره وانطلقت مسرعة، إلا أن عدة «هَمَرات أمريكية تابعت سيارة المقاومة، وأطلقت وابلاً من رصاص الرشاشات صوبها، لكن المقاومين تمكنوا من دخول أحد الأحياء، التي يعرفون شوارعها وأزقتها ومداخلها ومخارجها، وكان الوقت بعد غروب الشمس بقليل وموجة من الغبار تضرب المدينة، وبعد أقل من عشر دقائق، وصل المقاومون إلى مدخل الحي الذي وضعت فيه العديد من الحواجز الإسمنتية لإعاقة انسيابية سير المركبات، بعد أن سمعوا صوت ارتطام قوي تبعه إطلاق عيارات كثيف وصراخ من قبل الجنود الأمريكيين، فذهب المقاومون مشياً على الأقدام، بعد أن تركوا سيارتهم في أحد الأزقة الجانبية، وتفاجأوا بانقلاب ناقلة جنود (همر) وتحطمها بالكامل، ومقتل عدد من الجنود وجرح آخرين. ولم يكن تحطم الهمر بفعل مباشر من مقاوم، سواء بتفجير عبوة ناسفة، أو إطلاق صاروخ محمول على الكتف، بل كان نتيجة اصطدام الهمر بالحاجز

الإسمنتي، وذلك لأن الجنود الأمريكيين لا يعرفون تفاصيل الطريق، في حين يعرف المقاومون ذلك، وعندما لحقت الهمرات الأمريكية بالمقاومين، واجهوا الحاجز فتسبب ذلك بقتل عدد منهم وجرح آخرين. وهم، في واقع الحال، سقطوا بفعل وجود المقاومة ونشاطها وإن لم يكن بسلاحها المباشر.

وهناك قصة أخرى مشهورة؛ فقد كان عدد من الصبية الصغار يمارسون هواية لعبة كرة القدم في قرية البو حشمة التي تقع على مقربة من قاعدة البكر الجوية (سابقاً) في ناحية يثرب التابعة لمحافظة صلاح الدين، والتي اتخذتها القوات الأمريكية قاعدة لقواتها وأطلقت عليها اسم أناكوندا. واعتاد الصبية أن يلعبوا في ساحة ترابية مكشوفة قرب أحد الأنهار (أحد فروع نهر الإسحاقي الإروائي)، حيث القوات الأمريكية تتحرك دورياتها باستمرار على ضفة النهر المرتفعة، تحت أنظار هؤلاء الصبية الذين كانوا يشاهدون هجمات المقاومين في تلك المنطقة على الدوريات الأمريكية. وقد حاولوا ذات مرة أن يمارسوا «المزاح البريء» مع قوات الاحتلال.

حصلت هذه القصة في الأشهر الأولى للاحتلال، وفي تلك الفترة لم يكن لدى المقاومين أسلحة هجومية بعد، وبالأخص ما يتعلق بالعبوات الناسفة التي تُزرع على جوانب الطرق، حيث كانت عملية تفجير العبوات تتم بطريقة بدائية، بربط سلك كهربائي يصل بين العبوة وأداة التفجير اليدوي. وفي أحيان كثيرة، لا يتمكن المقاومون من إخفاء السلك. وعندما أدرك الأمريكيون ذلك، اجتاحهم الخوف والرعب من تلك الهجمات التي قتلت الكثيرين من جنودهم وضباطهم. اقترح الصبية الصغار «لعبة مزاح» فوضعوا صفيحة فارغة صدئة على الطريق وربطوا ذلك بخيط فاقع اللون. بدا ذلك مشابهاً للعبوة ومعها السلك الذي يتصل ببطارية التفجير.

ولم يدر بخلد واحد من هؤلاء الصبية ما ستكون عليه تفاصيل القصة، إلا أنهم اضطروا إلى التوقف عن اللعب والابتعاد قليلاً إلى طرف الساحة الترابية الفارغة، بعد أن شاهدوا رتلاً مكوناً من عدد من ناقلات الجنود القتالية تسير على الطريق المحاذي للنهر. ولأن الرتل الأمريكي يسير بسرعة خشية تعرضه للقذائف أو لعمليات قنص من قبل المقاومين، فقد تفاجأ سائق «الهمر» الأولى بمنظر الصفيحة الفارغة وشاهد الخيط الذي اعتقد أنه السلك الكهربائي الذي يتصل ببطارية التفجير، فتوقف توقفاً فجائياً جعل السيارة التي خلفه تصطدم بالهَمر التي يقودها بقوة وتدفعها وتقلبها إلى النهر، ليسقط من فيها متوهمين أن هجوماً قد حصل ضدهم وأنهم وقعوا بأحد كمائن المقاومة العراقية.

خلاصة القصة، أن أفراد طاقم الهمر ماتوا اختناقاً وعددهم أربعة جنود، وكلما تذكّر الصبية ذلك المشهد استغرقوا في ضحك يزخر بالتشفي والسخرية من قوات الاحتلال.

ما أريد قوله بهذا الصدد، ومن خلال هذه القصص الحقيقية، أن أي أمريكي أو بريطاني أو أي أحد من قوات دول احتلال أخرى سقط داخل الأراضي العراقية قتيلاً أو جريحاً، فإن فعل الإصابة سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة، يدخل ضمن فعل المقاومة، باعتبار أن ضربات المقاومة العراقية قد أصابت أحد أهم المفاصل في قوات الاحتلال المتمثل بالجانب النفسي، وأن حالة من الخوف والهلع قد سيطرت بصورة جمعية على هذه القوات، فتحولت أرض العراق إلى مصدر للقلق. إن مجرد دخول هذه القوات الحدود العراقية، يجعلها تدرك أنها أصبحت هدفاً للمقاومة العراقية. وحتى تصادم طائرتين أو مروحيتين في سماء العراق، فهو خسائر لقوات الاحتلال تدخل في قوائم حصاد المقاومة، لأن ما زرعته ضرباتها من خوف وقلق نتج منه هذا الارتباك، الذي تسبب بالتصادم. وينطبق ذلك على ما يحصل من حوادث سير في الطرقات وداخل المدن. وكذلك حالات الارتباك التي ينتج بسببها إطلاق نار من قبل الجنود الأمريكيين على زملاء لهم، وتقول البيانات الأمريكية بأنه حصل من طريق الخطأ؛ ففي حقيقة الأمر، أن هذا الخطأ، هو يسبب أعلى درجات الارتباك الممزوجة بالهلع، وأن الضغط على الزناد في لحظة ما، قد يكون بسبب سماع الجندي لصوت مفزع، أو أزيز قذيفة هاون أفقده صوابه، فضغط على الزناد وأردى زميله خطأً.

وإذا اعتمدنا تحليل الفعل والأجواء التي تحكمت في حدوثه، لاكتشفنا بكل سهولة، أن حادث إطلاق النار ليس بدافع العدوانية، لأنها غير موجودة بين جنود الوحدة العسكرية الأمريكية الواحدة، كما أن الذي أطلق النار لا يمكن أن يكون مختلاً عقلياً، لأنه خضع لجميع الفحوص الطبية التي أهّلته للحصول على وظيفته الحساسة في قوات تحتل بلداً غريباً. ولا توجد دوافع تجنيد خارجي لهذا الجندي ليمارس عملية القتل ضد جندي آخر، لأن الوحدات العسكرية الأمريكية تقع تحت سيطرة الأجهزة الاستخبارية الأمريكية، إضافة إلى مختلف أنواع الرصد والمراقبة الإلكترونية. لذلك فإن إطلاق نار من قبل جندي أمريكي على زميل أو عدد من الجنود الآخرين، لا يمكن تفسيره إلا في نطاق التأثير النفسي الذي أحدثته ضربات المقاومة العراقية في دواخل قوات الاحتلال.

وطالما أن أرض العراق جميعها تحت وطأة الاحتلال، فإن الشعور الجمعي للجنود والضباط من هذه القوات، يتفاعل داخلياً مولداً قناعات استهدافهم في كل بقعة وفي كل لحظة. لذلك فإن سائق الشاحنة الذي يرتبك بعد أمتار من دخوله الأراضي

العراقية في حدود مدينة البصرة، يحصل انقلاب حافلته أو شاحنته أو اصطدامها بأخرى، فإن ذلك هو بفعل الخوف الذي بثته هجمات المقاومة في داخله، تماماً كما يحصل للطيارين؛ وحتى الذي يصاب بنوبة قلبية مفاجئة، دون أن يكون قد استوفى أغلبية شروط هذه النوبة، فإن ذلك يدخل ضمن أفعال المقاومة العراقية.

كذلك، يجب أن لا تغيب عن الأذهان ظاهرة الكذب الذي تعتمده قوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية وغيرها في العراق، وكثرة الادعاءات بأن جنودها قد لقوا مصرعهم نتيجة لحوادث «غير قتالية» أو من «نيران صديقة»، بهدف التغطية على حقيقة خسائرها، والتعتيم على حجم قوة المقاومة العراقية، التي تلاحق قواتها ودورياتها وقواعدها بصورة يومية، وتتلاعب بصيغة البيانات والتصريحات وتحاول إخراجها بطرق وأساليب تتماشى وأهدافها وأغراضها الدعائية المتوخاة من كل ذلك.

على هذا الأساس، سنعتبر أن جميع الخسائر بين قتلى أو جرحى من قوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية وسواها، الذين سقطوا داخل أراضي العراق وفي أجوائه، بأنهم سقطوا بفعل المقاومة العراقية وضرباتها الموجعة والمؤثرة ضد هذه القوات أو بتأثيراتها وتداعياتها النفسية، وسنهمل خسائر هذه القوات، التي تقول البيانات الأمريكية، أنهم قُتلوا بحوادث أو بنيران صديقة خارج الحدود العراقية. وغالباً ما يرد ذلك في بعض البيانات التي تشير إلى أن حوادث القتل حصلت في الكويت وأماكن أخرى، وبحكم المنهجية والعلمية والموضوعية التي اعتمدناها في توثيق أفعال المقاومة العراقية، فإننا سنلتزم بالحدود الجغرافية للعراق، التي وقع عليها الاحتلال.

واستناداً إلى المنطق والفعل، فإن الأرض التي تقع تحت الاحتلال، يكون كل من يسقط عليها من جنوده، مهما كان السبب المباشر وغير المباشر، وسواء تم قتله أو جرحه وإعاقته أو حتى إصابته بالخبل (الجنون) هو من فعل المقاومة، ولا نحتاج إلى توضيح هذه الحقائق أو الإشارة إليها في تناولنا لخسائر قوات الاحتلال في العراق، التي نتناولها في هذا الفصل وما يليه، وتحديداً بالنسبة إلى القتلى والجرحى الذين تعترف بهم بيانات القيادة العسكرية الأمريكية. فكل جندي أو ضابط أو طيار من قوات الاحتلال سقط قتيلاً أو مصاباً بعد أن دخل على مسافة متر واحد في الأراضي العراقية أو أجوائه، فإن المقاومة العراقية تقف وراء هذا الإنجاز، الذي يجب توثيقه وتحليل المضمون الكلي للفعل القتالي للمقاومة العراقية، ضمن هذه الرؤية، وفي هذا الإطار وفي حدود التصور المنطقي للأحداث وتداعياتها.

لم يغلق إعلان بوش عن انتهاء العمليات العسكرية بوابات قتل الجنود الأمريكيين، كما ظن الأمريكيون والبريطانيون. ولم تكن رسالة التعزية التي كتبها وزير الدفاع دونالد رامسفيلد ووقعها في مكتبه داخل البنتاغون وبعثها إلى عائلة الجندي الذي قُتل قبل ساعات من إعلان بوش، آخر رسالة يوقعها ويبعث بها إلى عائلة أمريكية، وكانت هذه العائلة قد شعرت بشديد الأسى والحزن، عندما تلقت نبأ مقتل ولدها في بغداد يوم الثامن والعشرين من نيسان/ أبريل، في حين كان الفرح يغمر دواخل الأمريكيين، وهم يطالعون أخباراً سارة جداً، تتحدث عنها جميع وسائل الإعلام الأمريكية، وتقول بأن الرئيس بوش قد انتهى من صياغة خطاب «الانتصار».

في تلك الأثناء سيطرت قناعة على جميع الأمريكيين، تؤكد أن جنودهم قد أخضعوا جميع العراقيين لسطوتهم، وأن أبناء العراق يستقبلون الوحدات العسكرية من المارينز وقوات الجيش الأخرى، بموجات من التصفيق، ويتزاحمون على رمي باقات الورد فوق رؤوسهم ويوزعون الحلوى. أما من لا يرغبون في وجود الجيش الأمريكي فوق أراضيهم فإنهم قلة معزولة، ومن يرفع نظره احتجاجاً أو استنكاراً لوجود الأمريكيين، فإن رأسه سيكون تحت حذاء الجندي الأمريكي الذي سيطر بسرعة البرق على العراق وخلال أيام أخضع جميع العراقيين لإرادته.

لم يعرف الأمريكيون في تلك الأيام شيئاً، عن رجال المقاومة العراقية، الذين يصلون الساعة بالساعة في عمليات تستهدف القوات الأمريكية والبريطانية، ويضعون البرامج الفورية لشن الهجمات وتوجيه الضربات، كما يعملون على التصدي للانتكاسة النفسية الهائلة التي زعزعت النفوس، وأحدثت شروخاً كبيرة في إرادة الذات العراقية، التي راحت تتأرجح بين التردد والخوف من الحاضر وغموض المستقبل، ولم يجفّ بعد حبر بيانات الانتصارات الأمريكية الكبيرة، التي لا ينكر أحد تحققها على أرض العراق، عندما استطاعت الزحف بسرعة صوب العاصمة، وعزلت المحافظات ودخلت مطار بغداد مساء يوم الخميس الثالث من نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، ثم طوّقت بغداد من جميع منافذها وجالت دباباتها في أحيائها صباح التاسع من نيسان/ أبريل.

ومن دون أدنى شك، إن فعلاً عسكرياً من هذا النوع، وبهذا الثقل النوعي، الذي لم يتوقعه المحللون والاستراتيجيون، قد فعل فعله في إحداث زلزال قوي في النفس العراقية، وعمل على بعثرة مكامن الأمل وهيمنة الإحباط وكانت هذه محنة لا تقل خطورة، أمام مجاميع المقاومة الأولى، عن محنة قوة القوات المحتلة، بما تمتلكه من سلاح حديث ومتطور وقدرات تكنولوجية متنوعة وكبيرة. ومن يحاول استعادة حالة

الأمل مقابل اليأس عند العراقيين، فإنه سيجد أن المقارنة بين حجم اليأس والقنوط الذي فرضته تداعيات الأحداث، لا يقاس ببذور أمل قد يتعب المرء ويجهد النفس ليجد بعضاً منها في دواخل العراقيين، وإن وُجدت بذرة أمل ضئيلة، فإنها قد تكون في حالة نكوص، إن لم تكن تُعالج في آخر الرمق.

لهذا فإن محنة شحن النفوس ودفعها للتغلب على ما أصابها من وهن، لم تكن بالمهمة السهلة. ويمكن القول إن ثقة الأمريكيين بأن انتهاء العمليات القتالية وإعلان بوش الانتصار الكبير في العراق، مرتبط بالعوامل ذاتها التي تذهب في اتجاه سيطرة حالة الخنوع عند العراقيين، وقفز ذلك على أي مشاعر أو تحركات أخرى. وبينما كانت الأغلبية العظمى إن لم يكن جميع العراقيين، لا يعرفون بوجود قتلى أمريكيين، ما عدا المقاومين الذين ينفذون هجماتهم والمجاميع الميدانية الذين يشاركونهم التخطيط والتعبئة وجمع الأسلحة وخزنها، إلا أن قيادة العمليات العسكرية الميدانية الأمريكية في العراق تعرف المعلومات التي تتحدث عن قتلى وجرحى، ويتم إبلاغ قيادة العمليات الوسطى بذلك، وتصل التقارير إلى البيت الأبيض والبنتاغون، حيث يتم الاتصال بعوائل القتلى.

كان أول جندي أمريكي يُقتل بعد أن أطلق بوش العنان لخطابه الرنان، معلناً الانتصار في العراق، في اليوم الثالث من أيار/ مايو ٢٠٠٣، حين تصدى المقاومون لهذا الجندي (شين رينولدز)[٤] وقُتل في مدينة كركوك (٢٤٠ كم شمال بغداد). وذكرت وكالة «أسوشيتد برس» للأنباء، أنه يسكن في ولاية ميشيغان وخدم في الجيش وعمره ١٧ سنة وكان ضمن الكتيبة ١٧٣، وبينما سالت دماؤه في كركوك من أرض العراق، فقد نقل جثمانه إلى ميشيغان على بعد آلاف الأميال ليدفن هناك. وكان هذا الشهر قد شهد مقتل أول جندي في اليوم الأول منه وأشرنا إليه سابقاً.

بعد ذلك بيومين وصلت البرقية السوداء إلى عائلة جاسون ديبلر[٥] وكان ذلك بتاريخ ٥/ ٥/ ٢٠٠٣، وهو من ولاية آلاسكا وفي العشرين من عمره، وكانت خطيبته تنتظر عودته ليتزوجا. وقالت لوسائل الإعلام بعد تلقيها نبأ مقتله ضمن الحرب على العراق إنها «تحمل صورة تجمعها وإياه وهما يشاهدان الدلافين قبالة شاطئ ولاية فرجينيا»، بينما وصف والده وفاة ابنه بأنه «صعب للغاية» وأضاف: الجميع في حالة صدمة، وهناك الكثير من الدموع[٦].

---

(٤) انظر: Associated Press, 3/5/2003, <http://www.ap.org/>.

(٥) *Washington Post*, 5/5/2003.

(٦) المصدر نفسه.

بينما يتواصل سقوط قتلى للقوات الأمريكية، تسربت معلومات للمرة الأولى في بداية أيار/ مايو ٢٠٠٣ وتحديداً ما ذكرته مجلة **نيوزويك** في عددها الصادر بتاريخ ١ أيار/ مايو ٢٠٠٣ عن تغيير في الإدارة الأمريكية في العراق[٧]. ورغم أن قرار استبدال الجنرال المتقاعد جي غارنر بعد ثلاثة أسابيع من الاحتلال قد ظل مبهماً، وأن تحليلاً معمقاً لم يظهر في وسائل الإعلام الأمريكية عن أسباب هذا التغيير، وكل ما قيل في حينها إن الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش يعتزم تعيين دبلوماسي لإدارة العراق تكون له سلطة أعلى من الجنرال غارنر. ووُصف بريمر بأنه يعد من الكفاءات وعمل في مجال مكافحة الإرهاب لمدة ٢٣ عاماً مع ستة من وزراء الخارجية الأمريكيين، وكان بريمر في ذلك الحين يتولى منصب المدير التنفيذي لشركة «مارش كرايسيس كونسالتنغ»، وعمل سفيراً متجولاً لمكافحة الإرهاب في إدارة الرئيس رونالد ريغان، وفي حزيران/ يونيو عام ٢٠٠٢ عينته إدارة الرئيس بوش للعمل في المجلس الاستشاري للأمن الداخلي التابع للرئيس.

نهار الأحد المصادف الرابع من أيار/ مايو ٢٠٠٣، نفّذت المقاومة العراقية هجوماً مسلحاً جريئاً وسط العاصمة العراقية بغداد. اعترفت بذلك القيادة الأمريكية الوسطى في بيان لها[٨]، وقالت إن جندياً أمريكياً أُصيب برصاصة في رأسه، أطلقها مدني بينما كان الجندي يقوم بدوريته في شوارع بغداد. وقال البيان إن الجندي الذي ينتمي إلى فرقة المشاة الثالثة قد نُقل إلى مستشفى ميداني. ولم تقدم القوات الأمريكية تفاصيل أخرى، ولم نحصل على شاهد عيان يحدثنا عن تفاصيل الهجوم والمكان الذي حصل فيه، إلا أنه استهداف مباشر لقوات الاحتلال الأمريكية، وهو من هجمات المقاومة العراقية، التي اعترف بها العدو الأمريكي في بيان صريح.

يبدو أن أكثر من مقاوم عراقي شاركوا في هذا الهجوم، لأن البيان لم يتحدث عن قناص نفذ الضربة، ما يعني أن الهجوم تم بالأسلحة الرشاشة، التي تصيب أهدافها عن قرب. ولأن الدوريات الأمريكية تتألف من عدد من العربات القتالية (همر وأبرامز وغيرهما)، ويجلس على قمرة كل واحدة جندي أمريكي يمسك بمدفع رشاش جاهز للإطلاق، فإن عدم الإعلان عن قتل المهاجم أو إصابته، يعني أنه تمكن من الانسحاب بسلام من المكان بعد تنفيذ الهجوم. وحسب الفهم العسكري لحرب العصابات، فإن انسحاب المهاجم بعد تحقيق هدفه يجب أن يكون سريعاً وخاطفاً، وأن الثواني التي

---

(٧) *Newsweek* (1 May 2003), <http://www.newsweek.com/>.

(٨) بيان القوات الأمريكية في ٤/ ٥/ ٢٠٠٣.

تلزمه للتواري عن أنظار القوات الأمريكية المنتشرة في المكان، لا بد أن ترافقها حالة إرباك شديدة، وهو ما يسمى «الغطاء الناري الكثيف»، الذي يطلقه مقاومون مساندون، حتى يجبروا الجنود الأمريكيين على الاختباء وزرع حالة من الخوف والفوضى بينهم. ومن الواضح أن استهداف الجندي في رأسه قد حصل وفق خطة هجوم قتالية، اشترك فيها فريق من المقاومة.

ومن دون أدنى شك، فإن دراسة يجب أن تكون قد وضعت لجغرافية المكان، والشوارع الفرعية التي يجب سلوكها بعد تنفيذ الهجوم وإرباك القوات الأمريكية تحت وابل من الرصاص الكثيف، لحين انسحاب المهاجم. ومن المؤكد وجود مقاومين آخرين في المكان على مسافة أبعد يطلقون النار على الدورية الأمريكية، لتوفير الغطاء الناري للمجموعة التي تكون على مقربة منها، ولا يحتاج ذلك إلا إلى دقيقة أو أكثر قليلاً لتأمين انسحاب القوة المقاومة. ورغم اعتراف القوات الأمريكية بهذا الهجوم، إلا أننا لم نعثر على بيان أو تصريح من أي جهة يتبناه. وطيلة الأسابيع والأشهر الأولى من الاحتلال الأمريكي، كان سكان بغداد ومدن عراقية أخرى يسمعون أصداء طلقات نارية، إلا أن التعرف إلى طبيعتها والمكان الذي حصلت فيه بالدقة المتناهية ليس سهلاً، بسبب منع التجوال وبخاصة أن أغلب عمليات إطلاق النار تحصل أثناء الليل.

ما يؤكد تحليلنا الذي قدمناه عن الهجوم الذي شنته المقاومة العراقية يوم الأحد في ٤/ ٥/ ٢٠٠٣، ونتج منه إصابة جندي أمريكي برأسه في بغداد، والقول إن «مجموعة قتالية» من رجال المقاومة العراقية قد نفذوا ذلك، وإن الهجوم لم ينفذ بفعل قناص، الذي غالباً ما يحصل من مكان بعيد وخفي، البيانُ الذي أصدرته القوات الأمريكية[٩]، واعترفت فيه بمقتل أحد جنودها. وجاء الاعتراف هذه المرة على لسان متحدث باسم وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) وقال المتحدث الملازم جيم كاسيلا: إن جندياً في الفرقة الثالثة مشاة قُتل برصاص قناص منفرد يوم الخميس المصادف ٨/ ٥/ ٢٠٠٣ في بغداد. واستناداً إلى صحيفة **يو إس أي توداي** الأمريكية[١٠]، فإن القتيل هو الجندية مارلين روكهولد، التي قتلت في بغداد وعمرها ٢٣ سنة، وهي من ولاية أوهايو، من جنود الفرقة الميكانيكية الثالثة، وكانت قد تزوجت في الثاني من آذار/ مارس عام ٢٠٠٢، قبل يومين من انضمامها إلى الجيش الأمريكي. ولم تكن مارلين تتصور أن

(٩) موقع صحيفة **يو إس أي توداي** الأمريكية، وقد أوردت تاريخ قتله في ٤/ ٥/ ٢٠٠٣. انظر: *USA Today*, <http://www.usatoday.com/>.

(١٠) *USA Today*, 8/5/2003, and *Washington Post*, 8/5/2003.

المقاومة العراقية ترصدها باعتبارها أحد جنود جيش احتل بلدهم، وأن أحد قنّاصي المقاومة العراقية اصطادها في هجوم نوعي وسط مدينة بغداد. وقال أفراد من عائلتها، إنهم كانوا يتوقعون عودتها قريباً من العراق، وقد تسلموا رسالة تتحدث فيها عن ثقتها بالعودة قريباً، وذلك قبل ساعات من وصول خبر مقتلها، ولكن سارع أحد المقاومين من رجال العراق وصوّب سلاحه نحوها فأرداها في الحال.

ولا يحتاج المقاوم الذي يستخدم سلاح القنص إلى مجموعة توفر له الغطاء الناري لتسهيل تنفيذ الهجوم وتأمين عملية الانسحاب من المكان. إلا أن المعوقات التي تواجه القناص، تتمثل باختيار المكان الذي يشن منه الهجوم، وغالباً ما يحتاج إلى مكان مرتفع. وتكمن الصعوبة هنا في جانبين: **الأول** كيفية الانسحاب من المكان دون أن يثير الانتباه؛ و**الثاني** الاحتفاظ بسلاح القنص لأنه نادر ومهم ومؤثر في معارك المقاومة ضد المحتلين، لذا، فالتفكير في ترك السلاح في المكان لا يمكن أن يكون ضمن الخيارات المطروحة إلا في الظروف الصعبة جداً لأن ترك بندقية القنص يدلل على خلل أو ضعف في خطة الانسحاب. ويضع المقاومون أولوية للانسحاب لضمان سلامة المقاوم وإشعار قوات الاحتلال بقدرة المقاومين على وضع الخطط العسكرية المتكاملة، التي تبدأ من النهاية، أي كيفية الانسحاب من موقع المعركة بسلام، ومن ثم كيفية تنفيذ الهجوم.

وتكمن أهمية سلاح القنص في حرب الغوار، كما يصفها غيفارا، أو حرب العصابات كما يتحدث عنها هوشي منه، في حجم الرعب والهلع الذي تثيره عمليات القنص في صفوف الدورية العسكرية المعادية، من لحظة سقوط الشخص لإطلاق نار من دون صوت، ثم انطلاق صراخه، وتدفق الدم الذي ينفر بسرعة، ومكان الإصابة التي تكون قاتلة وتتجاوز المناطق المحمية من الجسم مثل الصدر والظهر الذي غالباً ما يكون مغطى بسترة واقية. وتأتي الإصابة في الوجه وقد تكون في العين أو في مؤخرة الرأس، وهي المناطق القاتلة التي يختارها قناص المقاومة، الذي يدقق من خلال المنظار بهدوء وبحبس أنفاسه للحظات قبل أن يضغط على الزناد، وعندما يكون واثقاً من دقة الإصابة داخل ١ سم^{٢}. وهذا يمنحه حرية كبيرة في اختيار المكان في الوجه أو الرأس وبما يحقق القتل المؤكد. كما أن سقوط القتيل المفاجئ، ونفور الدم من العين أو الأنف أو الجبهة، يزرع صورة مرعبة في أذهان الجنود الذين معه، ويبقى هذا المشهد يلاحقهم في جميع الأوقات، وغالباً ما يتحول إلى كابوس مرعب يتسيد لحظات خلودهم إلى الفراش، ويؤسس للهلع المزمن الذي يعيشه الكثير من جنود الاحتلال الأمريكي، الذين شاهدوا دماء ورفسات زملائهم بفعل هجمات المقاومة العراقية.

في يوم واحد قُتل ثلاثة جنود أمريكيين في سامرّاء (تبعد عن بغداد حوالى ١٠٠ كم، ومن أهم آثارها التاريخية «ملوية سامراء»)، والقتلى من الجيش الأمريكي هم كل: من ريتشارد كارل (Richard P. Carl) عمره ٢٦ سنة من ولاية كولورادو. وهانسن غوكيسن (Hansen Gukeisen) وكان في الحادية والثلاثين من عمره، ويحمل رتبة ضابط صف في الجيش الأمريكي. أما القتيل الثالث فهو براين فان دوسن (Brain K. Van Dusen) ويبلغ من العمر ٣٩ عاماً، وهو برتبة ضابط صف من ولاية أوهايو، متزوج وله صبي عمره عامان وبنت عمرها ستة أعوام[١١].

وكان هؤلاء الجنود على متن طائرة هليكوبتر استهدفتها نيران رجال المقاومة، رغم أن الجيش الأمريكي قد أصدر بياناً قال فيه إن سقوط الطائرة ما زال قيد التحقيق. ونقلت وكالات الأنباء عن ضباط أمريكيين اعتقادهم أن الطائرة ارتطمت بأسلاك نقل الطاقة الكهربائية، ما تسبب بسقوطها ومقتل الجنود الثلاثة الذين كانوا ضمن الطاقم. إلا أن ما يكذب هذا الادعاء أن التيار الكهربائي كان منقطعاً تماماً في عموم أنحاء العراق، بعد أن توقفت جميع محطات إنتاج الطاقة الكهربائية وتعرضت للنهب، كما أن أسلاك نقل الطاقة تعرضت قبل التاسع من أيار/ مايو (يوم سقوط الطائرة) بشهر للسرقة من قبل عصابات باشرت هذه العمليات منذ يوم التاسع من نيسان/ أبريل ٢٠٠٣. لذلك فإن الرواية الأمريكية تصطدم بواقع يؤكد أنها واحدة من المزاعم التي اعتمدها الجيش الأمريكي في بياناته، ويريد من خلالها التقليل من حجم خسائره، عندما يكون مضطراً للاعتراف بحصول مثل هذه الخسائر، كما هي الحال في إسقاط المقاومة العراقية للمروحية الأمريكية، وصادف ذلك اليوم مرور شهر كامل على دخول القوات الأمريكية مدينة بغداد في التاسع من نيسان/ أبريل.

وفي اعتراف لقائد السرب الذي كانت هذه الطائرة من ضمن طائراته، قال الرائد وليام إشانس إن النيران اشتعلت في الطائرة التي سقطت بالقرب من سامراء على ضفة نهر دجلة. وقال أيضاً إنه لوحظ تبادل إطلاق نار عندما وصلت مروحية ثانية قادمة من مطار تكريت، والتي قطعت المسافة خلال ١٥ دقيقة وتمكنت من الهبوط قرب مكان الحادث. وتأكد وجود جرحى حالتهم خطرة، وتم سحب الطائرة الغارقة في نهر دجلة بمساعدة فريق الإنقاذ الذي وصل للتو على متن مروحية بلاك هوك.

---

(١١) بحسب اعتراف وزارة الدفاع الأمريكية، وقد نُشِرت تفاصيل عن القتلى في المواقع الخاصة بخسائر القوات الأمريكية في العراق.

لم نحصل، في الواقع، على بيان يتحدث عن الهجوم على الطائرة الأمريكية، إلا أن أبناء مدينة سامراء والمناطق المحيطة بها والقريبة منها مثل منطقة الإسحاقي والمعتصم، تناقلوا في اليوم نفسه تفاصيل إسقاط المروحية، وهناك من أكد أنه شاهد بأم عينيه صاروخاً اتجه نحو الهليكوبتر وأصابها مباشرة فاشتعلت النيران إثر ذلك فيها، وحاول قائدها تفادي السقوط على اليابسة فاتجه بها صوب مياه نهر دجلة، اعتقاداً منه ـ كما يبدو ـ أن السقوط على اليابسة يعني حصول اصطدام شديد بالأرض قد يفضي إلى موت محقق للجميع، بينما السقوط في مياه نهر دجلة ربما يحمل فرصة لنجاة البعض منهم.

إن إسقاط مروحية أمريكية في هذه المنطقة (سامراء) قد أثار الشهية للحوار والجدال على أكثر من مستوى، وفي مقدمة تلك الحوارات، التي تدور بين العراقيين الذين وصلتهم بعض تفاصيل سقوط المروحية، تركز على التشكيك في بعض مرتكزات القوة الدعائية الأمريكية، التي تعرض لها العراقيون على نطاق واسع ضمن برنامج الحرب النفسية «الصدمة والترويع» قبل بداية الحرب وتواصلت خلالها. وهناك فرضيتان أساسيتان في النقاشات والحوارات، **الأولى**، تقول بأن الحادث قد يكون وقع بسبب خطأ ارتكبه الطيار واصطدم بأسلاك الكهرباء، ورغم عدم قناعة الجميع بذلك ـ وهنا نتحدث عن حوارات في المجالس واللقاءات الاجتماعية في المناطق القريبة من سامراء ـ إلا أن تشكيكاً قد بدأ يظهر في دقة الطيارين ومهاراتهم وقدراتهم على المناورة، وما تحمله المروحيات من مجسات إلكترونية تكتشف أي جسم غريب قد يلحق ضرراً بها. وهذه الفرضية أخذت تؤسس ـ وإن كان في مساحة ضيقة جداً ـ للتشكيك في مسألة «القدرات الهائلة» والتقنيات المتطورة التي يمتلكها الجيش الأمريكي. وفي حال وجود هذه التقنيات وفشلها في تفادي أسلاك نقل الطاقة الكهربائية ـ هذا في حال وجود مثل هذه الأسلاك ـ فإن ذلك يقلل من حجم الصورة والهالة الكبيرة، التي رسموها على شكل قناعات ثابتة وصورة نمطية في عقل الآخر، وفي مقدَّم ذلك العراقيون الذين ترسخت في أذهانهم تلك الصورة «السوبرمان الأمريكي».

أما الفرضية **الثانية** فترجح أن سقوط المروحية كان نتيجة استهدافها بصاروخ «ستريلا» محمول على الكتف والذي يصيب المروحيات التي تحلق على ارتفاعات واطئة. وهذه الفرضية أشعلت الحوار وبدأت تؤسس لإشعال الحماس عند البعض. فكيف استطاع شخص ضرب المروحية في وضح النهار وفي أرض سهلية منبسطة على ضفة نهر دجلة وتمكن من إسقاطها (الأراضي المحيطة بسامراء زراعية، وليست هناك جبال ومرتفعات وكهوف)، وتم تنفيذ الهجوم وانسحاب المهاجم، من دون أن ترد عليه

أسلحة المروحيات، التي قيل الكثير حولها ضمن حملة «الصدمة والترويع» من مثل أن الأسلحة الرشاشة ترد على مصدر إطلاق النار الصادر من «العدو» خلال عدة ثوانٍ وتدمر الهدف في الحال؟ إلا أن الرواية التي تناقلها أبناء المنطقة، لم تتحدث عن إطلاق نار ضد أي شخص، وأن القوات الأمريكية لم تسارع إلى البحث في المناطق القريبة عن «العدو»، الذي يفترض العراقيون أنه يجب أن يُقتل بالأسلحة الرشاشة الأوتوماتيكية. إن هذه الحوارات، فتحت ـ في تقديري ـ الأبواب أمام واحد من أهم حقول بذور المقاومة، وهو التشكيك بالقدرات الخارقة للقوات الأمريكية وأسلحتها المتطورة؛ هذا على صعيد الحوارات والنقاشات في الإطار المجتمعي العام، أما الحوارات الأخرى، فبالتأكيد كانت في نطاق ضيق جداً، ومن قبل طرفين رئيسيين، فلا بد من أن القيادة العسكرية الأمريكية، قد أخضعت الهجوم على المروحية ـ بهذه الطريقة ـ والتمكن من إسقاطها إلى الدراسة المعمقة، لسببين، **أولهما**: التأكد من وجود قوة مقاومة، لا تريد أن تنتظر مثل جميع المقاومات في العالم لسنوات لتبدأ طلقتها الأولى، وهذا أمر في غاية الخطورة، ولم يضعه الأمريكيون في حساباتهم، وهو ما اعترف به نائب وزير الدفاع الأمريكي بول وولفوفيتز في وقت لاحق أثناء زيارته إلى بغداد أواخر تموز/ يوليو ٢٠٠٣، وقال «إننا لم نتوقع أن تتعرض قواتنا إلى طلقة واحدة». بل إن قناعات الأمريكيين، التي استندت إلى دراسات ومعلومات استخبارية واستقراء للواقع العراقي في ظرف ما بعد الغزو، تذهب باتجاه أن الجنود الأمريكيين في العراق لن يسمعوا إطلاقة واحدة .

أما السبب **الثاني**، فهو السلاح الذي استهدف أهم عنصر في السلاح الأمريكي في العراق، وهو المروحيات، وأن حصول هجوم بهذا الحجم بعد شهر على احتلال بغداد، وبعد مرور أكثر من أسبوع على إعلان الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش النصر في العراق، فإن ذلك يؤشر إلى مسألة خطرة، تحتاج إلى تأمل ودراسة أكثر عمقاً من قبل الأمريكيين أنفسهم وتحديداً القيادات العسكرية.

أما من جهة الأفراد أو المجاميع التي بدأت تتشكل باعتبارها نواة لفصائل وكتائب وجيوش المقاومة العراقية، والتي سمعت أو نفذت هذا الهجوم، فقد أصبحت تتمتع بزخم معنوي كبير، يمكن استغلاله في ميدان تعبئة أكبر عدد ممكن من الشباب للانخراط في صفوفها، ومجرد التفاخر بين العراقيين بأن فلاناً أو المجموعة الفلانية تمكنوا من الثأر من الغزاة وأسقطوا مروحية لهم وقتلوا أو جرحوا عدداً من جنودهم، وأثاروا الخوف والارتباك بين قواتهم، فإن ذلك يسهم في إشعال الحماس، وهو أهم عوامل نشأة أية مقاومة. وتستند أهمية هذا الحجم من الحماس إلى فعل مقاوم ميداني،

يثلم في تفاصيله الصورة النمطية الكبيرة التي تحمل تفاصيل القوة الأمريكية الهائلة، وفي الوقت نفسه، يدفع بالبعض إلى الاقتداء بهذا المقاوم أو مجموعته التي ينتمي إليها لتطوير الفعل العسكري المتمثل بالهجوم وإسقاط المروحيات، والإسراع في وضع الخطط الكفيلة بزيادة مثل هذه الهجمات.

بعد أربعة أيام من إعلان الرئيس الأمريكي بوش بيان الانتصار، تسلمت عوائل ثلاثة جنود أمريكيين خبر إصابتهم في مدينة بعقوبة مركز محافظة ديالى (٥٠ كم شمال شرق بغداد)، هذه المدينة التي تُعرف باسم مدينة البرتقال، حيث تشتهر بزراعة أفضل أنواع الحمضيات في العراق، بدأت مشوارها مع قوات الاحتلال بسقوط ثلاثة جرحى أمريكيين يوم الثلاثاء المصادف السادس من أيار/ مايو ٢٠٠٣، ونحن هنا ما زلنا إزاء تناقض ما اعترف به الجيش الأمريكي لعدم توافر مصادر أخرى، وهذا ما يقتضيه البحث العلمي. فقد اعترف الجيش الأمريكي بذلك الحادث، وقال متحدث باسمه[١٢] إن الجنود الثلاثة تم نقلهم على الفور إلى مستشفى أمريكي قريب في بلدة بعقوبة، وإن إصابة اثنين من الجرحى خطيرة، ولم توضح وزارة الدفاع الأمريكية حجم إصابات الجنود، ومن غير الواضح ما إذا لقي واحد منهم حتفه. ويمكن القول بأن هؤلاء الجرحى الثلاثة من أوائل خسائر القوات الأمريكية في محافظة ديالى، التي شهدت بعد ذلك التاريخ بأسابيع وأشهر اشتعال المقاومة العراقية في مدنها وقصباتها التي تمتد على مسافات طويلة مع الحدود الإيرانية، كما ترتبط بحدود مع العاصمة بغداد ومن الشمال مع مدن كركوك وإلى الغرب مع صلاح الدين.

في التاسع من أيار/ مايو ٢٠٠٣، تلقت صحيفة **واشنطن غلوب** في مقرها الرئيسي داخل الولايات المتحدة خبراً سيئاً[١٣]، عندما اتصل مسؤول في البنتاغون بالصحيفة ليبلغهم خبر مقتل مراسلتهم إليزابيث نيومز (٤٦ عاماً). وتلقت عائلة الصحفية الخبر أيضاً. وكانت إليزابيث قد أرسلت العديد من التقارير الصحفية، التي تحدثت فيها عن انتشار القوات الأمريكية وسيطرتها على المدن العراقية، وبينما هي في رحلة إلى بغداد قادمة من مدينة تكريت، حيث رافقت القوات الأمريكية هناك أثناء تنفيذ عمليات دهم واعتقال، لقيت حتفها. إزاء ذلك يمكن التكهن أن المقاومة العراقية تضع الصحافيين الذين يرافقون قوات الغزو نصب هدف مشروع لهم. فهؤلاء الصحافيون يرافقون

(١٢) بيان الجيش الأمريكي الذي اعترف فيه بمقتل الجنود يوم ٥/ ٥/ ٢٠٠٣.

(١٣) أعلنت صحيفة **واشنطن غلوب** مقتل مراسلة الصحيفة إليزابيث نيومز (٤٦ عاماً) في العراق في ٩/ ٥/ ٢٠٠٣. انظر: *Washington Globe*, 9/5/2003, <http://www.washingtonglobenews.com/>.

القوات الأمريكية ويكون نومهم وأكلهم مع هذه القوات التي توفر الحماية لهم وترافقهم عربات للحراسة وللأمن الشخصي. لم يتم تحديد المكان الذي لقيت فيه مراسلة **واشنطن غلوب** حتفها، إلا أن البنتاغون، زعم أنها قتلت بين بغداد وتكريت. ولم يتحدث شهود عيان عن هذه الحادثة، ولم أعثر في أدبيات فصائل المقاومة التي صدرت لاحقاً وتحدثت عن بعض الهجمات إشارة إلى مقتل الصحافية. وكانت القوات الأمريكية تسارع إلى قطع الشوارع وتمنع الحركة عندما تتعرض إلى أي هجوم من المقاومة العراقية، وفي واقع الحال لا يستطيع أحد التعرف إلى هوية وطبيعة عمل ونشاط الأشخاص، الذين يكونون داخل عربات الهمر أو البرادلي وغيرها من الناقلات المصفحة، لأنها جميعها تتحرك ضمن رتل قتالي. وقد بثت وكالة «رويترز» خبراً قصيراً عن مقتل إليزابيث ونشرته الصحف الأمريكية يوم السبت المصادف التاسع من أيار/ مايو ٢٠٠٣.

وإذا كانت أخبار مقتل الجنود الأمريكيين، بفعل هجمات المقاومة العراقية، قد أثارت الخوف لدى عوائل بقية الجنود، الذين تصوروا أن إعلان بوش عن انتهاء العمليات، بمنزلة رسالة طمأنة لهم بعودة أولادهم وبناتهم إلى بيوتهم سالمين، ثم جاءت الأخبار المأسوية بمقتل عدد منهم قبيل ساعات من «إعلان الرئيس»، وبعد ساعات وأيام من ذلك الإعلان، فإن مقتل الصحافية إليزابيث كان الخبر الأسوأ بالنسبة إلى وسائل الإعلام الأمريكية، التي جندت عدداً هائلاً من المراسلين والمصورين لمرافقة القوات الأمريكية منذ اليوم الأول للغزو في التاسع عشر من آذار/ مارس، كما توافد العشرات من الصحافيين والكتاب بعد الاحتلال، لتغطية فصول «الانتصار» الأمريكي، من خلال إرسال التقارير والمقالات والصور التلفزيونية، التي تشيد بإنجاز الجيش الأمريكي، والعمل على خلق صورة أسطورية لهذا الجيش في مرحلة ما بعد انتهاء العمليات العسكرية وتحقيق الانتصار التاريخي الكبير.

لقد جاء مقتل مراسلة مجلة **واشنطن غلوب**، المتخصصة في تغطية الحروب في البوسنة وغيرها، منبهاً إلى أن هذه الحقبة في تاريخ أمريكا، ليست بالصورة الوردية التي حاول أن يرسمها السياسيون في البيت الأبيض والقادة العسكريون في البنتاغون، وبدأت قناعات أخرى تنشأ بالتدريج، تختلف عن كل ما تم ترديده وتصويره أمام الرأي العام الأمريكي والدولي. ومع التساقط المتزايد للقتلى والجرحى، اضطرت وسائل الإعلام إلى التنبيه إلى خطورة ما تنطوي عليه الأوضاع من متغيرات محتملة، وهذا ما دفع بوكالات الأنباء وكبريات الصحف إلى اعتماد إحصاء جديد، لم يكن معتمداً قبل

خطاب الرئيس الأمريكي؛ إذ غالباً ما تؤكد وسائل الإعلام أن أعداد القتلى بين القوات الأمريكية قد بلغ كذا منذ بداية العمليات العسكرية في التاسع عشر من آذار/ مارس ٢٠٠٣، وأن عدد القتلى بلغ كذا منذ إعلان بوش انتهاء العمليات العسكرية، في تأكيد واضح أن العمليات العسكرية لم تنته في العراق، وأن ثمة قوة تتزايد وتمتلك الإرادة والإصرار على التصدي للقوات الأمريكية والبريطانية وغيرها على أرض الواقع.

في الوقت الذي كانت المقاومة تصطاد جنود الاحتلال الأمريكي في بغداد وبعقوبة وسامراء والموصل والأنبار، نفذ رجالها في الوقت ذاته هجوماً عنيفاً في أقصى جنوب العراق، عندما انقضّت ثلة من رجال المقاومة على ثكنة عسكرية بريطانية في مدينة البصرة، واعترفت وزارة الدفاع البريطاني بالهجوم(١٤). فوجئ الجنود البريطانيون (فئران الصحراء) بهجوم بالأسلحة الرشاشة والرمانات اليدوية ضد أحد مقارّهم العسكرية في البصرة، حيث تمكن المقاومون في هجومهم من قتل أصغر جندي في الجيش البريطاني (أندرو كيلي ١٨عاماً). استهدف الهجوم أحد مقار الكتيبة الثالثة من فوج المظليين، وبدلاً من استمرار فرحة عائلة كيلي، التي غمرتهم بعد سماع أخبار الانتصارات في العراق، فإن الخبر الأسوأ وصلهم من طريق وزارة الدفاع البريطانية في لندن، حيث أُجري تشييع كبير للقتيل، الذي أرسلت جثته المقاومة العراقية إلى مدينة كالنغتون في بريطانيا، وتم وضع حزام كيلي وقبعته على التابوت الذي حمله ستة من زملائه في الفوج، بحضور والده روبرت، ووالدته وزوجها. وعبّر جيف بادري ساسكس وهو قسيس من الجيش الملكي عن سعادته بما «أنجزه الجندي القتيل» في العراق، وقال في حفل التأبين إنه نجح في العمل الذي طالما سعى إليه. وقال أصدقاء له، إننا نشعر أنه حقق شيئاً من خلال الذهاب إلى العراق، وإنه كان يريد أن يفعل شيئاً في حياته، وليس مجرد الجلوس والوقت يمضي(١٥). وكان خمسة جنود بريطانيين لقوا حتفهم على أرض العراق خلال شهر أيار/ مايو ٢٠٠٣، وأُضيفوا إلى سجلات الجنود الذين سقطوا في الأيام الأولى لنشأة المقاومة.

في أسابيع انطلاقتها الأولى، نفذت المقاومة هجمات في العديد من مدن ومناطق العراق، كما أن أهدافها لم تقتصر على اصطياد جنود القوات الأمريكية فحسب، ففي اليوم الذي قُتل فيه أحد جنود القوات البريطانية على أيدي المقاومين في مدينة البصرة

---

(١٤) انظر الصحف البريطانية الصادرة في ٦/ ٥/ ٢٠٠٣، وبيان وزارة الدفاع البريطانية التي اعترفت فيه بالخسائر بين قواتها في البصرة بجنوب العراق، و BBC, <http://www.bbc.co.uk/>.

(١٥) نشرت الصحف البريطانية وموقع الـ «بي بي سي» تصريحات الذين شاركوا بمراسم التشييع في لندن.

في التاسع من أيار/ مايو ٢٠٠٣، كان هناك هدف آخر يصاب، ليس من القوات الأمريكية ولا البريطانية. ففي ٩/ ٥/ ٢٠٠٣، تم إبلاغ قوات الاحتلال التشيكية المشاركة في احتلال العراق بسقوط أحد جنودها جريحاً، واعترفت هذه القوات بأن الحادث حصل جنوب بغداد على بعد ١٥٠ كم ـ تم إعلان التفاصيل بعد أن لفظ الجندي التشيكي أنفاسه الأخيرة في مستشفى براغ[١٦] ـ حيث تم نقله على وجه السرعة، بعد أن أصيب بجروح بليغة. وبموت الرقيب أول بافل موريز، تكون المقاومة العراقية قد أضافت جنسية أخرى إلى أهدافها من قوات الاحتلال، وهو أول قتيل من القوات التشيكية. وقال اللواء روتيسلاف مرزوك، نائب رئيس هيئة أركان القوات المسلحة التشيكية، إن موريز هو أول عسكري تشيكي يُقتل في أرض المعركة في العراق[١٧]. وأعلن العقيد ميروسلاف بارتوس مدير المستشفى العسكري في براغ، أن الرقيب أول موريز قد أُصيب بجروح يوم التاسع من أيار/ مايو، وتم نقله إلى مستشفى ميداني تلقى فيه العلاج لمدة ثلاثة أيام، وفي ١٢/ ٥/ ٢٠٠٣ تم نقله في طائرة عسكرية إلى براغ، إلا أنه توفي (بسبب فشل أجهزة الجسم الحيوية). ويبلغ موريز الخامسة والعشرين من العمر، من مدينة برنو (٢٠٠ كم جنوب براغ)، وكان اثنان من جنود الاحتلال التشيكي قد أصيبا بجروح، غير أن موريز كانت إصابته خطيرة وفي منطقة الرأس.

لم تصل الأخبار السيئة إلى عوائل الجنود الأمريكيين فحسب، بل إن مواصلة المقاومة العراقية نشاطاتها وتنفيذ هجماتها في أماكن عديدة وضد جميع قوات الاحتلال، بما فيها البريطانية والتشيكية، قد قلبت في وقت مبكر قناعات وأمنيات عوائل الجنود التي أرسلت أبناءها إلى العراق. وإذ لم ينقضِ إلا أسبوع واحد على «إعلان بوش» انتهاء العمليات العسكرية، حتى وصلت أخبار المقاومة العراقية إلى العواصم المشاركة في الاحتلال، نتيجة لحضورها في انطلاقتها الأولى، وإثبات وجودها في أرض المعركة. وعندما نتحدث عن سقوط قتلى في أكثر من منطقة في الجنوب والوسط والغرب والشمال، ومن أكثر من جنسية من قوات الاحتلال، فإننا يجب أن لا ننسى، أن المقاومة قد تمكنت من إرسال قتلى إلى ثلاث دول، هي الولايات المتحدة وبريطانيا والتشيك خلال الأيام الأولى من انطلاقتها التي أشرنا إلى أنها بدأت منذ اليوم الأول للاحتلال في

---

(١٦) أعلنت وكالة «أسوشييتد برس» عن مقتل جندي من التشيك في العراق، وقد أصيب بهجوم للمقاومة في العراق يوم ٩/ ٥/ ٢٠٠٣. انظر: Associated Press, 9/5/2003, <http://www.ap.org/>.

(١٧) قالت «أسوشييتد برس» إن الجندي قد نُقِلَ إلى إحدى مستشفيات براغ يوم ١٢/ ٥/ ٢٠٠٣، إلا أنه توفّي بسبب فشل كلوي نتيجة الإصابات التي تعرّض لها خلال الهجوم على القوات التشيكية الموجودة في جنوب العراق. انظر: Associated Press, 12/5/2003, <http://www.ap.org/>

العاشر من نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، وفي التاسع من أيار/ مايو ٢٠٠٣، تمكنت من إرسال جثث القتلى من أرض العراق التي وقعت تحت الاحتلال أي بعد شهر واحد. وإذا كان القتيل الأمريكي الأول قد سقط في أول يوم للاحتلال الأمريكي للعراق وهو العاشر من نيسان/ أبريل، فإن أول بريطاني تقتله المقاومة في البصرة قد سقط في السادس من أيار/ مايو، كما سقط الجندي التشيكي الأول في مدينة واسط جنوب بغداد.

في العاشر من أيار/ مايو ٢٠٠٣، فوجئ الصحافيون الغربيون بتظاهرة نظمها العسكريون العراقيون من جنود وضباط الجيش العراقي السابق، ونقل الصحافي الأمريكي ريتشارد ليبي من صحيفة **واشنطن بوست** تهديدات أطلقها المتظاهرون، وقال إن هؤلاء يطالبون برواتبهم، وفي الوقت ذاته يهددون بتجميع قوات ومحاربة الأمريكيين، ورغم أن خطاب الذين خرجوا بهذه التظاهرة، لم يرتقِ إلى الدرجة المطلوبة من خطاب المقاومة، لأنه ربط عدم المقاومة في حال حصل تسلم الرواتب، إلا أن له دلالات هامة، وبخاصة ما يتعلق باللجوء إلى خيار المقاومة. ولم يتحدث هذا العدد القليل من المتظاهرين عن هذا الخيار، إلا نتيجة لانتشار الأخبار والمعلومات التي تتحدث عن هجمات ينفذها المقاومون العراقيون. وهذا ما يشجع البعض على البحث عن سبل لتنفيذ هجمات مماثلة، سواء كانت بشكل فردي أو على شكل مجاميع، وهناك خيار البحث عن المجاميع من المقاومين الذين ينفذون تلك الهجمات.

في اليوم ذاته الذي وصل فيه الحاكم الأمريكي بول بريمر إلى العراق ليمسك بالسلطة خلفاً للجنرال جي غارنر، وكان ذلك يوم الاثنين ١٢/ ٥/ ٢٠٠٣، تمكنت المقاومة العراقية في ذلك اليوم من قتل اثنين من المارينز في بغداد، وكان أول تقرير يتم تقديمه إلى بريمر قد تضمن مقتل هذين، وفي ذلك اليوم كتب صحافي أمريكي: «بعد أكثر من شهر على سقوط العاصمة العراقية، ما زال الأمن غائباً عن المدينة، ولا تمر ساعة من دون إطلاق رصاص أو سماع أصوات انفجارات»[١٨]، وهذا تصريح نجد فيه اعترافاً صريحاً عن أوضاع قلقة ومرتبكة في بغداد العاصمة، التي يوجد فيها الصحافيون الأمريكيون وسواهم، وذلك في الجملة التي وردت ضمن رسالته الصحفية ويقول فيها إنه لم ينقطع سماع إطلاق الرصاص ودويّ الانفجارات.

وصل بريمر ومعه ريتشارد مايرز رئيس هيئة أركان الجيوش الأمريكية في رحلة كانت الكويت أولى محطاتها، ثم البصرة، وبعد ذلك تم الانتقال إلى مطار بغداد. وقبل

(١٨) انظر تقرير الصحافي الأمريكي باتريك تايلور، في: *The New York Times*, 13/5/2003.

أن يدخل بريمر إلى مكتبه في أحد القصور الرئاسية، ويجد أمامه تقارير ذلك اليوم التي تحدثت عن مقتل اثنين من جنود المارينز على أيدي المقاومة العراقية، تحدث أمام الصحافيين وقال: «لا أتوقع أي مشاكل في العراق مع هذا التغيير، وإننا سننخرط مع الأشخاص المعنيين في العراق في عملية مناقشة الفترة الانتقالية التي تسبق تشكيل الحكومة العراقية، وذلك خلال مدى زمني لم يتحدد بعد، وإننا لسنا هنا كقوة استعمارية، نحن هنا كي نُعنى بأمر الشعب العراقي، بأسرع وقت ممكن»[١٩].

أما جنديّا المارينز اللذان قتلتهما المقاومة العراقية مع بداية الشهر الثاني من الاحتلال، في اليوم نفسه لوصول بريمر ومايرز فهما كل من: جاكوب هنري كوكيزن، ٢١ عاماً من قوات المارينز؛ وجو فرانسيس غونزاليس البالغ ١٩عاماً. وغونزاليس من كاليفورنيا وعُين في كتيبة التموين ١٠١ قوة دعم الفرقة، وهو في الأساس كان مهاجراً مكسيكياً، ومن المتفوقين في دراسته، وبعد سماع خبر مقتله على أيدي المقاومة قالت مديرة مدرسة كرانيلو: «أكره أن أفقد طلاب المدرسة بهذه الطريقة»[٢٠].

في شهر أيار/ مايو ٢٠٠٣، قُتل أربعة جنود بريطانيين من قواتهم المتمركزة في مناطق جنوب العراق. إضافة إلى أندرو كيلي الذي تحدثنا عنه، فقد سقط قتيل أحد جنود المدفعية وهو دنكان جيفري بريتشارد، أردته المقاومة في مدينة البصرة في ٨/ ٥/ ٢٠٠٣، وهو يعمل ضمن سلاح الجو الملكي البريطاني وعمره ٢٢عاماً. كان ضمن السرب ١٦، وأصدرت وزارة الدفاع بياناً أعلنت فيه مقتله[٢١]، ولم تكن عائلته تتوقع تلقي هذا الخبر السيئ، بعد أن استمعت مثل جميع البريطانيين إلى تصريحات رئيس الوزراء توني بلير، التي قال فيها إن العراق أصبح بلداً آمناً، وبعد أن استمع هؤلاء إلى خطاب بوش في الأول من أيار/ مايو وتصريحات دونالد رامسفيلد التي أطلقها نهاية نيسان/ أبريل من بغداد.

قُتل كذلك ليونارد هارفي (٥٥ عاماً) وهو عضو في خدمة الإطفاء التابعة لوزارة الدفاع البريطانية بعد إصابته بهجوم للمقاومة في مدينة البصرة، وأعلنت وزارة الدفاع البريطانية وفاته في ٢٢/ ٥/ ٢٠٠٣، وقبله بثلاثة أيام تم الإعلان عن مقتل العريف ديفيد شيبرد (٣٤ عاماً) الذي ينتمي إلى سلاح الجو البريطاني.

---

(١٩) **الشرق الأوسط**، ١٣/ ٥/ ٢٠٠٣.

(٢٠) نُشِرت تلك التفاصيل في موقع قتلى الجيش الأمريكي بتاريخ ١٣/ ٥/ ٢٠٠٣. انظر: iCasualties.org (Iriaq Coalition Casuality Count), <http://icasualties.org/iraq/index.aspx>.

(٢١) بيان وزارة الدفاع البريطانية عن مقتل الجنود في ٨/ ٥/ ٢٠٠٣.

تواصل سقوط الجنود الأمريكيين بين قتيل وجريح، ففي ١٣/ ٥/ ٢٠٠٣، قُتل باترك لي غريفن (٣١ عاماً) من القوة الجوية الأمريكية، في مدينة الديوانية (٢٢٠ كم جنوب بغداد)، ولم يعرف الكثيرون أن القتلى من قوات الاحتلال الأمريكي والبريطاني يتوزعون على مختلف مناطق العراق، بسبب التعتيم الإعلامي وعدم وجود وسائل إعلام عراقية ترصد القتلى من جنود الاحتلال، الذين يتساقطون هنا وهناك بفعل هجمات المقاومين. لذلك فإن العراقيين لم يسمعوا أي شيء عن هذه الهجمات، وفي اليوم ذاته الذي اعترفت فيه وزارة الدفاع الأمريكية بمقتل غريفن هذا، أقرت بمقتل أحد عناصر المارينز في مدينة الحلة، بعدما أعلنت القيادة العسكرية الأمريكية الوسطى في بيان لها أن «عنصر المارينز باتريك برين كليبوكر (١٩ سنة) قُتل في مدينة الحلة في عملية قتالية يوم ١٣/ ٥/ ٢٠٠٣»[٢٢].

في اليوم التالي جاء نشاط المقاومة العراقية من مكان آخر يبعد ٦٠٠ كم عن المكان الذي سقط فيه أحد جنود الاحتلال الأمريكي، إذ اعترف البنتاغون بمقتل أحد جنودها في مدينة الموصل بتاريخ ١٤/ ٥/ ٢٠٠٣، حيث سقط جندي آخر في الموصل وهو ديفيد نوت البالغ من العمر ٢٢عاماً، وبعد ٤٨ ساعة تلقت عائلة جندي أمريكي آخر نبأ مقتله في العراق حيث سقط في منطقة الحصوة جنوب بغداد بتاريخ ١٦/ ٥/ ٢٠٠٣، وكانت عائلة وليامز بين (٤٦ سنة) تتوقع وصول أخبار أخرى، على أمل عودته بعد شهر إلى عائلته، بعد أن أعلن الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش أن العمليات العسكرية قد توقفت في العراق. وفي يوم ١٨/ ٥/ ٢٠٠٣، اعترفت وزارة الدفاع الأمريكية بمقتل اثنين آخرين من جنودها، حيث أردتهما المقاومة؛ جرى ذلك في منطقتين متباعدتين (قضاء بلد محافظة صلاح الدين ٨٠ كم شمال بغداد ومنطقة السماوة ٢٢٠ كم جنوبها). وفي منطقة السماوة قتل دوغلاس جوس مارين كوريز (٢٨ سنة) وفي منطقة بلد قُتل راشيد ساهب (٢٢ سنة)[٢٣].

كان يوم ١٩/ ٥/ ٢٠٠٣ يوماً كارثياً، فقبل أن ينهي بول بريمر أسبوعه الأول، تسلم تقارير يوم دامٍ في العراق، وانهمك في الاستماع إلى الهجمات الليلية المتواصلة في مناطق بغداد، الصاروخية منها أو قذائف الـ «أر بي جي» أو الأسلحة الخفيفة، وتلقي الأخبار السيئة، التي تتحدث عن هجمات في مختلف المناطق. ومثل هذه المعلومات

(٢٢) بيان وزارة الدفاع الأمريكية في ١٣/ ٥/ ٢٠٠٣.

(٢٣) وثّقت قتل هؤلاء جميع المواقع والصحف الأمريكية الخاصة بقتلى الجيش الأمريكي في العراق، بما فيها صحيفتا **واشنطن بوست** (*Washington Post*) و**يو أس أي توداي** (*USA Today*).

تتسلمها القيادة المركزية للقوات الأمريكية، وأعتقد أن أحداً من العراقيين أو غيرهم، لا يعرف أن وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد قد بعث بتوقيعه ست رسائل إلى عوائل أمريكيين قُتلوا في العراق في هذا اليوم. إنه أكبر عدد من القتلى تعترف بهم وزارة الدفاع الأمريكية منذ بداية الاحتلال. على الجانب الآخر، تنهض المقاومة العراقية وتعمل مجاميعها الأولى على وضع الأسس السليمة لانطلاق المقاومة التي تحصد رؤوس الأمريكيين وسواهم من قوات الاحتلال التي وطئت أرض العراق. خمسة من القتلى الستة الذين قضوا في يوم واحد سقطوا في منطقة الحلة (١٠٠ كم جنوب بغداد) وواحد في منطقة صفوان جنوب البصرة. وتصدر قائمة القتلى من المارينز في هذا اليوم (١٩/ ٥/ ٢٠٠٣) الجندي اندرو ديفيد لامونت (٣١ عاماً) وجاسون وليم موور (٢١ عاماً) ثم ارون دين وايت (٢٧ عاماً) والرابع هو تيموثي لويس رايان (٣٠ عاماً) والخامس هو كيرك الين ستراسيكي وعمره ٢٣ سنة، أما القتيل السادس والوحيد الذي سقط في منطقة صفوان التابعة لمدينة البصرة في أقصى الجنوب فهو دومينيك باراغونا وعمره ٤٢ سنة. أما ناثانيل كالدويل البالغ من العمر ٢٧ سنة، وهو جندي أمريكي وليس من قوات المارينز فقد قتلته المقاومة في مدينة بغداد[٢٤].

وفي الخامس والعشرين من أيار/ مايو ٢٠٠٣، اعترف البنتاغون[٢٥] بمقتل الجندي ديفيد إيفانز وعمره ١٨سنة في مدينة الديوانية جنوب بغداد، وفي اليوم التالي (٢٦/ ٥/ ٢٠٠٣) قبل وصول بريمر بعدة أيام، تردد للمرة الأولى اسم البروفيسور نوح فيلدمان في بعض الصحف العربية، وذكرت صحيفة **الرياض** السعودية في عددها الصادر يوم ١١/ ٥/ ٢٠٠٣، أن فيلدمان[٢٦] هو «أبو الدستور العراقي الجديد»، وكان قد مضى على الاحتلال الأمريكي للعراق شهر واحد فقط، ولم يكن هناك تصور عن شكل الحكومة التي تنوي إدارة الاحتلال الأمريكي تنصيبها في العراق، ولم يعتقد الكثيرون، أن نوح فيلدمان وهو بروفيسور يهودي أمريكي من أصل عراقي، مكلف وضع أسس الدستور العراقي، الذي يقسم هذا البلد على أساس المحاصصة الطائفية والعرقية. باشر عمله في بغداد بصفة المستشار القانوني لبول بريمر، ووضع الصيغة الكاملة لما سُمي «قانون إدارة الدولة» الذي بدأ الحديث عنه بعد أشهر من تشكيل مجلس الحكم، وأعلنت بنوده في ١٦/ ١١/ ٢٠٠٣، وتحدث عنه الكثيرون من السياسيين المشاركين في مجلس

(٢٤) سقط بريت تبريكين وعمره ٣٠ سنة، من الجيش الأمريكي، في مدينة السماوة الواقعة جنوب بغداد.
(٢٥) اعترف البنتاغون بمقتله بتاريخ ٢٥/ ٥/ ٢٠٠٣.
(٢٦) **الرياض**، ١١/ ٥/ ٢٠٠٣.

الحكم وامتدحوه كثيراً، فيما انتقده بشدة المعارضون للاحتلال ووجدوا فيه جميع بوابات تخريب العراق وتقسيمه وتدميره، وتم إقراره من قبل مجلس الحكم في الثامن من آذار/ مارس عام ٢٠٠٤. ونوح فيلدمان مؤلف كتاب **بعد الجهاد** هو أستاذ الفكر الإسلامي ومدرّس القانون في جامعة نيويورك، وصل إلى بغداد في ذلك الوقت وشغل منصب رئيس فريق الخبراء الدستوريين في ما سمي «مكتب إعادة الإعمار في العراق».

ومعروف، أن الدستور الذي تمت صياغته عام ٢٠٠٥ وجرى الاستفتاء عليه في ١٥/ ١٠/ ٢٠٠٥، لم يخرج عن الثوابت التي جاءت في قانون إدارة الدولة، الذي وضع جميع نوافذ ومداخل ومخارج العملية السياسية الطائفية والعرقية، وأصرّت حينذاك الإدارة الأمريكية على إقراره بالصيغة التي وضعت وبالتفاصيل والجزئيات التي ثبتها فيلدمان. ورغم اعتراضات الكثيرين على مسألة الاستعجال في إقرار الدستور، إلا أن الأمريكيين تحدثوا عن توقيتات «مقدسة» بالنسبة إليهم، ومن أهمها: إقرار الدستور عام ٢٠٠٥، لتجري الانتخابات اللاحقة وفقاً له في ١٥/ ١٢/ ٢٠٠٥.

إن الحديث عن دور نوح فيلدمان باعتباره العقل الذي وضع آليات العمل السياسي في العراق، في حقبة ما بعد الغزو وباشر عمله في وقت مبكر من الاحتلال الأمريكي، لا ينفصل عن مجمل الأوضاع في العراق وتداعيات الأحداث فيه. ومن دون شك فإن إدراك العقول المخططة والمفكرة لبرنامج المقاومة العراقية قد توصلت في وقت مبكر إلى أن أخطار الاحتلال الأمريكي، لا تقتصر على وجود دبابات ومدرعات وقوات المارينز التي انتشرت في العراق، وهناك الطائرات والأقمار الاصطناعية التي تسيطر على أجواء العراق، بل إن هذا الاحتلال ينفذ برنامجاً خطيراً، لا يسعى إلى السيطرة على الثروة النفطية فحسب، كما حاول الكثيرون الترويج لذلك وترسيخ قناعات تذهب بهذا المنحى؛ ولا يبحث عن أسلحة دمار شامل مزعومة؛ ولا تغيير وجوده في سلطة الحكم داخل العراق؛ بل هناك برنامج يسير وفق مخطط عميق وخطير، يبدأ بتفتيت المجتمع العراقي وتقسيمه من طريق تخريب الروابط المجتمعية وزعزعة مرتكزات القوة في المجتمع العراقي.

ازدادت القناعة عند المجاميع الأولى لفصائل المقاومة العراقية والشخصيات المؤيدة لها، بضرورة تشخيص هذه الأخطار وتفكيك جوانبها، واعتمادها حشد المزيد من المقاتلين في صفوفها، والعمل على بث الوعي وفق الإمكانات البسيطة المتوافرة. فذلك من شأنه أن يزيد حماسة المقاومين لإدراكهم خطورة مشروع الاحتلال، وفي الوقت نفسه يبعث بتحذير واضح وصريح لكل من وقع تحت سطوة التزويق والكذب

الإعلامي الذي سبق الغزو الأمريكي وازداد كثافة وقوة بعد الاحتلال. ترسخت هذه التصورات وتحولت إلى قناعات عند المقاومين الأوائل، الذين تصدوا لقوات الاحتلال الأمريكي أفراداً ومجاميع، وذلك بعد أن اتخذت الإدارة الأمريكية أولى خطواتها في صوغ العملية السياسية، عندما شكل بريمر مجلس الحكم في منتصف تموز/يوليو ٢٠٠٣. وهذا السلوك جاء مطابقاً لرؤية المقاومين والقوى المعارضة، التي استطاعت في وقت مبكر استقراء الأوضاع السياسية واستشراف آمادها وما تحمله من شر مُركّب يستهدف العراق بكل شرائحه.

في ليل التاسع عشر من أيار/مايو ٢٠٠٣، شنت المقاومة العراقية هجوماً عنيفاً وسط مدينة بغداد مستهدفة تجمعاً للقوات الأمريكية. ونقلت صحيفة **الزمان** البغدادية[٢٧] عن شهود عيان أن سيارة تويوتا ـ كورونا انطلقت ليل الاثنين بسرعة فائقة صوب مركبة عسكرية كانت متوقفة قرب مجمع الأقسام الداخلية لطلبة كليات ومعاهد جامعة بغداد الواقع في شارع فلسطين قرب قناة الجيش، وأطلق الجنود الأمريكيون النار صوب السيارة، إلا أنها واصلت سيرها حتى ارتطمت بالمركبة الأمريكية وانفجرت محدثة دوياً هائلاً. وقالت الصحيفة في عددها الصادر يوم الأربعاء ٢١/ ٥/ ٢٠٠٣ أن الهجوم أسفر عن مقتل اثنين من الجنود الأمريكيين وإصابة ثلاثة آخرين بجروح. وروى العديد من الطلبة الجامعيين القاطنين في مجمع الأقسام الداخلية تفاصيل الهجوم، التي وصلت إلى أروقة الجامعة المستنصرية القريبة من المكان، إضافة إلى طلبة كليات جامعة بغداد في المجمع الجامعي في منطقة الباب المعظم بجانب الرصافة في العاصمة العراقية، في حين تكتمت القوات الأمريكية على هذا الهجوم، ولم يصدر أي بيان أو تصريح للقادة العسكريين الميدانيين أو من القيادة المركزية.

يؤكد هذا التعتيم على الهجوم العنيف الذي نفذته المقاومة العراقية، أن هذه القوات لم تذكر جميع الهجمات التي تشنها المقاومة العراقية ضد دورياتها في بغداد والمدن الأخرى. ويتذكر طلاب السكن الجامعي تفاصيل الهجوم، كما شاهد المئات منهم جثتي الجنديين الأمريكيين القتلى، وكيف سارعت القوات الأمريكية إلى تطويق المكان ووصلت مروحية لنقل الجنود الثلاثة الجرحى، الذين أصيبوا بالهجوم.

بعد شهر من الاحتلال الأمريكي للعراق وصل عدد الجنود الأمريكيين إلى ١٦٥ ألفاً، ونقل الصحافي الأمريكي مايكل غوردون عن مسؤولين عسكريين أمريكيين

(٢٧) **الزمان** (بغداد)، ٢١/ ٥/ ٢٠٠٣.

احتمال خفض هذا العدد إلى ١٠٠ ألف مع حلول الخريف، أي بعد خمسة أشهر من ذلك التاريخ، وفي ٢١/ ٥/ ٢٠٠٣ تم الإعلان عن خطة أمريكية ليُسلم العراقيون ما بحوزتهم من أسلحة إلى القوات الأمريكية، وقال عسكريون أمريكيون إن مرسوماً سيصدر قريباً بهذا الخصوص. يدلل ذلك على أن القوات الأمريكية والإدارة المدنية قد شكّلت غرفة عمليات لدراسة الأوضاع الأمنية، في ضوء الهجمات المتزايدة التي تشنها المقاومة العراقية. وقالت صحيفة **نيويورك تايمز** في عددها ٢٢/ ٥/ ٢٠٠٣ إن مرسوم تسليم الأسلحة الخفيفة والثقيلة سيصدره كل من بول بريمر والجنرال ماكيرنان، وهو جزء من سياسة أوسع تهدف إلى تحسين الأمن في بغداد والمدن العراقية الأخرى[٢٨].

ولم يقتصر الأمر على القوات الأمريكية، فقد أعلنت القوات البريطانية الموجودة في مناطق جنوب العراق، أنها تتدارس استقدام اللواء الجوي البريطاني السادس عشر إلى بغداد، وقال عسكريون بريطانيون إن إرسال هذا اللواء إلى بغداد مقرون بموافقة الحكومة البريطانية. وفي سياق التصريحات الصحافية، فقد اعترف قادة القوات الأمريكية أن التركيز الرئيسي هو تمكين القوات الأمريكية من حماية أنفسهم من المهاجمين، ما يدلل على أن هجمات المقاومة العراقية قد أجبرتهم على إعادة حساباتهم، ومنذ ذلك الوقت اختفى الحديث عن «الزهور» التي ينثرها العراقيون على القوات الأمريكية، وأخذ الخوف يتنامى في دواخلهم بسبب تزايد سقوط القذائف على مقارهم ومعسكراتهم واستهداف دورياتهم بالصواريخ والقنابل اليدوية.

بعد يومين من اعتراف القوات الأمريكية بأنها تتدارس مسألة قواعد الاشتباك المعمول بها، وأنها يجب أن تركز على حماية نفسها من المهاجمين، وتحديداً في ليل الأربعاء الموافق ٢١/ ٥/ ٢٠٠٣، شن المقاومون العراقيون في مدينة الفلوجة (٦٠ كم غرب بغداد) هجوماً بالصواريخ المضادة للدبابات على عربة أمريكية مدرعة، ورد الجنود الأمريكيون على الهجوم وفتحوا النار وقتلوا اثنين من العراقيين. شارك في الهجوم عدد من المقاومين، فاستخدمت مجموعة منهم الصواريخ المضادة للدروع، في حين تكفلت أخرى بالأسلحة الرشاشة، وتوزع عدة قناصين من المقاومين على سطوح بعض المباني القريبة. اعترف القائد الأمريكي النقيب مايك ريد مولر المسؤول عن وحدة فوكس التي تحتل مدينة الفلوجة، بأن جنوده قد هوجموا بقذائف صاروخية وببنادق كلاشنيكوف أثناء قيامهم بدورية في المدينة، وقال لقد تعرضنا لنيران قناصة من فوق الأسطح[٢٩].

---

(٢٨) *The New York Times*, 22/5/2003.

(٢٩) وكالة «رويترز» للأنباء، ٢٢/ ٥/ ٢٠٠٣، <http://ara.reuters.com>.

ويذكر شهود عيان من أبناء المدينة أن الهجوم الذي شنه المقاومون العراقيون قد تواصل لأكثر من ساعة، وأن القوات الأمريكية فتحت نيران أسلحتها بصورة عشوائية، واختبأ الجنود داخل دباباتهم، إلى أن وصلت المروحيات الأمريكية وكثفت تحليقها في سماء المدينة، كما سُمع صوت المقاتلات الجوية التي واصلت طيرانها حتى ساعات الصباح. وكان الهجوم الذي شنه المقاومون العراقيون قد بدأ في حدود الحادية عشرة ليلاً وسط الفلوجة، وسمع سكان المدينة سلسلة انفجارات تواصلت لأكثر من ساعتين، أما إطلاق الرصاص فقد استمر حتى الفجر.

في ذلك اليوم كانت جبهة أخرى يشعلها مقاومون في مدينة بعقوبة (٥٠ كم شمال بغداد) ضد دورية أمريكية. واعترفت القيادة الأمريكية الوسطى بمقتل أحد جنودها هناك يوم الأربعاء ٢١/ ٥/ ٢٠٠٣. وأُعلن في اليوم التالي (٢٢/ ٥/ ٢٠٠٣) عن إصابة جندي آخر بجروح بعد الكشف عن هجوم شنته المقاومة العراقية قبل ستة أيام من ذلك التاريخ، وقال بيان صادر من وزارة الدفاع الكندية[٣٠] إن قواتها تعرضت إلى هجوم بالقنابل، واعترفت بإصابة ضابط كندي بجروح في محيط مطار بغداد الدولي، واستناداً إلى راديو كندا الدولي الذي أعلن الخبر يوم الخميس ٢٢/ ٥/ ٢٠٠٣، قال إن الهجوم وقع السبت الماضي، غير أن القوات الكندية لم تكشف عنه في حينه، ولم تكشف عن هوية الضابط المصاب لأسباب أمنية. وفي ذلك الوقت كان ١٦ عسكرياً كندياً في العراق للمشاركة في القوات التي تحتله. ورغم وقوع الهجوم الذي شنته في محيط مطار بغداد فإن القوات الأمريكية لم تذكر ذلك على الإطلاق، وتكتمت عليه، مثلما مارست عمليات تعتيم على هجمات كثيرة أخرى يشنها المقاومون العراقيون.

تسلمت قيادة القوات الأمريكية في بغداد يوم الاثنين في٢٦/ ٥/ ٢٠٠٣ خبراً أثار فزعها؛ فقد وصل نشاط المقاومة إلى مناطق نائية، حيث شن المقاومون هجوماً في ذلك اليوم على دورية أمريكية بالقرب من الحدود السورية ضمن قاطع محافظة الأنبار، واعترف الجيش الأمريكي بوقوعه. تمكن المقاومون من قتل جندي أمريكي وجرح آخر. وقال بيان القوات الأمريكية[٣١] إن الهجوم وقع في مدينة حديثة (٢٥٠ كم غرب بغداد). وتمكن المقاومون من تنفيذ هجومهم والانسحاب من المكان بأمان، وسيطر الرعب على أفراد الدورية الأمريكية، الذين سارعوا إلى إطلاق النار بصورة عشوائية،

(٣٠) أُذيعَ الخبر في راديو كندا الدولي، ٢٢/ ٥/ ٢٠٠٣. انظر: Radio Canada International, <http://www.rcinet.ca/en/>.

(٣١) بيان صادر عن البنتاغون الأمريكي بتاريخ ٢٦/ ٥/ ٢٠٠٣.

وتوارى المهاجمون عن الأنظار خلال دقائق، وسرعان ما استدعت الدورية الأمريكية المروحيات التي حلقت على ارتفاعات واطئة، في حين شوهدت طائرة تهبط في مكان الهجوم، ونقلت القتلى والجرحى. ويقول شهود عيان إن الهجوم أسفر عن تدمير عربة همر وإحراقها وقتل جميع من كانوا بداخلها ويقدر عدهم بين ٤ إلى ٥ جنود. إلا أن البيان العسكري الأمريكي اعترف بمقتل جندي وجرح آخر. ووصف البيان الأمريكي المهاجمين بأنهم نصبوا «كميناً» للدورية. وهو اعتراف بأن المقاومة قد بدأت تعمل وفي وقت مبكر وفق خطط وسياقات عسكرية واستخبارية. واصطلاح «كمين»، يؤكد أن عملية رصد ميداني ومتابعة استخبارية قد نفذها المقاومون، وأنهم جمعوا معلومات ميدانية عن تحرك الدوريات العسكرية الأمريكية. وكان المقاومون ينتظرون الدورية الأمريكية في ضوء المعلومات وعملية الرصد والمتابعة، وأن الهجوم الذي شنه المقاومون لم يكن مصادفة، أو عبارة عن صدام مفاجئ بين الدورية العسكرية الأمريكية والمقاومين.

في هذا اليوم (الاثنين) أيضاً نفذت المقاومة هجوماً نوعياً آخر، فقد تصدى مجموعة من رجال المقاومة لدورية أمريكية في الشارع الرئيسي المؤدي إلى مطار بغداد، وتمت مهاجمة إحدى الدوريات التي غالباً ما تقل الشخصيات والضباط الذين يصلون إلى المطار (٣٠ كم غرب العاصمة). وتسلك هذه الدوريات الطريق الذي يربط المطار بالمنطقة الخضراء (مجمع القصور الرئاسية) على الضفة الغربية لنهر دجلة، وقد اتخذته القيادة العسكرية والمدنية الأمريكية مقراً لها. يخترق هذا الطريق الحديث حي العامرية وحي العامل والقادسية واليرموك والحارثية وكرادة مريم.

وقد اعترف متحدث باسم القوات الأمريكية[٣٢] أن قواتهم تعرضت لهجوم على طريق مطار بغداد، جرح فيه أربعة جنود أمريكيين. وبما أن البيان قد اكتفى بهذا القدر من المعلومات، فإن ذلك يدلل على أن المهاجمين تمكنوا من الانسحاب دون أن يصاب أحد من المقاومين العراقيين، وأن القوات الأمريكية لم تتحرك لمطاردتهم بعد تنفيذهم الهجوم. ومعروف أن الدوريات الأمريكية تتوقف عرباتها فور تعرض إحداها لهجوم بالعبوات أو القذائف الصاروخية، وتبدأ بإطلاق النار بصورة عشوائية، ولا يستطيع أحد من عناصر الدورية الخروج من داخل عرباتهم المصفحة لحين وصول المروحيات، التي لا يستغرق استدعاؤها سوى دقائق قليلة، في حين يتوارى المقاومون ولا يمنحون

(٣٢) متحدّث باسم القوات الأمريكية اعترف بالهجوم في ٢٦/ ٥/ ٢٠٠٣.

المروحيات فرصة لرصدهم واصطيادهم. وما لا شك فيه أن مثل هذه الهجمات في الأراضي المنبسطة والمفتوحة تتم وفق خطة عسكرية ميدانية متقنة، يتم إعدادها من قبل رجال المقاومة، بعد دراسة جغرافية المكان الذي يتم فيه تنفيذ الهجوم.

وفي اليوم التالي (٢٧/ ٥/ ٢٠٠٣) اعترف الجيش الأمريكي بوفاة أحد الجنود الأربعة الجرحى في الهجوم الذي نفذته المقاومة العراقية في اليوم السابق على طريق المطار، وروى ضباط الجيش الأمريكي روايتين متناقضتين حول هذا الحادث! فبينما قال البيان الصادر عن القوات الأمريكية، إن جندياً قتل وجُرح ثلاثة آخرون عندما مرت السيارة التي كانوا على متنها فوق لغم أو ذخيرة غير منفجرة على طريق يؤدي إلى مطار بغداد[٣٣]، ذكر ضباط أمريكيون أن أربعة جنود أمريكيين جُرحوا على الطريق المؤدية إلى مطار بغداد الدولي، وأن مجهولاً قد ألقى حقيبة تحتوي على عبوة ناسفة أمام موكب للقوات الأمريكية على الطريق الرئيسية المؤدية إلى المطار[٣٤]، وزاد من غموض القصة بيان القيادة الأمريكية الوسطى، الذي أعلنت فيه مقتل الجندي الأمريكي وجاء فيه: «يبدو أن وفاة الجندي نتيجة عمل عدائي بالرغم من أن الظروف الحقيقية للحادث لم تتأكد بعد».

في جميع الأحوال، فإن الهجوم نفذه المقاومون العراقيون ضد قوات الاحتلال الأمريكية في واحد من أهم شوارع العاصمة العراقية، الذي يربط بين أهم قاعدتين عسكريتين أمريكيتين في العاصمة، وهما القاعدة العسكرية في مطار بغداد الدولي، والقاعدة العسكرية في مجمع القصور الرئاسية (المنطقة الخضراء).

في اليوم ذاته (الاثنين ٢٦/ ٥/ ٢٠٠٣) سقط جندي أمريكي آخر قتيلاً في منطقة التليل على بعد ٢٥٠ كم جنوب شرق بغداد، وفي اليوم التالي (الثلاثاء ٢٧/ ٥/ ٢٠٠٣) نفذت المقاومة العراقية هجوماً كبيراً، استهدفت فيه هذه المرة المروحيات الأمريكية، وتمكن المقاومون من إسقاط إحداها بصاروخ مضاد للطائرات. وقد تحطمت المروحية في أطراف مدينة الفلوجة، وشوهدت النيران والدخان تتصاعد من الطائرة المحطمة. سارعت القوات الأمريكية إلى مكان سقوط المروحية وعزلت المنطقة بالكامل، وشوهدت مروحيتان تهبطان بالقرب من المروحية التي أسقطها المقاومون العراقيون. قالت قناة «الجزيرة» الفضائية[٣٥] إن عدداً ممن كانوا على متن المروحية التي سقطت

---

(٣٣) **الرياض**، ٢٨/ ٥/ ٢٠٠٣.

(٣٤) وكالة «فرانس برس» (أ. ف. ب.)، ٢٧/ ٥/ ٢٠٠٣، <http://www.afp.com/ar>.

(٣٥) قناة «الجزيرة» الفضائية بتاريخ ٢٧/ ٥/ ٢٠٠٣.

في مدينة الفلوجة قُتلوا، ولم تعط مزيداً من التفاصيل. واعترف الجيش الأمريكي بدوره بالحادث، إلا أن البيان الذي صدر بهذا الخصوص لم يعط تفاصيل أخرى[٣٦].

لم يكن إسقاط المروحية الأمريكية في يوم الثلاثاء ٢٧/ ٥/ ٢٠٠٣ الهجوم الوحيد للمقاومين العراقيين في مدينة الفلوجة، فقد شن المقاومون هجوماً آخر، واعترفت القوات الأمريكية بالهجوم. وأعلنت القيادة الوسطى الأمريكية، أن الجنود الأمريكيين في الفلوجة تعرضوا لهجوم بصواريخ أر بي جي وأسلحة خفيفة، وقُتل جنديان وجُرح تسعة آخرون. ورغم أن البيان الأمريكي قد زعم مقتل اثنين من المهاجمين وأسر ستة منهم، إلا أن شهود عيان في الفلوجة قالوا بأن المهاجمين أطلقوا قذائفهم من مكانين باتجاه القوات الأمريكية، وخلال دقيقتين انسحبوا جميعاً، في حين أطلقت دبابة (من نوع برادلي) النيران الكثيفة وأصابت عدداً من العراقيين، الذين كانوا مصادفة بالقرب من المكان أثناء الهجوم.

كان يوم الأربعاء ٢٨/ ٥/ ٢٠٠٣ مختلفاً، فقد أجبر المقاومون العراقيون القيادة العسكرية الأمريكية على الاعتراف بوقوع هجمات عديدة، واضطر الحاكم الأمريكي بول بريمر إلى الظهور في وسائل الإعلام للتقليل من خطورة الهجمات المبكرة التي تنفذها المقاومة. وقبل أن يمضي شهر واحد على خطاب الرئيس جورج دبليو بوش، معلناً الانتصار الكبير وانتهاء العمليات العسكرية في العراق، اعترفت القيادة الوسطى بأن تسعة جنود أمريكيين قد أُصيبوا خلال ٢٤ ساعة، وقال المتحدث باسم الجيش الأمريكي[٣٧] إن هؤلاء الجنود أُصيبوا في هجمات نفذها العراقيون في مناطق بوسط وشمال العراق. وأكد النقيب ديفيد كونولي أن هؤلاء الجنود التسعة ليسوا من ضمن الخسائر التي تكبدتها القوات الأمريكية أمس الأول في الفلوجة، حيث قُتل جنديان وجرح تسعة آخرون في كمين[٣٨].

إن تصاعد هجمات المقاومة دفع بول بريمر إلى الحديث في قناة «أي.بي.سي» (ABC) الأمريكية[٣٩]، من دون أن يتمكن من إنكار تصاعد الهجمات وتكبد المزيد من القتلى والجرحى. فهو يعرف أن وزير الدفاع دونالد رامسفيلد يكتب يومياً رسائل نعي ومواساة إلى عوائل الجنود القتلى والجرحى، وأن حالة من الخوف بدأت تدب

(٣٦) المتحدث باسم القوات الأمريكية النقيب ديفيد كونولي بتاريخ ٢٨/ ٥/ ٢٠٠٣.
(٣٧) المصدر نفسه.
(٣٨) وكالة «فرانس برس» (أ. ف. ب.)، ٢٨/ ٥/ ٢٠٠٣، <http://www.afp.com/ar>.
(٣٩) مقابلة بول بريمر مع قناة ABC بتاريخ ٢٨/ ٥/ ٢٠٠٣.

بين عوائل الجنود الذين صدّقوا خطاب بوش واعتقدوا أن بناتهم وأبناءهم في العراق لا يتعرضون لأي خطر.

قال بريمر في المقابلة التلفزيونية «إن قواتنا سوف تتعرض أيضاً يوماً ما لخسائر في الأرواح، كما حصل اليوم، ولكن هذا لا يعني بحد ذاته أن الأشياء تتفاقم»[٤٠].

طالب بريمر في بيان آخر العراقيين بتسليم أسلحتهم (من أر بي جي ٧ ورشاشات)، وقالت بعض وسائل الإعلام إن هذا القرار جاء بعد تعرض قواتهم إلى هجمات نتج منها قتل وجرح العديد من الأمريكيين. واستمهل بيان بريمر المواطنين العراقيين أسبوعين لتسليم كل ما لديهم من أسلحة.

أواخر أيار/ مايو ٢٠٠٣ بدأت علائم الارتباك الأولى تظهر على القرار الأمريكي في العراق، فبينما أعلن قائد عسكري أمريكي أن القوات الأمريكية قد يتم خفض عديدها من ١٦٥ ألفاً إلى ١٠٠ ألف خلال عدة أشهر، تسربت معلومات عن اضطرار البنتاغون إلى مراجعة خططه العسكرية في العراق، بعد أن ازدادت هجمات المقاومة العراقية ضد القوات الأمريكية، وقالت صحيفة **نيويورك تايمز** في عددها الصادر في ٢٩/ ٥/ ٢٠٠٣، إن الولايات المتحدة تطور خطة للاحتفاظ بقوات في العراق أضخم مما كان متوقعاً لتأمين البلاد، في خطوة تأتي بعد مقتل أربعة جنود أمريكيين وجرح العشرات خلال أيام قليلة. وبدأ يتردد للمرة الأولى مصطلح «البؤر الساخنة» في تصريحات القادة العسكريين في القوات الأمريكية. وأضافت الصحيفة نقلاً عن مسؤولين أمريكيين بارزين لم تذكر أسماءهم، أن الخطط تقوم على أن تحتفظ الولايات المتحدة في العراق بمعظم فرقة المشاة التي تتولى المسؤولية في بغداد حتى يستتب الأمن، وأن الجيش الأمريكي سينشر وحدات من هذه الفرقة في «البؤر الساخنة» وربما تشمل الفلوجة غرب بغداد والمناطق الشمالية إضافة إلى العاصمة نفسها، وأن الفيلق الخامس في الجيش الأمريكي، الذي سيتولى قيادة القوات في العراق خلال حزيران/ يونيو يعيد تقييم حاجات القوات.

توالت هجمات المقاومة العراقية، واعترفت القيادة الوسطى بتعرض قواتها لهجوم مسلح، وجاء في البيان الصادر عن القوات الأمريكية[٤١]، أن جندياً أمريكياً قُتل بالرصاص في العراق الخميس في ٢٩/ ٥/ ٢٠٠٣، حيث تعرض رتل للقوات الأمريكية لهجوم مسلح أثناء رحلة على طريق رئيسي وصُوّبت النيران ضد الرتل وتوفي الجندي

(٤٠) المقابلة نفسها.

(٤١) بيان صادر عن الجيش الأمريكي يوم الخميس في ٢٩/ ٥/ ٢٠٠٣.

في المستشفى، ولم تذكر القيادة المركزية اسم الجندي ولم تحدد موقع إطلاق النار، لكنها قالت إن تحقيقاً يجري لمعرفة ملابسات الهجوم.

وفي هذا اليوم (الخميس ٢٩/ ٥/ ٢٠٠٣) أيضاً أُعلن عن إجبار القوات الأمريكية على الانسحاب من مخفر شرطة تمركزت فيه منذ مدة في مدينة هيت (٢٠٠ كم غرب بغداد)، ونقل مراسل صحيفة **الرياض** السعودية الصحافي العراقي عبد الوهاب القيسي[٤٢] (ﷺ) عن شهود عيان في المدينة، أن مصادمات قد حصلت بين مهاجمين والقوات الأمريكية، أُصيب خلالها جنديان أمريكيان وأحرق المقاومون العراقيون مركز الشرطة والسيارات التابعة له. وروى الشهود أن القوات الأمريكية سارعت إلى سحب قواتها إلى خارج مدينة هيت الواقعة ضمن محافظة الأنبار، وتم إخلاء الجرحى، ومن ثم نقلهم بمروحية إلى أحد المستشفيات العسكرية الأمريكية القريبة.

كما أعلن في هذا اليوم عن تغيير في الخطط العسكرية الأمريكية في العراق. ونقل الصحافي الأمريكي مايكل غوردون بصورة صريحة عن مسؤولين أمريكيين قولهم بأن قواتهم في العراق تواجه «مقاومة مسلحة»، وهو اعتراف واضح بحجم المقاومة التي تنفذ هجماتها ضد قوات الاحتلال. وذكرت صحف أمريكية أن البنتاغون يخطط للإبقاء على أعداد كبيرة من الجنود تفوق ما كان مقدراً، وإرسال وحدات قتالية إلى المناطق المثيرة للقلق خارج بغداد. وكان مسؤولون أمريكيون قد أعربوا أوائل شهر أيار/ مايو ٢٠٠٣، عن أملهم في خفض أعداد قواتهم بمعدلات أسرع، بحيث يصل الوجود العسكري الأمريكي في العراق إلى أقل من فرقتين بحلول خريف عام ٢٠٠٣. لكن في واقع الحال أجبرت هجمات المقاومة العراقية قيادات البنتاغون على الدخول في نقاشات حادة وواسعة حول الأوضاع المستجدة، ولم يكن قد مضى في ذلك الوقت على عمر الاحتلال سوى خمسين يوماً. وانقضت أربعة أسابيع فقط على إعلان الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش «الانتصار الكبير في العراق». وعادت طروحات الجنرال إيريك شينسكي رئيس هيئة أركان الجيش الأولى إلى واجهة النقاشات، بعد أن اعترض عليها وزير الدفاع دونالد رامسفيلد ونائبه بول وولفوفيتز، والتي قال فيها في شباط/ فبراير٢٠٠٣ ـ أي قبل الغزو بأسابيع ـ إنه ستكون هناك حاجة لمئات الألوف من القوات لتأمين عراق ما بعد الحرب، ورد عليه رامسفيلد بقوله «فكرة أن الولايات المتحدة ستكون بحاجة إلى عدة مئات من آلاف الجنود على ما أعتقد تبدو غير منطقية». واتفق أغلب القادة العسكريين الأمريكيين

(٤٢) مراسل صحيفة **الرياض** السعودية الصحافي العراقي الراحل عبد الوهاب القيسي. انظر: **الرياض**، ٢٩/ ٥/ ٢٠٠٣.

على أن مئة ألف جندي عدد يكفي في العراق، وأن هذا العدد قد يتضاءل سريعاً. وأكدوا أن العراقيين سيرحبون بالأمريكيين باعتبارهم «محررين». وعبّر جنود من الفرقة الأمريكية الثالثة عن تشاؤمهم بسبب قرار تمديد بقاء قطعاتهم في العراق خلافاً لما كان مقرراً، وقال ضابط أمريكي «على المرء أن يتأقلم مع الظروف».

في يوم الجمعة المصادف ٣٠/ ٥/ ٢٠٠٣، اعترفت القوات الأمريكية بتعرض قواتها لهجوم نفذه المقاومون العراقيون في منطقة ديالى، وقالت القيادة الأمريكية الوسطى إن مهاجمين أطلقوا على قواتها قذائف مضادة للدبابات (أر بي جي) ورصاصاً من أسلحة خفيفة في محافظة ديالى شمال شرق بغداد، واستهدف هجوم المقاومة العراقية دورية من الفرقة الرابعة في اللواء الثاني من القوات الأمريكية في مدينة المقدادية، على بعد ١٠٠ كم شمال شرق العاصمة بغداد[٤٣].

وجاء الاعتراف الأمريكي بالهجوم الذي نفذته المقاومة العراقية في المقدادية متأخراً، فقد أكد شهود عيان أن الهجوم قد وقع يوم الأربعاء في ٢٨/ ٥/ ٢٠٠٣، وأن إحدى الدبابات قد تم إحراقها بالكامل وقُتل وجُرح من كانوا بداخلها، وفرضت القوات الأمريكية طوقاً على المكان وأطلقت النيران بكثافة وبصورة عشوائية.

أدركت القوات الأمريكية أن الأوضاع في العراق ليست سهلة، وأن الطريق لن يكون مليئاً بالزهور كما توقعوا، وبدأوا التحرك على أكثر من صعيد. فبالإضافة إلى تشكيل خلايا أزمة في البنتاغون تواصلت المباحثات مع القيادة العسكرية الأمريكية في بغداد لتحديد أعداد القوات في العراق واستقدام آخرين. من جهة أخرى لفت الانتباه النداء الذي وجهته القوات الأمريكية وبثته وسائل الإعلام (عبر إذاعة قوات التحالف)، إذ قالت فيه: ندعو العراقيين إلى تقديم أي معلومات إلى قوات التحالف عن تحركات وأماكن المسلحين. وأكد البيان أن قوات التحالف ستقدم الحماية لمن يقدم أي معلومات له ولعائلته. وجاء في النداء: «يجب القضاء على هؤلاء المحاربين، قبل أن يتمكنوا من إيذاء عائلتك ووطنك». واعترفت القوات الأمريكية بوجود مجاميع تنفذ هجمات تستهدفها، ووجود مجاميع أخرى تخطط، وقال البيان: إن هؤلاء يدّعون أنهم يمثلون رغبة الشعب العراقي[٤٤].

في آخر يوم من شهر أيار/ مايو٢٠٠٣، اعترف الجيش الأمريكي بصعوبة الأوضاع في العراق، وقال الجنرال جيمس كونواي قائد قوة الاستطلاع الأول في قوة مشاة

(٤٣) **الرياض**، ٣١/ ٥/ ٢٠٠٣.

(٤٤) تمّت إذاعة البيان يوم الجمعة الواقع فيه ٣٠/ ٥/ ٢٠٠٣.

البحرية الأمريكية (المارينز) في العراق: «سيتعين على قوات المارينز المقدرة بحوالى ٤٠ ألفاً في العراق والكويت العودة بسرعة للقيام بعمليات الانتشار المقررة»، وأضاف أن سلسلة الهجمات القاتلة التي تعرض لها الجنود الأمريكيون أجبرت القادة الأمريكيين على التفكير في عدم إعادة أي جندي إلى الولايات المتحدة قبل وصول تعزيزات جديدة. لم يقتصر حديث الجنرال الأمريكي على هذا الجانب لوحده، بل حاول تحليل أهداف المقاومة من تلك الهجمات التي وصفها بـ «القاتلة»، وقال إن هناك بعض الأفراد يعلمون جيداً أنه حتى الهجمات الصغيرة يمكن أن تتصدر أخبار وسائل الإعلام[٤٥].

ثانياً: حزيران/ يونيو: الارتباك والتحول

فوجئ الأمريكيون، وبالأخص عوائل الجنود والضباط، الذين يخدمون في العراق ضمن قوات المارينز، بتصريح كونواي الذي مثّل تحولاً كبيراً في الموقف العسكري، وأصيبت العوائل الأمريكية بالخيبة، عندما استفاقوا ليجدوا الصحف الأمريكية وقد نشرت ـ على استحياء ـ تصريحاً لقائد عسكري في الجيش الأمريكي، يقول فيه «لا قوات تغادر العراق قبل وصول تعزيزات جديدة». هذا التصريح يخالف تماماً حجم الأمل الذي بثه الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش في «خطاب الانتصار الكبير» معلناً انتهاء العمليات العسكرية الكبرى.

تحدث الجنرال الأمريكي جيمس كونواي عبر دائرة تلفزيونية مغلقة من مدينة الحلة (جنوب بغداد)، وقال إن هناك بعض الأفراد الذين يعلمون جيداً، أن تلك الهجمات الصغيرة التي يتعرض لها جنودنا هنا في العراق، يمكن أن تتصدر أخبار وسائل الإعلام، وعلى خلفية هذه الهجمات يعكف القادة العسكريون الأمريكيون الكبار حالياً على دراسة ما ستكون عليه متطلبات بنية القوات الأمريكية في الأسابيع وربما الأشهر المقبلة[٤٦].

كانت البيانات الصادرة عن القيادة العسكرية الأمريكية الوسطى قد اعترفت بسقوط عشرين قتيلاً بين قواتها خلال شهر أيار/ مايو، ووصل عديد القوات الأمريكية في مختلف مناطق العراق إلى ١٤٧ ألف عنصر، في حين بلغ عديد القوات البريطانية ١٥ ألف عنصر.

---

(٤٥) انظر وكالات الأنباء في ٣١/ ٥/ ٢٠٠٣.

(٤٦) نُشِرت تصريحات كونواي في الأول من حزيران/ يونيو ٢٠٠٣ في الصحف الأمريكية والعالمية، ووزّعته أيضاً كبرى وكالات الأنباء العالمية.

في تلك الأثناء بدأت الدبلوماسية الأمريكية أول تحركاتها لإقناع العديد من الدول للمشاركة في احتلال العراق ودعم قواتها التي تواجه مقاومة آخذة بالازدياد، كما اعترفت بذلك تصريحات القادة العسكريين الميدانيين.

في اليوم ذاته، الذي نشرت الصحف الأمريكية تصريح القائد الأمريكي «الصادم» لعوائل وأقارب جنود وضباط المارينز في العراق، وجد خبر مأسوي آخر مكاناً له في أغلب الصحف الأمريكية، كما ذكر ذلك الكثير من محطات التلفزة داخل الولايات الأمريكية وخارجها. ففي غروب يوم الأحد (عطلة الأمريكيين الأسبوعية) في الأول من حزيران/ يونيو ٢٠٠٣ شن المقاومون العراقيون هجوماً شرساً ضد دورية للقوات الأمريكية، في منطقة الأعظمية في العاصمة العراقية، بالقذائف القاتلة. واستناداً إلى وكالة الصحافة الأمريكية التي أبرقت الخبر إلى مختلف أرجاء العالم فإن جندياً أمريكياً قتل جراء الهجوم وجُرح جنديان آخران.

ونقلت قناة «الجزيرة» الفضائية عن مراسلها، الذي صادف وجوده لحظة الهجوم على مقربة من المكان تفاصيل الهجوم، في النشرة المسائية[٤٧] أن الجنود الأمريكيين قد صوبوا أسلحتهم نحو فريق «الجزيرة» وهم في حال من الارتباك والخوف، وأكد المراسل مقتل أحد الجنود وجرح اثنين، في حين سارعت مروحية أمريكية بالحضور إلى مكان الهجوم ونقلت جثة القتيل إضافة إلى الجرحى.

ساعة وقوع الهجوم الذي شنته المقاومة العراقية ضد القوات الأمريكية لم يكن الوقت قد بلغ منتصف يوم الأحد، بسبب فرق الوقت بين العراق والولايات المتحدة الذي يراوح بين ٨ إلى ١٠ ساعات حسب جغرافية الولايات المتحدة.

ويذكر موقع صحيفة **يو أس أي توداي** الأمريكية[٤٨] أن جندياً أمريكياً قتل في الأول من حزيران/ يونيو واسمه جوناثان لامبرت (Jonathan W. Lambert) عمره ٢٨ عاماً، من قوات المارينز؛ لكن لم تذكر مكان قتله، وبما أن الجيش الأمريكي قد اعترف في بيان رسمي بهذا القتيل، وحصل هجوم المقاومين العراقيين في ذلك اليوم بمنطقة الأعظمية ببغداد، فقد يكون القتيل هو المقصود، حسب الموقع الإلكتروني للصحيفة الأمريكية.

في اليوم نفسه وعلى بعد ٥٠٠ كم من العاصمة بغداد عبّر العراقيون في مدينة البصرة في جنوب البلاد عن رفضهم للاحتلال الأمريكي والبريطاني، فقد خرج آلاف

(٤٧) قناة «الجزيرة» الفضائية، نقلاً عن مراسلها ببغداد في ١/ ٦/ ٢٠٠٣.

(٤٨) *USA Today*, 1/6/2003.

المتظاهرين بتظاهرة حاشدة ضد قرار القوات البريطانية القاضي بتعيين حاكم بريطاني على مدينتهم، ورفعوا لافتات كتب عليها «يرفض أبناء البصرة أن يدير حاكم بريطاني مدينتهم، نحن قادرون على إدارة شؤوننا الخاصة بأنفسنا»[٤٩].

في تلك الأيام، رسم الصحافي الأمريكي أنتوني شديد صورة مكثفة لموقف العراقيين من الوجود الأمريكي في العراق، يقول «عبر جميع المدن الممتدة مع نهر الفرات غرباً وشمالاً إلى امتداد نهر دجلة يحصل إطلاق نار ضد القوات الأمريكية تعبيراً عن تصاعد واضح في درجة الاحتجاج داخل هذه المناطق المتململة، والتي يتعرض فيها الجنود الأمريكيون في كل يوم لهجمات من العراقيين، الذين أصبحوا أكثر فأكثر مصرّين على تصعيد القتال، ما دام الأمريكيون في مدنهم».

وكان الصحافي الأمريكي قد تجوّل في مدن الرمادي والفلوجة وسامراء وتكريت والتقى العديد من العراقيين في هذه المناطق، ونشر تحقيقاً موسعاً في صحيفة **واشنطن بوست** الأمريكية ونقلت تفاصيله صحيفة **الشرق الأوسط** اللندنية في عددها الصادر في العشرين من أيار/ مايو ٢٠٠٣[٥٠].

لم يقتصر نشاط المقاومين العراقيين على الدوريات والقواعد والمعسكرات الأمريكية والبريطانية، ففي وقت مبكر تم استهداف الطائرات التي تحط أو تقلع من مطار بغداد الدولي الواقع في الضاحية الغربية للعاصمة، وقد أرغمت تلك الهجمات القوات الأمريكية على الاعتراف بها. وقالت الإذاعة التابعة للقوات الأمريكية في بغداد «إن عمليات إطلاق النار ما زالت مستمرة على طائرات قوات التحالف الأمريكية ـ البريطانية التي تحط في المطارات العراقية وخصوصاً مطار بغداد الدولي». وأضاف البيان أن مطار بغداد قد تم إغلاقه وأنه سيبقى مغلقاً أمام الطائرات التجارية إلى أن تتوقف هذه الهجمات[٥١].

في الأول من حزيران/ يونيو، صادف انتهاء المدة التي حددها البيان الصادر عن الحاكم المدني الأمريكي بول بريمر بتاريخ ٢٤/ ٥/ ٢٠٠٣، والذي طلب فيه من العراقيين تسليم ما بحوزتهم من أسلحة، لكن أحداً لم يسلم سلاحه. ونقلت صحف

---

(٤٩) وكالة «فرانس برس» (أ. ف. ب.)، ١/ ٦/ ٢٠٠٣، <http://www.afp.com/ar>.

(٥٠) انظر تحقيقاً موسعاً حول الموضوع، نُشِر في صحيفة **واشنطن بوست** الأمريكية، ونقلت تفاصيله صحيفة **الشرق الأوسط** اللندنية في عددها الرقم ٨٩٥٢. انظر: **الشرق الأوسط**، ٢٠/ ٥/ ٢٠٠٣.

(٥١) نُقِلَ نصّ البيان في وكالة «فرانس برس» (أ. ف. ب.)، ١/ ٦/ ٢٠٠٣، <http://www.afp.com/ar>.

عربية عن عراقي قال لوكالات أنباء محلية «إن الأمريكيين خائفون من الشعب العراقي»، وكانت إذاعة القوات الأمريكية التي تبث على الموجات المحلية داخل العراق قد واصلت بث نداءات تطالب العراقيين بتسليم ما بحوزتهم من أسلحة.

وفي الثالث من حزيران/ يونيو ٢٠٠٣، اعترف الجيش الأمريكي بمقتل الجندي ألتانسيو هارو مارين (Altansio Haro Marin) حيث تعرضت دوريته لهجوم بمنطقة قضاء بلد (٨٠ كم شمال بغداد) وأضافت المقاومة العراقية هذا العريف إلى قائمة القتلى من القوات الأمريكية. وفي اليوم التالي جلس وزير الدفاع يوقع رسالة التعزية إلى عائلته القاطنة في منطقة بالدوين بارك، بولاية كاليفورنيا، وكان عمره ٢٧ سنة، ويخدم في الكتيبة ١٦، فوج مدفعية الميدان. وذكرت صحيفة **واشنطن بوست**[٥٢] أن هارو مارين تعرض لهجوم مسلح شنه مجهولون عندما كان مع جنود آخرين في نقطة تفتيش شمال بغداد، واستخدم المقاومون في هذه المنطقة الزراعية قذائف صاروخية وأسلحة الـ «بي كي سي» في الهجوم، الذي استغرق أقل من نصف دقيقة، ثم توارى المقاومون، بينما أطلق زملاء لهم النار بكثافة في محيط المكان، لإرباك القوات الأمريكية، وتأمين انسحاب المقاومين.

هذا الوصف الخاص بسرعة تنفيذ الأغلبية العظمى من الهجمات في الطرق الزراعية التي تسلكها القوات الأمريكية بات معروفاً لدى سكان تلك المناطق، فالهجمات تكون سريعة وخاطفة، على أن لا تستغرق أكثر من دقيقة أو دقيقتين، لكي يتحاشى المقاومون وصول التعزيزات الجوية من المروحيات القتالية، التي سرعان ما تصل إلى مكان الهجوم، للتصدي للمقاومين وحماية أرتال الجيش الأمريكي من هجمات واسعة قد ينتج منها أسر جنود من أفراد تلك الدورية.

ويذكر شهود عيان للمؤلف أن ذلك الهجوم قد وقع في منطقة العوينية بناحية يثرب بقضاء بلد (٨٠ كم شمال بغداد)، وهو طريق تسلكه الدوريات الأمريكية خلال تنقلاتها بين معسكر «القدس» الواقع قرب مركز قضاء بلد وقاعدة البكر الجوية (أصبح اسمها بعد الاحتلال أناكوندا)، وشهد هذا الشارع هجمات شبه يومية ضد القوات الأمريكية. وينقل أبناء المنطقة عن مشاهدات وسماع دوي الانفجارات اليومية الناجمة عن هجمات بقاذفات أر بي جي وعبوات ناسفة.

وبما أن حديثنا عن هذه المنطقة، فلا بد من الإشارة إلى نشاط القناصين المقاومين، إذ سقط عشرات الجنود الأمريكيين بسلاح القنص. فقد اتخذ القناصون من

(٥٢) *Washington Post*, 3/6/2003.

أشجار النخيل الباسقة المبثوثة بكثافة على الضفة الثانية من نهر دجلة (في بساتين منطقة الضلوعية) مواقع استراتيجية لتنفيذ هجماتهم، إذ يقترب الشارع الذي تسلكه القوات الأمريكية من نهر دجلة في منطقة الجسر الخشبي القديم، وتصبح المسافة مناسبة للقنص. وبينما تسير الدوريات الأمريكية بسرعة لاجتياز الطريق وإذا بأحد الجنود الذين يقفون خلف سلاح المدرعات والهمرات في الأعلى يسقط والدماء تنفر من رأسه. وأثار هذا القنص الرعب الشديد بين الجنود الأمريكيين، حسب ما نقل مترجمون عراقيون عملوا مع القوات الأمريكية، وردت تلك القوات بهجمات بالطائرات على بساتين النخيل، كما شنت هجمات واسعة للبحث عن القناصين المقاومين، وبعد أن فشلت في إنهاء نشاط المقاومين القاتل والمرعب، اضطرت إلى إضافة تحصينات جديدة مع إخفاء الجنود فوق المدرعات والهمرات للتخلص من تلك الهجمات القاتلة(٥٣).

لم تحط طائرة الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش ـ في أول زيارة له للعراق ـ فوق الأراضي العراقية، بل بقيت في أجواء العراق، حيث قدم شكره إلى جنوده. كان ذلك في الخامس من حزيران/ يونيو ٢٠٠٣.

رافقت أربع مقاتلات أف ١٨ طائرة بوش، وأبلغ آري فلايشر المتحدث باسم البيت الأبيض الصحافيين على متن الطائرة الرئاسية، أن طائرة الرئيس حلقت فوق العراق وبغداد على ارتفاع ٣١ ألف قدم وبسرعة ٤٦٧ ميلاً في الساعة، وكان الجو صافياً وكان بإمكان بوش رؤية نهر دجلة ومطار بغداد والشوارع والجسور، وحلقت طائرة بوش فوق العراق لمدة ساعة وست دقائق. إلا أن فرحة بوش ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد ومستشارة الأمن القومي الأمريكي كونداليزا رايس، لم تكتمل بعد زيارتهم العراق من الجو. فبعد ساعات من دخول رامسفيلد مكتبه، وجد أمامه رسالة تعزية موجهة إلى عائلة جندي جديد قتله رجال المقاومة، وكان عليه أن يوقع الرسالة ويبعث بها إلى عائلة القتيل، في وقت كانت مدينة الفلوجة (٦٠ كم غرب بغداد) قد شهدت هجوماً عنيفاً شنه المقاومون على وحدة للقوات الأمريكية يوم الخميس في ٥/ ٦/ ٢٠٠٣، وهو اليوم نفسه الذي حلقت فيه طائرة بوش في الأجواء العراقية، وأكدت صحيفة **واشنطن بوست**(٥٤) أن براندن أوبرليتنر (Branden F. Oberleitner) قد سقط قتيلاً بصاروخ، ولم يكن بإمكان الجيش الأمريكي إنكار الهجوم والخسائر بين قواته، بعد أن وقع الهجوم

(٥٣) شهود عيان من المنطقة تحدّثوا إلى المؤلف.

(٥٤) *Washington Post*, 5/6/2003.

في وسط مدينة الفلوجة، وأصدرت القوات الأمريكية بياناً قالت فيه «إن جندياً أمريكياً قتل وأصيب خمسة عندما أطلق مهاجم قذائف صاروخية على الجنود الأمريكيين في بلدة الفلوجة، وأن القتيل والجرحى من فوج الفرسان المدرع الثالث التابع للفرقة ١٠١ المحمولة جواً، وأنهم نقلوا إلى منشأة طبية عسكرية قريبة. ويبلغ القتيل ٢٠ عاماً وهو من أوهايو. وذكر شهود عيان أن القوات الأمريكية أطلقت وابلاً من النيران بعد الهجوم، إلا أنها لم ترد على الهجوم مباشرة، وأن إطلاق النار كان عشوائياً وبعد مرور عدة دقائق، ومن الواضح أنها عاشت تلك الدقائق وسط حالة من الخوف والارتباك إلى أن توارى المقاومون.

وكانت قناة «الجزيرة» الفضائية[٥٥] قد ذكرت في نشراتها الإخبارية يوم ٥/ ٦/ ٢٠٠٣، أن القوات الأمريكية أرسلت أرتالاً من قواتها إلى مدينة الفلوجة، حيث تتعرض قواتها لهجمات عنيفة، وأن عمليات بحث وتفتيش تنفذها القوات الأمريكية بحثاً عن المهاجمين.

مع بداية شهر حزيران/ يونيو، وقبل أن تكتمل ثلاثة أشهر من الغزو الأمريكي للعراق، تمكن المقاومون العراقيون من الخروج بقضية المقاومة من حيز الفعل المباشر على القوات الأمريكية والبريطانية، إلى فضاء أوسع، ولم تعد أخبار الهجمات خافية على أحد، ففي ٥/ ٦/ ٢٠٠٣، ظهر مسؤول في الأمم المتحدة للمرة الأولى يتحدث عن الأوضاع في العراق، ولكن هذه المرة تدين الأمم المتحدة هجمات المقاومين (!) ضد الغزاة المحتلين، رغم أن جميع القوانين والأنظمة والاتفاقيات الدولية، بما فيها ميثاق الأمم المتحدة قد أعطت الحق لأبناء البلد الذي يقع تحت الاحتلال، بمقاومة المحتلين أفراداً أو جماعات، كما ضمنت ذلك الاتفاقيات الدولية (اتفاقية لاهاي ١٩٠٧، واتفاقيات جنيف الأربع ١٩٤٩) إضافة إلى ميثاق الأمم المتحدة.

جاء في نص إدانة هجمات المقاومة العراقية من قبل الأمم المتحدة ما يلي: «أدان ممثل الأمم المتحدة الخاص في العراق سيرجيو فييرا دوميلو الهجمات المسلحة التي تستهدف قوات التحالف الأمريكي ـ البريطاني»[٥٦]. أثار ذلك البيان استغراب العراقيين، لأن موقف الأمم المتحدة يفترض أن يكون مع الضحية (الشعب العراقي) الذي وقعت عليه جريمة الغزو والاحتلال ضد الجاني (الولايات المتحدة وبريطانيا) وليس العكس.

---

(٥٥) قناة «الجزيرة» الفضائية في ٥/ ٦/ ٢٠٠٣.

(٥٦) وكالة «فرانس برس» (أ. ف. ب.)، ٥/ ٦/ ٢٠٠٣، <http://www.afp.com/ar>.

لم يكن ينتظر العراقيون مثل هذا الموقف من مسؤول أممي كبير مثل ديميلو، وكان الأجدر به أن لا يتحول إلى أحد الأبواق الإعلامية، التي تدافع عن الباطل المتمثل بالغزو الأمريكي، وتقف إلى جانبه، لا أن يشن هجوماً عنيفاً ضد المقاومين في العراق الذين يرفضون وقوع بلدهم تحت سطوة الغزاة الأمريكيين والبريطانيين. يضاف إلى ذلك أن ممثل الأمين العام دوميلو يعلم تماماً أن الأمم المتحدة لم تفوض أي جهة أو دولة أو تحالف لغزو العراق، ولا يوجد في جميع قراراتها التي صدرت بحق العراق ما يسمح بشن الحرب عليه أو غزوه، ابتداءً من القرار ٦٧٨ في آب/ أغسطس ١٩٩٠ مروراً بالقرارات الأخرى، وأن قرار غزو العراق قد تم اتخاذه من قبل الإدارة الأمريكية بزعامة جورج دبليو بوش والإدارة البريطانية بزعامة توني بلير، ووقف إلى جانبهم رئيس وزراء إسبانيا إزنار، وبعد أن اعتقدت دول العالم أن العراق تحول إلى جثة هامدة مسجاة على ثروات طائلة، سال لعاب الكثيرين وأرسلوا جنودهم إلى بلاد الرافدين. لم يدر بخلد أحد من هؤلاء أن دماء الغزاة ستسيل على تراب العراق، فكانت أول قوات الغزو التي هربت من العراق هي القوات الإسبانية، وتوالت عمليات سحب جيوش الغزاة اليابانيين فالبولنديين والأستراليين وسواهم.

لم يأبه المقاومون العراقيون لمشاركة دول العالم في عملية غزو بلدهم، كما أنهم تجاهلوا الصراعات ومواقف المسؤولين في الأمم المتحدة، ولم يفكروا بغير السلاح ورسم الخطط الأمنية ووضع استراتيجيه طرد الغزاة. وعند ساعات المساء الأولى من يوم الأحد المصادف في ٨/ ٦/ ٢٠٠٣، نفذت إحدى خلايا المقاومة خطة لاصطياد الجنود الأمريكيين، وهذه المرة تم اختيار الهدف من نقطة قريبة من الحدود السورية، وبينما كان الجنود يمارسون عمليات التفتيش في إحدى النقاط توقفت سيارة نقل تحمل عدداً من رجال المقاومة العراقية، وباغت المقاومون جنود الدورية، وأطلقوا عليهم بشجاعة فريدة وابلاً من الرصاص مستخدميين الأسلحة الخفيفة (بي كي سي) وانسحبوا وسط حالة الرعب والفوضى واختباء جنود الدورية الأمريكية داخل عرباتهم، وتواروا عن الأنظار. واضطر الجيش الأمريكي إلى إصدار بيان اعترف فيه بوقوع الهجوم، وجاء في البيان الذي صدر عن قيادة القوات الأمريكية الوسطى، ووجد حيزاً في وسائل الإعلام، أن مهاجماً على الأقل قد لاذ بالفرار بعد أن أقدم رجلان يحملان مسدسين وفتحا النار على جندي أمريكي قُتل على الفور، ويقر البيان باختفاء أثر المهاجمين، إذ يقول إن القوات الأمريكية تواصل عمليات البحث للعثور على السيارة المشبوهة والفارين[٥٧].

(٥٧) وكالة «فرانس برس» (أ. ف. ب.)، ٩/ ٦/ ٢٠٠٣، <http://www.afp.com/ar>.

هذا يعني أن المقاومين نجحوا في خلق حالة من الخوف والارتباك بين أفراد نقطة التفتيش الأمريكية الذين لم يتمكنوا من تعقب المقاومين، كما أن خطة مغادرة المكان قد وضعت كما يبدو بإتقان، ولم يتم التعرف إلى حركة السيارة التي استخدموها، رغم تحركهم في مناطق مكشوفة كما الحال في مناطق غرب العراق وأغلبية أراضيه الصحراوية، وأن المقاومين قد تمكنوا من التواري عن الأنظار خلال دقائق، وقبل أن يتم استدعاء المروحيات التي تصل المكان الذي تتعرض له القوات الأمريكية في أقل من خمس دقائق.

ورغم اعتراف القوات الأمريكية بالهجوم وبالخسائر التي ذكرها البيان، إلا أننا لم نجد بياناً من المقاومة حول هذا الهجوم الجريء. وقد يكون الجندي الذي قتلته المقاومة في الهجوم، هو جيسي هالينغ (Jesse M. Halling)[٥٨] الذي اعترفت القوات الأمريكية بمقتله في ذلك اليوم، بقولها أنه قُتل في تكريت، التي تمتد أراضيها إلى مساحات شاسعة في الصحراء، وهذا الجندي يبلغ من العمر ١٩ عاماً، وتقول صحيفة **واشنطن بوست** الأمريكية بأنه من سكان إنديانا بوليس بولاية إنديانا، وأنه ينتمي إلى الشرطة العسكرية. وذكرت الصحيفة الأمريكية، أنه تلقى الضربة من سلاح خفيف، وتم الهجوم من مكان قريب منه، من دون أن تعطي المزيد من التفاصيل.

في تطور لافت للأحداث التي حصلت يوم الثلاثاء المصادف ١٠/ ٦/ ٢٠٠٣، وصفت مؤسسات إعلامية عالمية، أولئك الذين يشنون الهجمات ضد القوات الأمريكية بـ «المقاومة العراقية»؛ جاء ذلك في تقرير وكالة رويترز للأنباء[٥٩]، وفي صحيفة **الشرق الأوسط** اللندنية. وكانت القوات الأمريكية قد أصدرت بيانات اعترفت فيها بإصابة أربعة من جنودها بجروح، بعد تعرضهم لهجمات شنها مسلحون. وقال متحدث باسم القوات الأمريكية[٦٠]، إن ثلاثة من الجنود الذين أصيبوا تم نقلهم إلى ألمانيا لتلقي العلاج، أما الآخر فقد عاد للقيام بمهامه في وقت لاحق، واعترف بيان آخر بحصول مواجهات بين القوات الأمريكية ومسلحين يستقلون سبع سيارات، بعد أن أطلق المسلحون النار على دورية أمريكية قرب بيجي (شمال بغداد). كما اعترف بيان آخر بجرح جندي أمريكي بعد تعرض دوريته المكونة من عربتين لإطلاق نار من قبل مسلحين قرب دائرة المرور في مدينة الموصل. وفي تأكيد لارتفاع عدد الهجمات التي يشنها المقاومون في العراق ضد

---

(٥٨) *Washington Post*, 9/6/2003.

(٥٩) وكالة «رويترز» للأنباء، ١٠/ ٦/ ٢٠٠٣، <http://ara.reuters.com>.

(٦٠) متحدّث باسم القوات الأمريكية في ١٠/ ٣/ ٢٠٠٣.

الأمريكيين، شرعت هذه القوات في تنفيذ حملة اعتقالات واسعة في اليوم ذاته الذي تعرضت فيه هذه القوات للعديد من الهجمات (تم الإعلان عن اعتقال ٣٨٤ شخصاً).

في هذه الأثناء اعترفت القوات الأمريكية بمقتل أحد جنودها على أيدي المقاومة العراقية بمنطقة السدة في مدينة الكوت، وقال بيان صدر بهذا الخصوص، إن مسلحيين عراقيين قتلوا الجندي ميشال دوليغ (Michael E. Dooleg) ويبلغ من العمر ٢٣ عاماً، وقد تجاهلت هذا البيان أغلبية الصحف ووسائل الإعلام، إلا أن صحيفة **يو أس أي توداي** الأمريكية وثقت هذا الهجوم على موقعها الإلكتروني في شبكة الإنترنت[٦١].

وبينما تمكن المقاومون العراقيون من قتل أحد الجنود الأمريكيين في الكوت (١٢٠ كم جنوب بغداد) وشن آخرون هجمات في الموصل وبيجي وبلدة الرمادي، فقد قتل رجال المقاومة أحد الجنود الأمريكيين في العاصمة العراقية. ففي يوم الثلاثاء المصادف ١٠/ ٦/ ٢٠٠٣، نفذ المقاومون هجوماً وسط بغداد ولقي أحد الجنود حتفه. واعترف بيان القوات الأمريكية بالحادث، وقال إن غافين نايبور (Gavin L. Neighbor) قتل في بغداد، ويبلغ من العمر ٢٠ عاماً من أوهايو، وأفردت صحيفة **واشنطن بوست** مساحة واسعة للتعريف به[٦٢]، وكتب العديدون كلمات في سجل الزوار، وقالت الصحيفة إنه عريف في الجيش الأمريكي، ينتمي إلى فوج المشاة ٣٢٥ للفرقة المجوقلة ٨٢. وذكرت الصحيفة، أن العديد من أفراد عائلته قد خدموا في الحرب العالمية الثانية وفي حربي كوريا وفييتنام، إلا أنه الوحيد الذي لم يعد إلى بيته، في إشارة إلى مقتله على أيدي المقاومين العراقيين، رغم أنه من عائلة عسكرية، عاد جميع أفرادها من المشاركين في حروب أمريكا العديدة إلى ديارهم. وأردفت الصحيفة أنه تعرض لهجوم مسلح بينما كان يستريح داخل عربته، ولم تذكر المزيد من التفاصيل عن وجود جرحى من جراء الهجوم.

يمكن إطلاق وصف «المعارك الكبيرة» على هجمات المقاومة ضد القوات الأمريكية، التي انطلقت صباح الخميس ١٢/ ٦/ ٢٠٠٣. ففي ذلك اليوم، تعرض العديد من القواعد والمعسكرات والدوريات الأمريكية لهجمات، وردت تلك القوات بحملات عسكرية واسعة، مستخدمة القوة المفرطة، وأعلنت القيادة الأمريكية[٦٣] أن قواتها قتلت مئة عراقي واعتقلت ٧٤ شخصاً.

---

(٦١) *USA Today*, 10/6/2003.

(٦٢) *Washington Post*, 10/6/2003.

(٦٣) بيان القوات الأمريكية الصادر في ١٢/ ٦/ ٢٠٠٣.

توزعت الهجمات على مناطق عدة، وكانت أول مواجهة بين القوات الأمريكية والمقاومين قد جرت جنوب كركوك. فقد ذكر بيان للقيادة الأمريكية أن اللواء المحمول جواً ١٧٣ نفذ يوم الخميس الواقع فيه ٢٠٠٣/٦/١٢ عملية عسكرية واسعة قرب كركوك، وجاءت هذه العملية بعد تعرض الدوريات الأمريكية لهجمات مكثفة بقاذفات الأر بي جي ٧ والأسلحة الخفيفة في تلك المناطق. أما في منطقة الضلوعية (٨٠ كم شمال بغداد) فكان هناك كلام آخر للمقاومين حيث فتكوا بالقوات الأمريكية التي ردت على الهجمات التي تستهدف دورياتهم ومعسكر «القدس» قرب بلد وقاعدة البكر الجوية بحملة عسكرية كبيرة جداً، وأطلقت تسمية عملية «شبه الجزيرة» العسكرية على حملتها تلك، في إشارة إلى جغرافية الضلوعية، التي تقع داخل مثلث يحيط به نهر دجلة من ثلاثة جوانب وتكثر فيها أشجار النخيل والحمضيات، وهنالك أحراش كثيفة على ضفتي النهر.

وذكر بيان أمريكي أنه تم اعتقال ٤٠٠ شخص خلال هذه العملية (من أبناء الضلوعية)، وشارك آلاف الجنود بدعم من المقاتلات النفاثة والمدرعات وقوارب الحراسة، وذكر قادة أمريكيون أنهم عثروا على منشورات تحث العراقيين على قتل الأمريكيين. ورغم حملة الاعتقالات الواسعة، إلا أن الضلوعية والمناطق الأخرى لم تهدأ، بل ازدادت هجمات المقاومين.

وفي يوم الجمعة في ٢٠٠٣/٦/١٣ (يوم الإعلان عن انتهاء عملية «شبه الجزيرة») هاجم عشرات المقاومين القوات الأمريكية في منطقة بلد (٨٥ كم شمال بغداد) وعلى بعد ١٠ كم من الضلوعية. وقال بيان للقوات الأمريكية، إنها قتلت ٢٧ عراقياً هاجموا دورية دبابات أمريكية في بلدة بلد، وأن المهاجمين أطلقوا قذائف مضاده للدبابات. وبالتزامن مع هذه الهجمات والمواجهات بين المقاومين والقوات الأمريكية، كانت معارك أخرى تدور رحاها في مناطق غرب العراق. وقال بيان أمريكي بهذا الصدد: حصلت معارك كبيرة قرب الثرثار غرب بغداد، قتلت خلالها القوات الأمريكية استناداً إلى بيانها ٧٠ عراقياً، وأن المعارك حصلت خلال عملية عسكرية ضد معسكر لتدريب المقاومين على بعد ١٥٠ كم شمال غرب العاصمة، وأن جندياً أمريكياً قد جرح. وشاركت في العملية الفرقة ١٠١ المحمولة جواً، ووحدات من قوات العمليات الخاصة. وقال متحدث عسكري أمريكي إنها عملية كبيرة جداً.

في تلك الأثناء، اعترفت القوات الأمريكية بمقتل اثنين من جنودها أحدهما في الكوت والثاني في الفلوجة، وسقط في الكوت الرقيب أندرو بوكمي (Andrew

(Pokmy ويبلغ من العمر ٣٠ سنة[٦٤] وقد أجرت وكالة «أسوشيتد برس» للأنباء مقابلتين مع زوجته وشقيقته اللتين تحدثتا عنه، وذكروا أنه سبق أن خدم في الصومال عام ١٩٩٢، وأنه كان يعتقد أن رحلته إلى العراق آمنة وسيعود إليهما. أما الجندي الذي قتل في الفلوجة يوم ١٣/ ٦/ ٢٠٠٣ فهو جون كلينسميث (John K. Klinesmith) الذي يبلغ من العمر ٢٥ سنة. وقال بيان القوات الأمريكية، إنه توفي خلال حادث سير، ولم تكن هنالك هجمات ضد دوريته.

في يوم الجمعة الواقع فيه ١٣/ ٦/ ٢٠٠٣، شن المقاومون هجمات في الموصل، وأعلن الجنرال الأمريكي بنجامين فرانكي[٦٥] أن مدنيين عراقيين قد هاجمو القوات الأمريكية وأن معارك قد حدثت. وذكرت وكالة الصحافة الفرنسية ما حصل في الموصل، وقالت إن المعارك جرت في ساحة نينوى، في محيط مقر المحافظة، وإن مراسلها شاهد عراقيين يلقون القنابل على الجنود الأمريكيين. واعترف الجنرال فرانكي، من جانبه، بأن جندياً أمريكياً قد أصيب في جميع أنحاء جسمه بشظايا قنبلة يدوية. وشوهدت القنبلة تسقط بالقرب من مدرعة والدماء تغطي جسم الجندي الأمريكي. وذكرت الوكالة الفرنسية أن المكان شهد معركة حقيقية، وقد تحصّن الجنود الأمريكان وراء جدران للاحتماء من النيران، في حين مرت مدرعات بسرعة فائقة وحلقت طائرات هليكوبتر فوق المدينة[٦٦].

ورغم أن نُتفاً ضئيلة تصل الرأي العام الأمريكي عن الأوضاع في العراق، وتزايد عدد الهجمات ضد القوات الأمريكية، إلا أن أصحاب القرار وبالأخص في التخطيط العسكري والاقتصادي الأمريكي، كانوا على معرفة بأوضاع الميدان. ففي الوقت الذي تحتدم فيه المعارك بين القوات الأمريكية ورجال المقاومة في العراق، تم تسريب معلومات للمرة الأولى عن تكلفة حرب العراق. ونقلت صحيفة **يو أس أي توداي** بتاريخ ١٣/ ٦/ ٢٠٠٣، أن حرب العراق تكلفت ٦٢ مليار دولار، وأن كل دافع ضرائب أمريكي سيتحمل ٢٥١ دولاراً، وطبقاً للخطط قبل الحرب، كان مقرراً أن تبقى القوات الأمريكية في العراق فترة أطول، وأن عدد القوات الأمريكية التي ستبقى في العراق إلى

---

(٦٤) بيان القوات الأمريكية الصادر في ١٣/ ٦/ ٢٠٠٣.

(٦٥) اعترف بذلك الجنرال الأمريكي بنجامين فرانكي في ١٣/ ٦/ ٢٠٠٣.

(٦٦) وكالة «فرانس برس» (أ. ف. ب.)، ١٣/ ٦/ ٢٠٠٣، <http://www.afp.com/ar>، و**الشرق الأوسط**، ١٣/ ٦/ ٢٠٠٣.

أجل غير مسمى يقدر بحوالى ١٦٠ ألف جندي، ما يعني إرجاء حساب تكلفة إعادتهم إلى الولايات المتحدة.

بدأت صحيفة **الشرق الأوسط** تقريرها حول العراق بتاريخ ١٦/ ٦/ ٢٠٠٣، بالآتي: «تشهد مناطق عراقية شمال وشمال غرب العاصمة بغداد، هجمات شرسة وغير متكافئة بين العراقيين والقوات الأمريكية، من دون أن تنشر الصحافة المحلية في العراق، على كثرتها وأجهزة الإعلام الأخرى، الكثير عنها، باستثناء ما تبثه بعض الشبكات والوكالات العربية والأجنبية»[٦٧]. جاء ذلك في سياق تغطية الصحيفة للأحداث العسكرية في العراق، وبعد أن أطلقت القوات الأمريكية عملية عسكرية سمّتها «عقرب الصحراء»، حيث أغلقت القوات الأمريكية طرقاً وفتشت منازل وحلقت طائرتها فوق البلدات المضطربة المحيطة ببغداد، وتتركز الهجمات حول بغداد وعدة مناطق إلى الغرب وحول الرمادي وراوه والفلوجة وإلى الشمال حول مناطق الضلوعية ويثرب والإسحاقي وسامراء وتكريت والموصل. وقال الرقيب برايان توماس، المتحدث باسم الجيش الأمريكي، إن عملية «عقرب الصحراء» تهدف إلى احتجاز من يريد زعزعة استقرار العراق، وإن المهمة ستتركز على بغداد والمناطق المضطربة، وتسعى إلى استمالة العراقيين إضافة إلى تعقب المقاتلين.

في الوقت الذي كانت القوات الأمريكية تشن حملات عسكرية واسعة في مناطق الموصل والرمادي وصلاح الدين وكركوك وديالى وبغداد، قتلت المقاومة العراقية جندياً أمريكياً في مدينة النجف. وقال بيان عسكري أمريكي أن رايان كوكس (Rayan R. Cox)[٦٨] قتل في النجف (جنوب بغداد) وأضاف، أن القتيل يبلغ من العمر ١٩ سنة وهو من عناصر المارينز، وقتل يوم ١٥/ ٦/ ٢٠٠٣ في مدينة النجف ويعمل ضمن الكتيبة ١ فوج مشاة البحرية ٧ شعبة الملاحة البحرية. وبثت وكالة «أسوشيتد برس» للصحافة في وقت لاحق لقاءات مع والدته ووالده في ولاية كالفورنيا. يوم الاثنين المصادف في ١٦/ ٣/ ٢٠٠٣، سقط جندي أمريكي آخر في منطقة التاجي (٣٠ كم شمال بغداد)، وذكر بيان للقوات الأمريكية أن القتيل هو جوزيف سويل (Joseph D. Suel)[٦٩] وعمره ٢٤ عاماً ومن سكان تكساس، وهو من الجيش الأمريكي.

---

(٦٧) **الشرق الأوسط**، ١٦/ ٦/ ٢٠٠٣.

(٦٨) انظر: iCasualties.org (Iriaq Coalition Casuality Count), 15/6/2003, <http://icasualties.org/iraq/index.aspx>.

(٦٩) *USA Today*, 16/6/2003.

وأعلنت متحدثة باسم القوات الأمريكية، أن عملية «عقرب الصحراء» قد تمخضت عن اعتقال مئات العراقيين، وصادرت كميات كبيرة من الأسلحة والمتفجرات في كركوك وتكريت وبغداد، وقالت الرقيب مايرا أونيل: «إن قوات التحالف قامت في كركوك وتكريت بـ ٣٦ عملية وأوقفت ٢١٥ شخصاً وفي بغداد شنت ١١ عملية وأوقفت ١٥٦ شخصاً».

في هذه الأثناء هاجم عراقيان بالقذائف المضادة للدبابات (أر. بي. جي) موقعاً للجيش الأمريكي في الفلوجة (٦٥ كلم غرب بغداد). وقال بيان الجيش الأمريكي، إن الهجوم لم يسفر عن خسائر. وقال النقيب جون إيفز: إن مهاجمَين كانا على متن سيارة أطلقا قذيفتي أر. بي جي سقطتا على الأرض وانفجرتا، ولم يصب أحد ولم تقع أي أضرار، وانسحب المهاجمان من موقع الهجوم، ولاحقتهم قواتنا إلا أنهما نجحا في الفرار.

وأصدرت القوات الأمريكية بياناً اعترفت فيه بمقتل أحد جنودها يوم الثلاثاء في ١٧/ ٦/ ٢٠٠٣، وجاء في البيان أن جندياً أمريكياً آخر توفي متأثراً بجروح أصيب بها الإثنين في هجوم على دورية في بغداد، وقال بيان للفرقة الأولى المدرعة الأمريكية، إن جندياً ضمن الدورية كان جالساً في الخلف في عربة عسكرية قد هوجم وأصيب برصاصة من عيار صغير في الظهر.

ومن خلال بحثنا في أسماء الذين قتلتهم المقاومة العراقية، وبالعودة إلى المصادر التي وثقت القتلى، تبين أن القتيل هو شون باهنكي (Shawn D. Pahnke)[٧٠] يبلغ من العمر ٢٥ سنة. وتقول صحيفة **واشنطن بوست** الأمريكية إن القتيل ينتمي إلى السرية ج، الكتيبة ١، الفوج المدرع ٣٧، الفرقة المدرعة ١، وتلقى طلقات نارية قاتلة، وكان والده قد شارك في حرب فييتنام وعاد سالماً وجدّه خدم في الحرب العالمية الثانية. وذكرت وكالة «أسوشيتد برس» أن قناصاً عراقياً قد صوّب سلاحه نحوه وأصابه بجروح خطيرة توفي في إثرها. وهو من مدينة إنديانا، وتزوج في شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام ٢٠٠٢، أي قبل ثمانية أشهر فقط من مقتله على أيدي المقاومة العراقية، الذين تربصوا به وقتلوه وسط بغداد لأنه جاء غازياً لبلدهم.

لم تقدم القوات الأمريكية تفسيراً لتسميات العمليات العسكرية التي تنفذها في العراق، لكن يعتقد بعض المراقبين أن اختيار اسم «عقرب الصحراء» للعملية العسكرية

(٧٠) بيان للجيش الأمريكي، اعترف فيه بمقتل أحد جنوده ويُدعى شون باهنكي، بتاريخ ١٧/ ٦/ ٢٠٠٣.

الواسعة، التي انطلقت منتصف شهر حزيران/ يونيو ٢٠٠٣، كان موجهاً إلى الداخل الأمريكي أكثر من الرأي العام العراقي، وأراد القائمون على الدعاية والحرب النفسية في الجيش الأمريكي الإيحاء للأمريكيين الذين يتابعون أخبار الحرب القادمة من العراق، بأن قواتهم تنتشر في مناطق صحراوية، وأن اصطياد المسلحين هناك لن يكون صعباً، وسط التقنيات العالية التي تمتلكها القوات الأمريكية، وكثافة الطيران الذي يفرض سيطرة تامة على الأجواء العراقية، وأن تحركات المسلحين ستكون مكشوفه ما يسهل عملية قتلهم أو اعتقالهم، وأن تجربة قواتهم القاسية في فييتنام لن تتكرر، بسبب كثافة الأحراش هناك وانتشار الغابات والتلال والجبال التي ساعدت مقاتلي الفييتكونغ على التحرك بسهولة والاختباء بين تلك التضاريس الوعرة، ما تسبب بخسائر بين الجيش الأمريكي وصل عددها إلى ٥٨ ألف قتيل طيلة حرب فييتنام التي انتهت بهزيمة في الثلاثين من نيسان/ أبريل عام ١٩٧٥.

أما وجود «العقرب» فإنه السلاح الأخطر، الذي يهدد حياة البدو والرعاة من قاطني المناطق الصحراوية، وأن السلاح الأمريكي الذي يتعقب المسلحين الذين يقتلون الجنود الأمريكيين في العراق، سيكون قاتلاً ونهائياً، وأن أحداً من العراقيين لن يجرؤ على مهاجمة هذه القوات بعد اللدغات المميتة.

تزامن إطلاق العملية مع بلوغ أعداد القتلى في صفوف القوات الأمريكية ٥٠ عنصراً، استناداً إلى بيانات الجيش الأمريكي، ابتداء من شهر أيار/ مايو ٢٠٠٣، وتهدف العملية، بحسب بيان الجيش الأمريكي، إلى ملاحقة الذين يهاجمون القوات الأمريكية في منطقة تمتد إلى الشمال والشمال الغربي من بغداد.

اللافت في تلك البيانات العسكرية، بما في ذلك التصريحات التي أطلقها القادة العسكريون في الجيش الأمريكي، أنها تتضمن جميعاً عبارة ملحقة بجميع البيانات والتصريحات الخاصة بعملية «عقرب الصحراء» تقول إن الهدف من هذه العملية هو «تقديم المساعدات الإنسانية إلى السكان الذين هم بحاجة إليها، بعد مرور أكثر من شهرين على دخول قوات التحالف العاصمة العراقية»، في حين تُجمعْ شهادات العوائل العراقية، التي تعرضت لعمليات دهم من قبل القوات الأمريكية، على بشاعة الطرق الوحشية التي تمارسها تلك القوات بحق العراقيين الذين تعرضوا للدهم والتفتيش، ودهمت القوات الأمريكية آلاف البيوت في عملية «عقرب الصحراء»، وتختزن الذاكرة العراقية بشاعة ووحشية التصرفات الأمريكية. ولم يتردد الجنود الأمريكيون في ضرب أفراد العائلة بعد تحطيم الأبواب وتفجيرها بقنابل خاصة، واقتياد الرجال وربط الأيدي

ووضع الأكياس السود في رؤوسهم وطرحهم أرضاً والانهيال على أجسادهم بالضرب المبرّح، ولم يتردد الجنود الأمريكيون في الاعتداء على الشيوخ والنسوة والأطفال، وتحطيم أثاث المنازل وسرقة كل ما يصادفونه من أموال أو قطع ذهبية ومجوهرات، ليغادروا بعد ساعات وقد اصطحبوا جميع الرجال لإيداعهم السجون الانفرادية، ثم تتوالى حفلات التعذيب. ولم يحصل على الإطلاق أن قدم الجيش الأمريكي أي نوع من المساعدات الإنسانية، كما يتردد في البيانات الأمريكية الكاذبة.

شنت القوات الأمريكية حملات دهم وتفتيش في بغداد ومحيطها وأغلقت الطرق، ولم تذكر بيانات الجيش الأمريكي معلومات عن قتلى بين قواتهم خلال ثلاثة أيام، إلا أنه وخلال بحثنا في الخسائر الأمريكية، وجدنا أنه في يوم ١٧ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣، أُعلن عن وفاة ميشال توستو (Michael L. Tosto) ويبلغ من العمر ٢٤ عاماً[٧١].

ورغم تكتم القوات الأمريكية على مقتل ويليم لاتهام (William T. Latham) في منطقة الرمادي، إلا أننا وجدناه ضمن قتلى القوات الأمريكية، وسقط قتيلا بتاريخ ١٧حزيران/ يونيو ٢٠٠٣ وعمره ٢٩ سنة من ولاية أريزونا.

في تقرير مقتضب ذكر مراسل صحيفة **واشنطن بوست** في بغداد (توم سكتيري)، أن القوات الأمريكية قد تعرضت لهجمات بقذائف أر. بي. جي ومورتر ليل الأربعاء ويوم الخميس ١٩حزيران/ يونيو ٢٠٠٣، أسفرت عن سقوط عدد من القتلى، مؤكداً أن تلك الحوادث تشير إلى استمرار المقاومة في العراق. وفي محاولة لتهدئة الأمريكيين والتخفيف من القلق الذي بدأ يتسرب إلى دواخلهم في الولايات الأمريكية، بعد ازدياد هجمات المقاومين العراقيين، قال وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد، إن التحالف الأمريكي ـ البريطاني يسيطر على الوضع، معترفاً بوجود مقاومة مسلحة تستهدف قواتهم، وأكد أن الوضع سيعود تدريجياً إلى طبيعته.

في تلك الأثناء اعترف الجيش الأمريكي بمقتل ثلاثة من عناصره في بغداد ومحيطها[٧٢]، ففي ١٨ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣ سقط روبرت فرانتز (Robert L. Frantz)، وعمره ١٩ سنة، من تكساس. كان يخدم ضمن فوج المشاة ٣٦، الفرقة المدرعة الأولى. وتقول وكالة «أسوشيتد برس»، إنه قتل خلال نوبة حراسة، وإن مسلحين ألقوا قنبلة يدوية من فوق حائط، فأدى انفجارها إلى مقتله في الحال.

---

(٧١) مواقع القتلى في صفوف القوات الأمريكية بتاريخ ١٧/ ٦/ ٢٠٠٣.

(٧٢) Associated Press, 18/6/2003, <http://www.ap.org/>.

في اليوم نفسه، سقط قتيل آخر من الجيش الأمريكي في بغداد، ولم تعلن القوات الأمريكية عن مقتله في بياناتها لذلك اليوم، هو ميشال دويل (Michael R. Deuel) وعمره ٢١ سنة، وكان يخدم في الكتيبة الثانية، فوج المشاة ٣٢٥، الفرقة المجوقلة ٨٢ من سكان ولاية كارولاينا، وقد قتل بطلق ناري بينما كان في نوبة حراسة، بحسب **واشنطن بوست** الأمريكية. وإلى جنوب بغداد، وتحديداً في منطقة الاسكندرية، هاجم المقاومون القوات الأمريكية، واعترف الجيش الأمريكي بمقتل أحد جنوده هو باول ناكامارا (Paul T. Nakamara) ويبلغ من العمر ٢١ سنة، من سكان كاليفورنيا، واعترف الجيش الأمريكي بمقتله أثناء معركة مع المسلحين حصلت يوم ١٩ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣. وهاجم المقاومون العراقيون السيارة التي كان يستقلها بأسلحة أر. بي. جي، ما أدى إلى مقتله وجرح آخرين.

لم يكن صدى هجمات المقاومة العراقية المبكرة محصوراً داخل وحدات الجيش الأمريكي والبريطاني فقط؛ فقد انشغلت البنتاغون بذلك. وللمرة الأولى، يلمح مهندس الحرب على العراق، وأكثر المسؤولين الأمريكيين ـ بعد الرئيس بوش ـ تفاؤلاً بتحقيق أهداف الحرب كاملة، بول وولفويتز نائب وزير الدفاع، بعد اجتماع مع الجنرال بيتر بايس نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة وأعضاء لجنة القوات المسلحة في الكونغرس إلى أن القوات الأمريكية ستحتاج إلى ميزانية ٣ مليارات دولار شهرياً للإنفاق على الوجود العسكري الأمريكي في العراق[٧٣].

في يوم الثلاثاء ١٧ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣، تبنت مجموعة تطلق على نفسها اسم «سرايا المقاومة العراقية» جميع العمليات والهجمات التي تعرضت لها القوات الأمريكية بالعراق، وبسبب رفض وسائل الإعلام المحلية العراقية الإشارة إلى اسم المقاومة العراقية، فقد تجاهلت ذلك البيان جميع الصحف والإذاعات والفضائيات، إلا أن بعض الصحف الأمريكية والعربية نقلت بعض فقراته، وأشارت إلى أن هذا البيان يأتي بعد ازدياد عمليات المقاومة العراقية ضد الاحتلال الأمريكي في العراق.

كما قالت صحيفة **الشرق الأوسط** اللندنية[٧٤] إن جبهة تطلق على نفسها اسم «جبهة الفدائيين الوطنية» قد هددت بتكثيف عملياتها ضد الأمريكيين إذا لم يغادروا

---

(٧٣) نَشَرَت وسائل الإعلام الأمريكية تصريحات نائب وزير الدفاع الأمريكي بول وولفويتز في ١٩/ ٦/ ٢٠٠٣.

(٧٤) **الشرق الأوسط**، ٢٠/ ٦/ ٢٠٠٣.

العراق فوراً. ونقلت الصحيفة عن الجبهة في رسالتها «نقول لهم: إن أرادوا سلامة جنودهم فعليهم الرحيل فوراً عن أرض العراق الطاهرة، وإلا سننتقم لكل عراقي قتلوه أو أهانوه أو سلبوا بيته»[٧٥].

بعد خمسين يوماً فقط من إعلان الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش (الانتصار الكبير)، أرغمه المقاومون العراقيون على الاعتراف بحجم المقاومة المتزايد. ففي يوم الأحد الواقع فيه ٢١ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣، قال بوش في كلمته الأسبوعية، إن القوات الأمريكية في العراق ستواجه أيضاً مخاطر وستقدم تضحيات. وخلص إلى القول ـ حسب وسائل الإعلام الأمريكية ـ بأن «جيوباً خطرة من العناصر المرتبطين بالنظام السابق مع حلفاء لهم من الإرهابيين يقفون وراء الهجمات الدامية الهادفة إلى قتل وإرهاب قوات التحالف والعراقيين الأبرياء».

في تلك الأثناء، كانت الإدارة الأمريكية ومؤسساتها تشهد نقاشات حادة حول أسباب غزو العراق وعدم العثور على أسلحة دمار شامل، وفي الوقت ذاته يتوالى وصول جثامين القتلى من القوات الأمريكية إلى أهلهم وذويهم في العديد من الولايات الأمريكية. ووسط الضغوط الشعبية والرسمية خرج بوش بتبرير هزيل، عندما قال، في الخطاب الأسبوعي ذاته، «أعتقد بأن مواقع أسلحة الدمار الشامل العراقية قد تعرضت للنهب في الأيام الأخيرة لحكم صدام حسين. ويتفق الخبراء والمراقبون، أن سبب الانتقادات الواسعة والجدل المتواصل في الشارع الأمريكي وانعكاسه على إدارة بوش، لم يكن بهذا الحجم لولا بروز المقاومة العراقية، التي نقلت صور الحرب من الشارع العراقي بمواصلة هجماتها وتصعيدها بفترة قياسية ضد القوات الأمريكية والبريطانية، ونقلها بقوة إلى الحياة اليومية في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا.

إن ازدياد الخسائر البشرية بين صفوف الجنود الأمريكيين وعدم قدرة قواتهم على كبح جماح المقاومين العراقيين، قد أعطى إشارات واضحة عن مستقبل خطير يهدد هذه القوات، إضافة إلى الخسائر المادية الباهظة التي تتكبدها الخزينة الأمريكية والانعكاسات السلبية على دافعي الضرائب الذين تحولوا إلى دافعي «دم» في العراق وهو ما لم يخطر ببال أحد من الأمريكيين خلال استحضارات الغزو أواخر عام ٢٠٠٢ وبداية عام ٢٠٠٣ حيث بدأ الغزو الأمريكي ـ البريطاني.

---

(٧٥) المصدر نفسه.

ازداد اهتمام وسائل الإعلام الأمريكية بالشأن العراقي، وأرسلت الكثير من الصحف والفضائيات مراسلين إلى بغداد ومدن عراقية أخرى، وكان جُلّ اهتمام هؤلاء، ينصب على متابعة ظاهرة المقاومة العراقية وبروزها بالشكل الذي وصلت إليه خلال مدة قياسية. وفي نهاية الأسبوع الثالث من حزيران/ يونيو ٢٠٠٣، نشرت العديد من الصحف الأمريكية تقارير وتحليلات ومعلومات مستقاة من قادة عسكريين ميدانيين في العراق وخبراء في وكالة الاستخبارات المركزية ومراقبين وعسكريين متقاعدين، أجمعوا فيها على أنه «لا يبدو أن العمليات الجارية ضد قواتهم في العراق هي تحت سيطرة مركزية لقائد واحد أو مجموعة واحدة».

إن هذا التحليل كان ـ بلا شك ـ صائباً. فقد أكدت هذه الحقيقة الأشهر والسنوات اللاحقة من زمن الاحتلال، إذ ظهرت عشرات الفصائل والكتائب والجيوش المقاومة للاحتلال الأمريكي، التي، إن اختلفت في العناوين والتوجهات، اتفقت جميعاً على مقاومة المحتلين والعمل بقوة وإصرار على طرد الغزاة.

شهد يوم الاثنين ٢٢ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣ إطلاق تصريحات على درجة عالية من الأهمية، ففي معسكر الدوحة، نقل صحافيون أمريكيون، هم مايكل غوردون ودوغلاس جيهل ودانييل وليامز من صحف **واشنطن بوست** و**نيويورك تايمز**، إضافة إلى عدد من المراسلين، تصريحات اللواء ويليام وبستر نائب آمر قيادة القوات البرية الأمريكية قال فيها: «إن ما هو متميز حالياً هو أن المقاتلين الأجانب مستمرون في لعب دور فعال داخل العراق، وهم مستمرون بالانضمام للمقاومة ضد الأمريكيين مقابل نقود. وتعكس الجهود الرامية لتحقيق هذا الهدف درجة عالية من التنظيم وراء عمليات المقاومة للوجود الأمريكي في العراق».

وقال مسؤول عسكري أمريكي في واشنطن، إن هدف المقاومة هو «كسر إرادتنا وإقناعنا بتبني استراتيجية الانسحاب».

وقال مسؤول في وزارة الدفاع الأمريكية إنه «وقعت ١٣١ معركة كان الأمريكيون طرفاً فيها»، وتشكل المعارك التي بدأها الأمريكيون أنفسهم ٤٠ بالمئة منها، وأغلبها وقع في أو بالقرب من الفلوجة وبلد وبعقوبة. وقال مسؤول دفاعي كبير «هناك عدد من المقاتلين الأجانب داخل العراق أكبر مما كنا نظن»[٧٦].

(٧٦) *Washington Post*, 23/6/2003, and *The New York Times*, 23/6/2003.

قبل يوم واحد من تلك التصريحات من أكثر من مكان، نعى بيان للجيش الأمريكي أحد جنوده في بغداد، هو أو رنثيال ج. سميث (O. Renthial J. Smith)[٧٧] الذي يبلغ من العمر ٢١ سنة. وقال البيان إنه قتل أثناء معركة دون إعطاء المزيد من التفاصيل.

شهد يوم الثلاثاء المصادف ٢٤ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣ هجمات واسعة شنها المقاومون العراقيون في مدينة البصرة بجنوب العراق، إذ تعرضت القوات البريطانية لسلسلة هجمات قاتلة، واعترفت وزارة الدفاع البريطانية بسقوط ستة جنود قتلى وجرح عشرة آخرين في سلسلة هجمات، وقالت صحيفة **الشرق الأوسط** إن متحدثة باسم وزارة الدفاع البريطانية قد أكدت تلك الأنباء التي نقلها مراسل الصحيفة في بغداد (نصير النهر) عن مصادر في البصرة[٧٨]، وتصدر الخبر نشرات الأخبار في محطات التلفزة البريطانية وأولت صحف لندن اهتماماً واسعاً بتلك الأخبار الصادمة. وقال متحدث باسم وزارة الخارجية البريطانية إنه من الصعب تبين النتائج السياسية للهجوم الذي حصل للتوّ، ولا نعرف ما إذا كان حادثاً منفصلاً أم أنه سيكون جزءاً مما يليه من الحوادث المشابهة.

وتناقل العراقيون في مدينة البصرة أخبار الهجمات التي نفذها المقاومون في هذه المدينة ضد القوات البريطانية، التي تمركزت في مناطق جنوب العراق واتخذت من البصرة مقراً رئيسياً لها، في حين روى بصريون أن حالة من الذعر والهلع قد سيطرت على القوات البريطانية التي قلصت دورياتها في طرق المدينة، ونشرت المزيد من الحراس في محيط مطار البصرة حيث تقع قيادة تلك القوات، كما حصل التشديد ذاته في المعسكرات الأخرى.

وفي اليوم نفسه الثلاثاء ٢٤ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣، اعترفت القوات الأمريكية[٧٩] بتعرض قواتها لثلاث هجمات في مدينة الرمادي، وقال بيان عسكري أمريكي إن جنديين أمريكيين أصيبا من جرّاء تلك الهجمات، حيث هوجم حاجزان للجيش الأمريكي، تعرض أحدهما لإطلاق نار من سيارة مسرعة، فيما استخدمت سيارتان في الهجوم على الحاجز الآخر.

---

(٧٧) بيان للقوات الأمريكية في العراق بتاريخ ٢٤/ ٦/ ٢٠٠٣، اعترف فيه بمقتل الجندي يوم ٢٢/ ٦/ ٢٠٠٣.

(٧٨) الصحافي العراقي نصير النهر، نقلاً عن مصادر في مدينة البصرة، وقد تمّ نشر الخبر في: **الشرق الأوسط**، ٢٥/ ٦/ ٢٠٠٣.

(٧٩) بيان القوات الأمريكية في العراق بتاريخ ٢٤/ ٦/ ٢٠٠٣.

وسقط الجندي سيدريك لينون (Cedric L. Lennon) قتيلاً في بغداد، ولم تذكر ذلك البيانات الأمريكية في حينه، لكنْ نشر الخبر الموقع الخاص بقتلى الجيش الأمريكي في وقت لاحق، ويقول الموقع بأنه قتل في بغداد بتاريخ ٢٤/ ٦/ ٢٠٠٣ وأنه يبلغ من العمر ٣٢ عاماً.

وسرعان ما انتقلت أخبار مقتل الجنود الستة البريطانيين على أيدي المقاومين في مدينة البصرة إلى مقر الحكومة البريطانية في لندن. وقال رئيس الحكومة البريطانية توني بلير يوم الأربعاء في ٢٥ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣، في أول رد فعل على مقتل الجنود البريطانيين، «إن الوضع الأمني في العراق ما زال خطيراً جداً». وأعلن وزير الدفاع البريطاني جيف هون، من ناحيته، أن بلاده قد ترسل المزيد من القوات إلى العراق عقب مقتل الجنود البريطانيين، وقال لهيئة الإذاعة البريطانية بي بي سي[٨٠] إنه تجرى حالياً مراجعة عاجلة لأمن القوات البريطانية التي تسيطر على جنوب العراق.

في الخامس والعشرين من حزيران/ يونيو، شن المقاومون العراقيون هجوماً ضد القوات الأمريكية في مدينة الحلة جنوب بغداد، وأوقعوا قتيلاً من قوات المارينز وعدداً من الجرحى، واعترف البنتاغون بمقتل أحد المارينز هو غريغوري ماكدونالد (Gregory E. Macdonald) ويبلغ من العمر ٢٩ عاماً، ونشرت وسائل إعلام أمريكية معلومات عن القتيل، قالت إنه خريج الجامعة الأمريكية عام ٢٠٠١، وهو برتبة عريف، يهوى القراءة ويعزف على الغيتار، ودرس الفلسفة وحاصل على شهادة الماجستير.

ليس بعيداً من الحلة، وبين بغداد والبصرة، حصلت معركة شرسة بين المقاومين العراقيين ودورية أمريكية في مدينة النجف[٨١] يوم الخميس المصادف ٢٦ حزيران/ يونيو، وأعلن ضابط أمريكي أن جندياً أمريكياً قُتل في هجوم استهدف وحدة مشاة البحرية الأمريكية في مدينة الكوفة قرب النجف على بعد ١٣٠ كم جنوب بغداد، وقال الرائد ريك هال، من الفوج الثالث للكتيبة السابعة لمشاة البحرية من بلدة الكوفة، إن الجنود الأمريكيين كانوا يقومون بدورية مع الشرطة العراقية عندما هاجمهم مسلحون. وفي وقت لاحق ذكرت صحيفة **واشنطن بوست** أن القتيل هو ريتشارد ب. أورينغو (Richard P. Orengo) يبلغ من العمر٣٢ عاماً، وهو من بورتوريكو في الولايات المتحدة وقد انخرط في الخدمة منذ عام ١٩٩٦.

---

(٨٠) انظر: نشرات أخبار إذاعة الـ «بي بي سي» البريطانية، بتاريخ ٢٥/ ٦/ ٢٠٠٣.

(٨١) بيان القوات الأمريكية على مشارف مدينة النجف بتاريخ ٢٦/ ٦/ ٢٠٠٣.

ليل السبت ـ الأحد المصادف ٢٧ حزيران/ يونيو، هاجم المقاومون العراقيون المقر العام للقوات الأمريكية في مدينة الفلوجة (٦٠ كم غرب بغداد). ونقلت وكالات الأنباء العالمية عن شهود عيان من أبناء المدينة، أن المهاجمين أطلقوا قذائف أر بي جي المضادة للدبابات على بناية مركز الشرطة حيث يتمركز الجنود الأمريكيون. وبعد سماع دوي الانفجارات الناجمة عن الهجمات شاهد الأهالي مروحيات تحوم في سماء الفلوجة في محاولة للوصول إلى المقاومين الذين نفذوا الهجوم.

في بداية الأسبوع الأخير من شهر حزيران/ يونيو، تداول العراقيون في قضاء بلد أخبار قصة اختطاف عربة هامفي للقوات الأمريكية، وقال شهود عيان إن دورية للقوات الأمريكية تعرضت لهجوم نفذه مقاومون في منطقة سيد غريب قرب قضاء بلد، وسارعت عربات الدورية بالهروب من المكان في حين استولى المقاومون على إحدى العربات، وتحدثوا عن وجود عدد من الجنود داخل الهامفي، وتسربت معلومات عن اثنين من الجنود الأمريكيين كانوا يستقلون العربة، التي كانت تسير في آخر قافلة مؤلفة من خمس عربات، ولم تعلن أي جهة مسؤوليتها عن الهجوم في حينه، وتم اختطاف الجنديين الأمريكيين مع عربتهما يوم الأربعاء المصادف ٢٥ حزيران/ يونيو. وقامت مروحيات هجومية أمريكية من نوع أباتشي، بعمليات بحث مكثفة في المنطقة التي تقع شمال غرب بغداد للعثور على الجنديين. وذكرت وكالات الأنباء في تغطيتها لاختطاف الجنديين الأمريكيين، أن منطقة بلد قد تحولت في الأسابيع الأخيرة إلى مسرح لعمليات أمريكية تهدف إلى وضع حد للهجمات التي تشنها المقاومة العراقية.

في تلك الأثناء، أعلن ضابط أمريكي أن العربة المدرعة للجنديين الأمريكيين المفقودين قرب بلد، قد تم رصدها في بغداد، وقد تستخدم لشن هجوم ضد القوات الأمريكية. وأعلن الرائد روبرت تونير أن الجنديين خطفا الأربعاء في ٢٥/ ٦/ ٢٠٠٣ على بعد عشرين كم جنوب بلد. ولم يصدر أي توضيح من الجيش الأمريكي عن مصير العربة، وما هو مصدر معلومات الجيش الأمريكي عن وجودها في العاصمة العراقية. وكانت إذاعة بي بي سي أول من أعلن خبر اختفاء الجنديين الأمريكيين[٨٢].

وأوردت المراسلة أن أجواء المنطقة كانت مغبرة جداً بسبب عاصفة ترابية قوية ضربت المنطقة في يوم اختطاف الجنديين الأمريكيين مع عربتهما الهامفي، الأمر الذي

(٨٢) أعلن الرائد روبرت تونير أن الجنديين خُطِفا الأربعاء في ٢٥/ ٦/ ٢٠٠٣، على بُعد عشرين كيلومتراً جنوب مدينة بلد (٨٠ كم شمال بغداد).

نفاه السكان بالمطلق في أحاديث عديدة لمؤلف هذا الكتاب في الأيام القليلة اللاحقة، كما أن مراجعة تقارير الأحوال الجوية العراقية تثبت ذلك وتؤكد عدم دقة المعلومات التي أوردتها مراسلة إذاعة الـ «بي بي سي».

في يوم السبت الواقع فيه ٢٨ حزيران/ يونيو، أعلنت القوات الأمريكية العثور على جثتي الجنديين الأمريكيين المفقودين بالعراق، وقال متحدث عسكري أمريكي، بأنه قد تم العثور على جثتي الجنديين من دون إعطاء المزيد من التفاصيل.

وفي بحثنا عن قتلى الجيش الأمريكي في تلك الأيام، لم نعثر على أسماء الجنديين في الموقع الإلكتروني الخاص بقتلى الجيش الأمريكي في العراق.

في اليوم نفسه الذي اعترفت فيه القوات الأمريكية بمقتل أحد جنودها في النجف، سقط جندي أمريكي آخر في مدينة كربلاء، هو جوشوا ماكينتوش (Joshua Mclntosh)[٨٣] ويبلغ من العمر ٢٢ عاماً، من أريزونا، ولم توثق صحيفة **واشنطن بوست** في موقعها الإلكتروني أي معلومات عن الجندي المقتول بتاريخ ٢٦ حزيران/ يونيو.

وبتاريخ ٢٧ حزيران/ يونيو قتلت المقاومة العراقية خلال اشتباك مع القوات الأمريكية وسط بغداد الجندي توماس سوتيلو (Tomas Sotelo)[٨٤] ويبلغ من العمر ٢٠ عاماً من هيوستن، وذكرت صحيفة **واشنطن بوست** أن قذيفة صاروخية أطلقها مسلحون في بغداد قد تسببت بمقتله.

في يوم ٢٨ حزيران/ يونيو سقط كيفن سي. أوتّ (Kevin C. Ott) قتيلاً بنيران المقاومة العراقية في منطقة التاجي (٣٠ كم شمال بغداد)، وهو من مدينة أوهايو ويبلغ من العمر ٢٧ عاماً. وخلافاً لما ذكرته بيانات الجيش الأمريكي، قالت **واشنطن بوست** إنه قتل في ٢٥/ ٦/ ٢٠٠٣.

وفي اليوم اللاحق، في ٢٨ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣، قتلت المقاومة العراقية أمريكياً آخر في منطقة التاجي أيضاً، حسب ما ذكر بيان للجيش الأمريكي، الذي قال في بيانه، إن أحد عناصر الجيش قد قتل في معركة ضمن منطقة التاجي والقتيل هو غلاديمير فيليبس (Gladimir Philipps) ويبلغ من العمر ٣٧ سنة. وتجاهل ذكره موقع صحيفة **واشنطن بوست**، في حين نشرت الخبر العديد من وسائل الإعلام الأمريكية.

---

(٨٣) قُتِلَ الجندي في مدينة كربلاء بتاريخ ٣٦/ ٦/ ٢٠٠٣. انظر: iCasualties.org (Iriaq Coalition Casuality Count), <http://icasualties.org/iraq/index.aspx>.

(٨٤) *Washington Post*, 27/6/2003.

في اليوم نفسه، في ٢٨ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣، شنت المقاومة هجوماً على القوات الأمريكية في بغداد، وسقط أحد عناصرها قتيلاً، وهو تيموثي م. كونواي (Timothy M. Conneway) ويبلغ من العمر ٢٢ عاماً. وتقول **واشنطن بوست**، إن جندياً آخر قتل أثناء الهجوم، لكنها لم تعطِ تفاصيل أخرى.

خلال الأيام الأخيرة من شهر حزيران/ يونيو، أي قبل انتهاء ثمانين يوماً من بداية احتلال العراق، وانقضاء شهرين على إعلان الرئيس الأمريكي انتهاء العمليات العسكرية في الأول من أيار/ مايو ٢٠٠٣، شهدت واشنطن نشاطات واجتماعات واسعة، وتصدرت الصحف الأمريكية العناوين التي تتحدث عن تزايد القلق إزاء المصاعب التي تواجهها القوات الأمريكية في العراق.

وزخرت الصحف الأمريكية الصادرة يومي السبت والأحد في ٢٧ و٢٨/ ٦/ ٢٠٠٣ بالتصريحات والأخبار، التي تعكس القلق المتزايد بسبب هجمات المقاومين العراقيين، التي تتصاعد بقوة وتتسع رقعة انتشارها، خلافاً لتصورات الأمريكيين قبيل الغزو في آذار/ مارس ٢٠٠٣.

وقالت وكالة الصحافة الفرنسية (أ.ف.ب) في تحليل إخباري من واشنطن: «يثير تعثر الولايات المتحدة إزاء التحديات التي تواجهها في إعادة إعمار العراق وإعادة النظام إليه تخوفاً متزايداً في الكونغرس الأمريكي، الذي يخشى تورط القوات الأمريكية في حلقة مفرغة؛ فبعد حوالى شهرين على إعلان الرئيس جورج بوش انتهاء العمليات العسكرية في الأول من أيار/ مايو، لا تزال القوات الأمريكية والبريطانية تتعرض لهجمات شبه يومية وتتكبد خسائر، مما يزيد من مخاوف البرلمانيين الأمريكيين»[٨٥].

خاتمة

شهدت الأيام والأسابيع والسنوات اللاحقة لهذا التاريخ، الذي توقفنا عنده ـ نهاية حزيران/ يونيو ٢٠٠٣، هجمات كبيرة ونوعية كثيرة جداً ضد قوات الاحتلال الأمريكي ـ البريطاني الكوني، ولمجرد البحث في التفاصيل سيجد المرء الكثير من القصص والأحداث التي تفسر نجاح فلسفة المقاومة العراقية القائمة على قضم القوة الأمريكية داخل العراق وإنهاء قناعات القادة الأمريكيين، التي ورثوها بعد انتصارهم على الاتحاد السوفياتي مطلع تسعينيات القرن العشرين في الحرب الباردة، وشرعوا

(٨٥) وكالة «فرانس برس» (أ. ف. ب.)، ٢٧/ ٦/ ٢٠٠٣، <http://www.afp.com/ar>.

بعدها بمشروع «استعباد البشرية» بالقوة العسكرية انطلاقاً من العراق، فانكفأ المشروع نهائياً، واعترف الرئيس الأمريكي باراك أوباما بخطابه الذي ألقاه في تشرين الأول/ أكتوبر، وأعلن فيه سحب القوات الأمريكية نهاية عام ٢٠١١ من العراق، وقال بالحرف الواحد «إن جيلاً كاملاً من الأمريكيين سيعاني من حرب العراق».

وقيل الكثير عن تجربة احتلال العراق، لكن الأغلبية العظمى، تتحدث عن هزيمة وانكسار وخيبة وفشل وغير ذلك، من دون الإشارة إلى القوة الحقيقية التي تقف وراء ذلك.

نقول بكل فخر إنها «المقاومة العراقية» التي أصبح اسمها يرعب حتى السياسيين والباحثين والمراقبين، ولا يعترفون في أغلبية كتاباتهم وتحليلاتهم بوقوفها بصورة مباشرة وراء هزيمة أمريكا من العراق وفشل مشروعها الكوني.

ملحق

إحصاءات قتلى القوات الأمريكية والقوات الأخرى في العراق

الجدول الرقم (١)

قتلى قوات التحالف العسكرية حسب السنة

السنة	الولايات المتحدة	المملكة المتحدة	آخرون	المجموع
٢٠٠٣	٤٨٦	٥٣	٤١	٥٨٠
٢٠٠٤	٨٤٩	٢٢	٣٥	٩٠٦
٢٠٠٥	٨٤٦	٢٣	٢٨	٨٩٧
٢٠٠٦	٨٢٣	٢٩	٢١	٨٧٣
٢٠٠٧	٩٠٤	٤٧	١٠	٩٦١
٢٠٠٨	٣١٤	٤	٤	٣٢٢
٢٠٠٩	١٤٩	١	٠	١٥٠
٢٠١٠	٦٠	٠	٠	٦٠
٢٠١١	٥٤	٠	٠	٥٤
٢٠١٢	١	٠	٠	١
المجموع	٤٤٨٦	١٧٩	١٣٩	٤٨٠٤

الشكل الرقم (١)

قتلى قوات التحالف العسكرية حسب السنة

الجدول الرقم (٢)

قتلى قوات التحالف العسكرية حسب السنة والشهر

السنة	كانون الثاني/ يناير	شباط/ فبراير	آذار/ مارس	نيسان/ أبريل	أيار/ مايو	حزيران/ يونيو	تموز/ يوليو	آب/ أغسطس	أيلول/ سبتمبر	تشرين الأول/ أكتوبر	تشرين الثاني/ نوفمبر	كانون الأول/ ديسمبر	المجموع
٢٠٠٣	٠	٠	٩٢	٨٠	٤٢	٣٦	٤٩	٤٣	٣٣	٤٧	١١٠	٤٨	٥٨٠
٢٠٠٤	٥٢	٢٣	٥٢	١٤٠	٨٤	٥٠	٥٨	٧٥	٨٧	٦٨	١٤١	٧٦	٩٠٦
٢٠٠٥	١٢٧	٦٠	٣٩	٥٢	٨٨	٨٣	٥٨	٨٥	٥٢	٩٩	٨٦	٦٨	٨٩٧
٢٠٠٦	٦٤	٥٨	٣٤	٨٢	٧٩	٦٣	٤٦	٦٦	٧٧	١١١	٧٨	١١٥	٨٧٣
٢٠٠٧	٨٦	٨٥	٨٢	١١٧	١٣١	١٠٨	٨٩	٨٨	٧٠	٤٠	٤٠	٢٥	٩٦١
٢٠٠٨	٤٠	٣٠	٤٠	٥٢	٢١	٣١	١٣	٢٣	٢٥	١٤	١٧	١٦	٣٢٢
٢٠٠٩	١٦	١٨	٩	١٩	٢٥	١٥	٨	٧	١٠	٩	١١	٣	١٥٠
٢٠١٠	٦	٦	٧	٨	٦	٨	٤	٣	٧	٢	٢	١	٦٠
٢٠١١	٦	٣	٢	١١	٢	١٥	٥	٠	٤	٤	٢	٠	٥٤
٢٠١٢	٠	١	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١

الجدول الرقم (٣)

القتلى حسب البلد

البلد	المجموع
أذربيجان	١
إسبانيا	١١
أستراليا	٢
أستونيا	٢
أوكرانيا	١٨
إيطاليا	٣٣
بلغاريا	١٣
بولندا	٢٣
تايلاند	٢
جمهورية التشيك	١
جورجيا	٥
دانمارك	٧
رومانيا	٣
السلفادور	٥
سلوفاكيا	٤
فيجي	١
كازاخستان	١
كوريا الجنوبية	١
لاتفيا	٣
المملكة المتحدة	١٧٩
هنغاريا	١
هولندا	٢
الولايات المتحدة	٤٤٨٦
المجموع	٤٨٠٤

المصدر: <http://icasualties.org/iraq/index.aspx>.

الشكل الرقم (٢)

القتلى حسب البلد

المراجع

١ ـ العربية

كتب

بدوان، علي. **صفحات من تاريخ الكفاح الفلسطيني: التكوينات السياسية والفدائية المعاصرة: النشأة والمصائر**. دمشق: دار صفحات للدراسات والنشر، ٢٠٠٨.

ديغول، شارل. **مذكرات الجنرال ديغول: نداء الشرف، ١٩٤٠ ـ ١٩٤٢**. ترجمة وتعليق خيري حماد. بيروت؛ بغداد: مكتبة المتنبي، ١٩٦٤.

الزبيدي، وليد. **جدار بغداد: يوميات شاهد على غزو العراق**. القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٦.

_____. **المقاومة العراقية وأمريكا**. القاهرة: مكتبة جزيرة الورد، ٢٠١٢.

ليبو، ريتشارد نيد. **لماذا تتحارب الأمم؟ دوافع الحرب في الماضي والمستقبل**. ترجمة إيهاب عبد الرحيم علي. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٣. (عالم المعرفة؛ ٤٠٣)

منصور، أحمد. **الرئيس أحمد بن بيلا.. يكشف عن أسرار ثورة الجزائر**. بيروت: الدار العربية للعلوم ـ ناشرون، ٢٠٠٧. (كتاب الجزيرة ـ شاهد على العصر)

دوريات

بابل (بغداد): ٩/ ٤/ ٢٠٠٣.

الرياض: ١١/ ٤/ ٢٠٠٣؛ ٢٨/ ٤/ ٢٠٠٣؛ ١١/ ٥/ ٢٠٠٣؛ ٢٨ ـ ٢٩/ ٥/ ٢٠٠٣، و٣١/ ٥/ ٢٠٠٣.

الزمان (بغداد): ٢١/ ٥/ ٢٠٠٣.

الشرق الأوسط: ١٤/ ٤/ ٢٠٠٣؛ ٢٤/ ٤/ ٢٠٠٣؛ ١٣/ ٥/ ٢٠٠٣؛ ٢٠/ ٥/ ٢٠٠٣؛ ١٣/ ٦/ ٢٠٠٣؛ ١٦/ ٦/ ٢٠٠٣؛ ٢٠/ ٦/ ٢٠٠٣، و٢٥/ ٦/ ٢٠٠٣.

ندوات ومؤتمرات

الثورة والانتقال الديمقراطي في الوطن العربي: نحو خطة طريق: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع المعهد السويدي بالإسكندرية. تحرير عبد الإله بلقزيز ويوسف الصواني. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٢. (وقفية جاسم القطامي للديمقراطية وحقوق الإنسان)

مواقع إلكترونية؛ تقارير

«موسوعة الحرب الفيتنامية.» منشورة على موقع مقاتل من الصحراء الإلكتروني: <http://www.moqatel.com/openshare/Behoth/Siasia2/fetnam-enc/index.htm>.

وكالة رويترز للأنباء، ١٣/ ٤/ ٢٠٠٣، <http://ara.reuters.com>.

وكالة فرانس برس (أ. ف. ب.)، <http://www.afp.com/ar>.

٢ ـ الأجنبية

Books

Che Guevara, Ernesto. *Guerrilla Warfare*. New York: Bison Books, 1961.

Periodicals

Aftonbladet (Stockholm), 14/4/2003.
*The Independent***:** 13/4/2003.
La Liberté (Paris): 16/4/2003.
Los Angeles Times (New York): 17/4/2003, and 23/6/2003.
The New York Times: 13/5/2003, and 22/5/2003.
Newsweek: 1/5/2003.
Times: 19/4/2003.
USA Today: 8/5/2003; 1/6/2003, and 10/6/2003.
Washington Globe: 9/5/2003.
Washington Post: 5/5/2003; 8/5/2003; 9-10/6/2003; 23/6/2003, and 27/6/2003.

Reports and Websites

Associated Press: 3/5/2003; 9/5/2003, and 12/5/2003, <http://www.ap.org/>.
BBC, <http://www.bbc.co.uk/>.
Fox News, <http://www.foxnews.com>.
iCasualties.org (Iraq Coalition Casualty Count), <http://icasualties.org/iraq/index.aspx>.
Radio Canada International, <http://www.rcinet.ca/en/>.
TT Nyhetsbyrån, <http://tt.se/>.
USA Today, <http://www.usatoday.com/>.
Washington Post, <http://www.washingtonpost.com>.
Zd Net, <http://www.zdnet.com>.

فهرس

ـ أ ـ

ابن بو العيد، مصطفى: ٥٠

ابن بيلّا، أحمد: ٥٠، ٦١-٦٢

ابن مهيدي، العربي: ٥٠

أبو عيشه، خالد: ٥٦

اتفاق جنيف (١٩٥٤): ٥٧

اتفاقيات جنيف (١٩٤٩): ١٦٠

اتفاقية لاهاي (١٩٠٧): ١٦٠

الاحتلال الألماني لفرنسا (١٩٤٠): ٣٨، ٥١، ٥٣

الاحتلال الفرنسي للجزائر (١٨٣٠): ٥٠

أحمد، سلطان هاشم: ٤٨

الإدارة الأمريكية: ٢٥-٢٦، ٤٥، ٥٩، ٧٠، ١٢٢، ١٣١، ١٤٥-١٤٦، ١٦١، ١٧١

الأزمة السورية (٢٠١٣): ٢٦

استقلال الجزائر (١٩٦٢): ٥١، ٦٢

إشانس، وليام: ١٣٤

إعلان دولة إسرائيل (١٩٤٨): ٥٤

إعلان فرنسا الحرة (١٩٤٠): ٨٧

الأمم المتحدة: ٨٩، ١٦٠-١٦١

ـ الميثاق: ١٦٠

الإنترنت: ٢٨

انسحاب القوات الأمريكية من العراق (٢٠١١): ٧

أوباما، باراك: ٧، ١٧٨

أوروزكو، أوزبالدو: ٩٨

أونيل، مايرا: ١٦٧

أيوب، طارق: ٤٢

ـ ب ـ

بارتوس، ميروسلاف: ١٤٠

بايس، بيتر: ١٧٠

بروكس، فنسنت: ١٠١

بريمر، بول: ١٣١، ١٤١-١٤٢، ١٤٤، ١٤٦-١٤٧، ١٥١، ١٥٧
بلعيد، رابح: ٦٩
بلقاسم، كارين: ٥٠
بلوم، ديفيد: ١٠٧
بلونت، بافورد: ١٢٥
بلير، إدموند: ١١٤
بلير، توني: ١٤٢، ١٦١، ١٧٤
بوش، جورج (الإبن): ١٣-١٤، ٢١-٢٣، ٤٤-٤٦، ٥٩، ٨٠، ٨٧، ٩٠، ٩٢، ٩٥، ٩٧، ١٠٢-١٠٣، ١٠٦، ١١٧، ١٢١-١٢٣، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٦-١٣٧، ١٣٩، ١٤٢-١٤٣، ١٥١، ١٥٣، ١٥٩، ١٦١، ١٧١، ١٧٧
بونيتي، جاك: ١١٠
بيتان، فيليب: ٣٨، ٥٤، ٨٧
بيطاط، رابح: ٥٠
بين، وليامز: ١٤٣

- ت -

تايلور، ماكسويل: ٥٨، ٧٥
تشرشل، ونستون: ١٥، ٦٨
تشومسكي، نعوم: ٨٨، ٨٩
توماس، برايان: ١٦٦
توينر، روبرت: ١٧٥

- ث -

الثورة الأمريكية (١٧٧٥): ٦٥
الثورة الجزائرية (١٩٥٤ - ١٩٦٢): ١٦، ١٩، ٦١، ٨٧

- ج -

جامعة الدول العربية: ١٦، ٦٩
جبريل، أحمد: ٥٥
جبهة التحرير الوطني الفلسطيني: ٥٥
الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين: ٥٦
جيهل، دوغلاس: ١٧٢

- ح -

حادثة بيرل هاربر (١٩٤١): ٧٠
حبش، جورج: ٥٦
حرب الإعلام: ٧٠
الحرب الباردة: ١٤، ٦٣، ٧٥، ١٧٧
حرب الخليج الأولى (١٩٨٠ - ١٩٨٨): ٣٧
حرب الخليج الثانية (١٩٩٠ - ١٩٩١): ٣٧، ٤٢، ٨٠، ٩٥
الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥): ١٤، ٣١، ٥٢، ٥٧، ٥٩، ٦٣-٦٤، ٧٥، ٩١، ١١٧، ١٦٣، ١٦٧
حرب العصابات: ٨١
الحرب على العراق (٢٠٠٣): ٢٥، ٢٩-٣٠، ٣٥-٣٨، ٤٠، ٤٤، ٤٦، ٥٠، ٥٩، ٦٥، ٦٧، ٧٠، ٧٣، ٧٦-٧٧، ٨٥، ٨٨
حرب الفييتنام (١٩٥٦ - ١٩٧٥): ١٩، ١١٥، ١٦٣، ١٦٨
الحرب الكورية (١٩٥٠ - ١٩٥٣): ١٦٣

الحرب النفسية: ١٣٥، ١٦٨
حركة فتح: ٥٥
حركة القوميين العرب: ٥٥
حزب البعث العربي الاشتراكي (العراق): ١٠، ٣٦
حسونة، عبد الخالق: ١٦، ٦٩
حسيب، خير الدين: ٢٧
حسين، صدام: ٩، ٤١، ٩٠، ٩٥، ١٢٢-١٢٣
حكومة فيشي: ٥٢، ٥٤
حمزاوي، عمرو: ٢٧
حمورابي: ١٠٧
الحوت، شفيق: ٥٥

- خ -

خنفر، وضاح: ٢٧

- د -

دوميلو، سيرجيو فييرا: ١٦٠
ديغول، شارل: ١٥، ٣٨، ٥١-٥٣، ٦٢، ٦٤-٦٥، ٦٨-٦٩، ٧٤، ٨٧

- ر -

الرأي العام: ١٣، ١٥، ٤٤، ٦٨، ١٣٨
الرأي العام الدولي: ٣٦، ٦٨
الرأي العام العراقي: ٣٦، ٦٨
رامسفيلد، دونالد: ٢٢، ١٢٢-١٢٣، ١٢٩، ١٤٤، ١٥١، ١٥٩، ١٦٩
الراوي، سيف الدين: ٤٧
رايس، كونداليزا: ١٥٩
روز، فرانك: ١٢٤
ريغان، رونالد: ١٢٤، ١٣١
ريفيرو، جون: ٩٨
رينو، بول: ٥٣

- ز -

الزبيدي، وليد: ٢٨

- س -

ساسكس، جيف بادري: ١٣٩
ساهب، راشيد: ١٤٣
ستراسيكي، كيرك الين: ١٤٤
ستورا، بنجامين: ٥٠
سكتيري، توم: ١٦٩
سولفيان، نارسون: ٩٨
سيطرة الصين على الفييتنام (١٠٠ ق م): ٥٧

- ش -

شيخ حسين (والي الجزائر): ٥٠
شينسكي، إيريك: ١٥٣

- ص -

الصحّاف، محمد سعيد: ١٠، ٣٦

الصراع الأمريكي ـ السوفياتي: ٦٣
الصراع العربي ـ الإسرائيلي: ٦٢، ٦٤

ـ ط ـ

الطائفية: ١٤٤-١٤٥

ـ ع ـ

العالم الثالث: ١٦، ٦٩
عبد الناصر، جمال: ٦١، ٦٣
العلي، عمر: ٢٧
عمليات تهجير اليهود: ٥٦
عملية عقرب الصحراء (٢٠٠٣): ١٦٨
العنف الثوري: ٥٦

ـ غ ـ

غارنر، جي: ١٣١
غوردون، مايكل: ١٤٦، ١٥٣، ١٧٢
غيفارا، إرنستو تشي: ١٧، ٧٢

ـ ف ـ

فرانكس، تومي: ٢٢، ١٠٢، ١١٦، ١٢١-١٢٣
فرانكي، بنجامين: ١٦٥
فلايشر، آري: ١٥٩
فيسك، روبرت: ٨٨
فيلدمان، نوح: ١٤٤

ـ ق ـ

القتلى الأمريكيون
ـ إدوارد، جيفري: ٤٣، ٨٨، ٩٥-٩٦
ـ أرنولد، أندريو: ٩٨
ـ أكيفيدو، جوزيف: ٩٧
ـ ألين، ريتشارد: ٩٨
ـ أوبرليتنر، براندن: ١٥٩
ـ أوتّ، كيفن: ١٧٦
ـ أورينغو، ريتشارد: ١٧٤
ـ أوينز، ديفيد إدوارد: ٤٣
ـ إيفانز، ديفيد: ١٤٤
ـ باراغونا، دومينيك: ١٤٤
ـ باهنكي، شون: ١٦٧
ـ براون، جون: ٤٤، ٩٨
ـ براون، هنري: ٨٦
ـ بريتشارد، دنكان جيفري: ١٤٢
ـ بوكمي، أندرو: ١٦٤
ـ بوه، جيفري: ١٩، ٨٥
ـ توستو، ميشال: ١٦٩
ـ تيجيدا، ريان: ٤٣
ـ جارزا، جو: ٩٨
ـ جاسون، ديفيد: ٩٨
ـ جوزيف، باتريك: ٩٨
ـ جيفنز، جيسي: ١٢١
ـ دوليغ، ميشال: ١٦٣
ـ دويل، ميشال: ١٧٠
ـ ديبلر، جاسون: ١٣٠
ـ ديفيد، أوينز: ٩٧
ـ ديفيد، جايسون: ٤٤

ـ رايان، تيموثي لويس: ١٤٤
ـ روبرت، جي آر: ٩٨
ـ روكهولد، مارلين: ١٣٢
ـ رينولدز، شين: ١٣٠
ـ سميث، رنشال ج: ١٧٣
ـ سوتيلو، توماس: ١٧٦
ـ سويل، جوزيف: ١٦٦
ـ شيبرد، ديفيد: ١٤٢
ـ شيلدرز، تيري: ٨٥
ـ غريفن، باترك لي: ١٤٣
ـ غوتيريز، جوس: ٨٥
ـ غوكسين، هانسن: ١٣٤
ـ غونزاليز، أرماندو: ٤٤، ٩٨
ـ غونزاليز، جيسز: ٩٧
ـ غونزاليس، جو فرانسيس: ١٤٢
ـ غونزاليس، خيسوس: ٤٣
ـ فان دوسن، براين: ١٣٤
ـ فرانتز، روبرت: ١٦٩
ـ فولي، توماس: ٤٤، ٩٨
ـ فيليبس، غلاديمير: ١٧٦
ـ كارل، ريتشارد: ١٣٤
ـ كالدويل، ناثانيل: ١٤٤
ـ كليبوكر، باتريك برين: ١٤٣
ـ كلينسميث، جون: ١٦٥
ـ كوريز، دوغلاس جوس مارين: ١٤٣
ـ كوكس، رايان: ١٦٦
ـ كوكيزن، جاكوب هنري: ١٤٢
ـ كونواي، تيموثي: ١٧٧
ـ كيلي، أندرو: ١٣٩، ١٤٢
ـ لاتهام، ويليم: ١٦٩
ـ لام، ألان: ٩٨
ـ لامبرت، جوناثان: ١٥٦
ـ لام، ليام: ٩٨
ـ لامونت، أندرو ديفيد: ١٤٤
ـ لينون، سيدريك: ١٧٤
ـ مارشال، جون: ٨٦
ـ مارين، ألتانسيو هارو: ١٥٨
ـ ماكدونالد، غريغوري: ١٧٤
ـ ماكينتوش، جوشوا: ١٧٦
ـ مايك، جوزيف: ٤٤
ـ موريز، بافل: ١٤٠
ـ موور، جاسون وليم: ١٤٤
ـ ميركادو، جل: ٩٧
ـ ناكامارا، باول: ١٧٠
ـ نوت، ديفيد: ١٤٣
ـ نيومز، إليزابيث: ١٣٧
ـ هارفي، ليونارد: ١٤٢
ـ هالينغ، جيسي: ١٦٢
ـ هيمنغواي، تيري: ١٩-٢٠، ٢٢، ٤٣، ٥١، ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٩٤-٩٦، ١٢٣
ـ وايت، أرون دين: ١٤٤
القضية الفلسطينية: ١٦
قضية لوكربي (١٩٨٨): ٩٤
القيسي، عبد الوهاب: ١٥٣

ـ ك ـ

كلنتون، بيل: ٣٧
كلنتون، هيلاري: ٢٦
كونواي، جيمس: ٢٣، ١٥٤-١٥٥

كونولي، ديفيد: ١٥١
كيلي، روبرت: ١٣٩
كيلي، مايكل: ١٠٧

ـ ل ـ

لنكولن، أبراهام: ٩٠
ليبو، ريتشارد نيد: ٢٦
ليبي، ريتشارد: ١٤١

ـ م ـ

المارينز: ١٢، ١٩، ٢١-٢٢، ٨٥، ٩٠، ٩٣-٩٤، ٩٦-٩٧، ١٠٠، ١٠٣، ١٢٥، ١٢٩، ١٤١-١٤٥، ١٥٥-١٥٦، ١٦٦، ١٧٤
ماكيرنان، ديفيد: ١٤٧
ماكينمارا، روبرت: ٧٥
ماوتسي تونغ: ٢٩، ٧١
مراد، دودوش: ٥٠
مرزوك، روتيسلاف: ١٤٠
مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت): ٢٦
مزغنة، أحمد: ١٦، ٧٠
المعاهدة الأمريكية ـ الفرنسية (١٧٧٨): ٦٥
معركة ديان بيان فو (١٩٥٤): ٥٧-٥٨، ٦٠
المقاومة الجزائرية: ١٦، ١٨، ٣١، ٥٠-٥١، ٥٩، ٦١، ٦٨، ٧٠، ٧٤، ٨١
المقاومة الفرنسية: ١٦، ١٨-١٩، ٣١، ٥١، ٥٣، ٦٤-٦٥، ٦٨-٧٠
المقاومة الفلسطينية: ١٦، ١٨-١٩، ٣١، ٥٤، ٦٣-٦٤، ٦٨-٧٠
المقاومة الفييتنامية: ١٤، ١٦، ١٨، ٣١، ٥٦، ٥٨، ٦٠، ٦٨-٧٠، ٧٥، ٨١، ٨٩
منظمة التحرير الفلسطينية: ٥٤
الموساد الإسرائيلي: ١١٥
مولر، مايك ريد: ١٤٧

ـ ن ـ

نايبور، غافين: ١٦٣
نداء فرنسا الحرة (١٩٤٠): ٥٢
نظمي، وميض عمر: ٢٧
نيكسون، ريتشارد: ٦٠

ـ هـ ـ

هال، ريك: ١٧٤
هتلر، أدولف: ٣٨، ٦٤
هوليوود: ٩٣
هويدي، فهمي: ٢٧
هيمنغواي، إرنست: ٩٦

ـ و ـ

وايت، مايكل: ٤٠
وليامز، دانييل: ١٧٢
وولفوفيتز، بول: ٧٧، ١٣٦